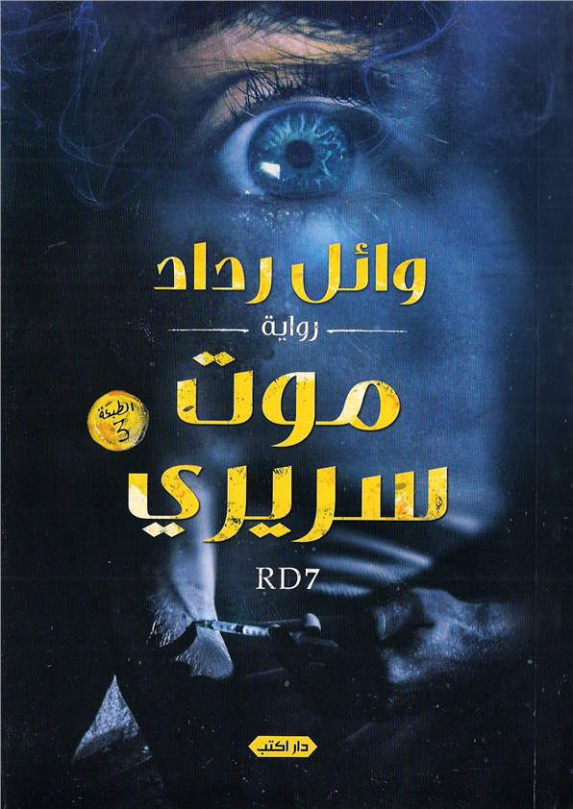




وائل رداد

رواية

موت
سريري



RD7

دار اكتب

مَوْتُ سَرِيرِي

وائل رداد

رواية



دار اكتب للنشر والتوزيع

بداية

عَقِبَ عودته للسكن، هُرِعَ (شاهر) للثلاجة، فالتقطَ منها شيئاً
بِسِرِّيَّةٍ وَعِنَايَةٍ، بعدها، تمدَّدَ على فراشه دون طعام غداءٍ أو حتى تبديل
لباسه..

كانت الحُقنةُ في جيبه جاهزةً ومُعَدَّةً للاستخدام، مادة (R.D.5)
الملائكية! العذبة! صانعها قديسٌ يستحقُّ جائزة نوبل على هديته
للإنسانية جمعاء.. يستحقُّ اللجنة!

لقد مَنَحَ البشرية أَمَلَ الاستمرار في الهراء الأزلي.. أزالَ الغطاء
كاشِفاً عن الإبرة، طَرَقَهَا بترَفُّقٍ بأنامله، ذَرَفَ الرأسُ المُتَمَنِّمُ بعض
السائل، فبحثَ عن الأوردة المُتَفَرِّعة في ذراعه بعد رَبَطِها بحبلٍ
مَطاوِيٍّ، ضَرَبَ الموضعَ المَنشُودَ بضعَ مراتٍ مُتَفَقِّداً الأوردة، ثم دَسَّ

الإبرة في أحدها وهو يعضُّ شفته السفلى، ومن ثم استرخى مُباشراً التحليق..

كان ذلك عندما طَرَقَ شَخْصٌ البابَ مرتين بأدبٍ جَمِّ قبل أن يَدْخُلَ..

الشيخ (نزار) - كما كان يُحِبُّ أن يُلقَّبَه - طالبٌ في كلية الشريعة والقانون، نَحِلٌ كأعواد قصب السكر، له نظرة طيبة مُتَسَمَّة بالهدوء والرزانة، وكعادة الأكثرية الساحقة من طلبة كُليَّته كان يُطلق لحيته، ولم يكن يُمشِطُها مُطلقاً..

أحياناً يُرَحِّبُ بِقُدومه، وأحياناً أخرى يتعمَّدُ مُضايقته عن طريق تشغيل الأغاني الغربية الصَّاحِبَةِ بُغْيَةٍ حَمَلِهِ على الرَّحِيل!

اليوم - لحسن الحظ - كان يتوقُّ لرؤيته والتَّسامُرَ معه قليلاً..

تبَسَّم وهو يردُّ تحية الشيخ (نزار) بِمِثْلِها، ودعاه للجلوس على السرير الذي ظلَّ مُتَمَدِّداً عليه، فجلس قائلاً وأصابه تَدَاعِبُ لحيته:

- صباح الخير، ما لك مُلتَحِفًا الفِراش كالْموميّات هكذا؟

- صدري كالْجَحِيمِ، كلما سعلتُ شَعُرْتُ بِالْقَطِرَانِ يَكَاذُ يُخَالِطُ

دَمِي..

- الله يشفيك ويعافيك.. كله من الدخان!

- الحق أنه قد نَهَشَ حَلْقِي نَهْشًا.. ابن الملعونة!

- لا حول ولا قوة إلا بالله..
- كيف حالك أنت؟
- نحمدُ الله..
- وكيف حال أيام الدراسة المُضنية معك؟
- ردُّ كمن يتنهَّد:
- الحمد لله على كل حال.. ماذا عنك؟
- الحق بأني ضِقتُ بكليتي والجامعة ذُرْعًا..
- إن الله مع الصابرين..
- صبر (أيوب) ما كان ليُجاري صبري..
- أستغفر الله العظيم..
- والله حائق علي..
- نحمده في السَّراءِ والضَّراءِ..
- قد أصابني بالتهابٍ.. والله أعلم!
- وفي الصحة والمرض..
- نغضبُ ونحقُّ على كل شيء ونحن لا شيء إذن..
- هنالك أمور في الحياة تستحقُّ أن نُحيا لأجلها..

معك حق، لذا قررت ولوج كلية أخرى..

- إذن فقد وجدت ضالتك!

- وهل وجدت أنت ضالتك أخيراً؟ إنك تبتسم رغم كل ما قلته

لك!

بلغت بسمه (نزار) من السعة ما دفع (شاهر) للتخاُّب أثناء

الحديث تدريجياً:

- أم تراه تُصَفِّك الآخر يا شيخ؟

تورَّد وجه الشاب قليلاً، فأدرك (شاهر) إصابته منتصف الهدف

بالضبط.

سأله بدهاء كي يزيد من ارتباكهِ:

- مَنْ سعيدةُ الحظِّ يا نَمْس؟

- بنتُ الجيران!

- وكيف أدركتَ أنها ضالتك المنشودة؟

- لَحَّتْها وهي عائدة لمرلِّها مع والدها..

- وأعجبَتكَ؟

- كانت نظرةً يتيمةً وكافيةً..

- لمعجبة أم مُعجزة؟

- أعوذ بالله منك! ما . أُنك أنت؟
- صدقت.. الطيبون الطيبات..
- لكنني مُتردّد وقلق..
- من الظروف.. أفهمك..
- من كل شيء..
- فوضّها إلى الله وتوكل عليه..
- ذلك ما عقدت العزم عليه..
- والأهل؟
- ماذا بشأنهم؟
- هل هم موافقون؟
- مبدئيًا أجل..
- ماذا تقصد بمبدئيًا يا أخي؟
- الوالدة متحمّسة وموافقة..
- كعادة الأمهات الحميمة..
- لكن الوالدة متصلّب الرأي مُتيّس الرأس..

- كديدن الآباء أصحاب المزاج الكدير الذين لا يشعرون
بعذابات أبنائهم..

- واليهت؟

وهنا صمت كأنما أصابته صاعقة من الخرس المباغت..

هبَّ نصف (شاهر) العلوي، وبإشارة نصير من سيابته لَوَّحَ بها في
وجه (نزار)، صاح:

- اصطدناك بالجُرم المشهود.. حادثتها يا نمسُ إذن؟!

أجاب وحمرة الحياء تطفئ على لون بشرته الطبيعي:

- كفَّ عن ترديد ذلك كما لو كانت وصمة، أردتُ فقط معرفة
رأيها لأني خشيتُ أن ترفضني..

- معك كل الحق، هو شعور بغيض فيه طعن للرجولة ومذلة..
وبمَ ردَّت عليك؟

أجاب مُنبسط الأسارير:

- ماذا تظنُّ؟

- بناتُ حواء لم يعدنَ بريئات!

- لكنهنَّ مُخلصات في الحبِّ على الأقل..

- رأيي أنهن صرنَ مُخلصاتٍ للمادة أكثر، تمثيلية روميو وجوليت انتهت!

- لا أوافقك الرأي، فالفتاة كانت - وما زالت - مُستعدةً لبذل كل غالٍ ورخيصٍ لأجل مَنْ تُحبُّ..

- كلام روايات وأفلام.. دعني أقصُّ عليك ما دار بين ابن خالي وخطيبته، كان قد رآها أوّل مرةٍ في منزله، جاءت مع والدتها لزيارة والدته، فوقعَ أسيرٌ هواها بسهولة، لكنها بعد ذلك اختارت شاباً آخر لتخطّم بذلك آمالَ قلبه..

عَلِمَ خالي بالأمر، كان رجلاً مُتفهِّماً، كما أنه اتّسم بالدهاء، فراقبَ خطيبَ الفتاة حتى اكتشفَ أنه يُعاقِرُ الشرابَ، فأخذَ والدَ الفتاة - وكان قريبه - في نزهةٍ عَفْويةٍ، ومراً بالقرب من إحدى الحانات التي يسهرُ فيها الفتي، وهكذا، تساءل خالي لما لَمَحَهُ خارجاً من الحانة وهو سكران بعفوية: أليسَ هذا خطيبَ ابنتك؟

- ماكرٌ للغاية خالك هذا!

- فُسِخَتْ خُطْبَتُهُما، كانت صدمة هائلة للفتاة، فقد أَحْبَبَتْ خطيبها من صميم قلبها كما يبدو، ونتيجةً لذلك أُصيبَتْ باكتئابٍ حادٍّ وحالةٍ نفسيةٍ غريبةٍ أدت إلى تَساقُطِ شَعْرِها، حتى غدت مُروَّعةً الشكل كالفرّاعة!

- أَرَأَيْتَ؟ أَنْتَ بِذَاتِكَ قَلْتَهَا: "أَحَبُّهُ مِنْ صَمِيمٍ قَلْبُهَا"، انْظُرْ مَا أَصَابَ الْمَسْكِينَةَ مِنْ جَرَاءِ حُبِّهَا الَّذِي فَشِلَ..

تَجَاهَلَ (شَاهِر) مِلْحُوظَةَ صَدِيقِهِ مُوَاصِلًا السَّرْدَ بَتَعْنَتٍ:

- الْمَهْمُ أَنْ ابْنِ خَالِي تَقْدِّمَ لِحَطِيبَتِهَا رَغْمَ ذَلِكَ..

- الْحُبُّ أَعْمَى، صَدَقَ مَنْ قَالَ ذَلِكَ!

- قُلْتُ لَهُ إِنَّ شَعْرَ الْمَرَأَةِ تَاجُهَا، فَرَدُّ قَاتِلًا بِأَنِّي لَا أَفْقَهُ فِي مَذْهَبِ الْحُبِّ شَيْئًا!

- أَتَفَقُّ مَعَهُ، وَمَاذَا حَدَّثَ بَعْدَهَا؟

- فَسَخَّتُ حَظْبَهُمَا..

- لِمَاذَا؟

- أَتَضَحُّ لَهُ أَمَّا فَتَاةُ أَهْلِ طَمَاعَةٍ وَسَلِيطَةُ اللِّسَانِ، لَا تُقَدَّرُ سِوَى الْمَالِ!

- يَا سُبْحَانَ اللَّهِ! لَكِنْ ذَلِكَ لَا يُؤَيِّدُ نَظْرِيَّتَكَ مُطْلَقًا، يَجِبُ أَنْ نَكْفُفَ عَنِ إِطْلَاقِ التَّنْظِيرَاتِ الْمُتَجَلِّةِ ذَاتِ التَّعَامِيمِ الطَّائِنَةِ..

- يَا بُنِي نَحْنُ مَعَ النِّسَاءِ مَجْرَدُ دُمَى لِلْهَوَى، كُلُّهُنَّ مُجَنَّدَاتٌ لَدَى (إِبْلِيسَ) اللَّعِينِ!

(شاهر) ما زال على حاله.. على سريرهِ مُتَأَمِّلًا السَّقْفَ باستمتاع
وتعبير الانتشاء بادُّ على تقاسيمه الخاوية.. عندما اندفعَ إلى داخل
الحجرة بَغْتَةً.. الشيخ (نزار)!

بدا واجها، مُتَجَهِّم الملامح وهو يُتمِّمُ:

- السلام عليكم..

فردُّ عليه باسمًا كمن أصابه دُوارٌ:

- وعليكم السلام.. ما لك؟

- الدنيا دارُ ابتلاء..

- وَمَنْ قال إنها دارُ نعيمٍ ورخاءٍ؟

- ألا تَبًّا للعِشْرَةِ بِأَسْرِها!

- أوافقك الرأي، لكن، ما بالكَ تُنطِقُها بغيظٍ هكذا؟

تنهَّدَ كمنْ بَهَتَتْهُ مُصِيبَةُ المصائب، وَهَمَّهِمْ مُتضايِقًا:

- كيفَ حَالُكَ أَنْتَ؟

- لا تتهرَّبْ من السؤال.. لكن لحظةً، الموضوع له علاقة

بجولييت، أليس كذلك؟

- إلى..

- الذي جرى بينكما؟

- وافقتُ على خطبة شابٍ آخر!
- انتكاسة اليمّة، هوّن عليك يا شيخ..
- ناقصاتُ عقلٍ ودين!
- تبسمُ مُرغماً وهو يتنهّد، ثمّ تساءل:
- هل أستطيعُ تدخين سيجارة؟
- افعلْ ما بدا لك..
- هل تُسمَحُ لي أن أستمعَ لبعض الموسيقى؟
- لا!
- إذن، دعني أقصُّ عليك ما دار بين ابن خالي وخطيبته البلهاء..
- ظَهَرَ الغُوس عليه مُجدِّداً وهو يُسارِعُ بالقول:
- حكيتُها لي من قبلُ مرّاتٍ عدّة!
- وظلَّ يُراقِبُه مُدَّةٌ دونَ أن ينطقَ بكلمةٍ، كان يُراقِبُ مِنْفِضَةً السجائر الممتلئة عن آخرها بالأعقاب حتى فاضت بحملها..
- حيّاهُ وخرج عَقِبَ محادثتهما السريعة، فرَقَدَ (شاهر) على ظهره مُتأملًا سقفَ الحجرة، حيثُ تدلّت مروحةٌ متهالكةٌ تدورُ مُصدرةً صوتَ أزيزٍ ضوضائي، كانت الرطوبة خانقةً، وقد شَعُرَ برغبةٍ في النوم للخلاص من الشعور المُمِضِّ بالاختناق..

فجأة.. ارتعدَ بَدَنُهُ رَعْدَةً هِسْتِيرِيَّةً، وَهَدَلَ نَصْفُهُ العلوي على الأرضية، في حين ارتجفت ساقه اليمنى بشدَّة، وكأنه يُنازِعُ تحت الماءِ أملًا في الوصول للسطحِ للتنفُّسِ، وانفجرت رغوَّةُ بيضاءِ شنيعةٍ من بين شفتيه.. كان هذا قبل أن يتحوَّلَ إلى جُثَّةٍ، أو أن هذا ما شعر به..

لا بُدَّ أن المادة اللَّعِينَةُ الرائعة السببُ!

حفلةٌ جميلةٌ مُقامَةٌ في الدار تميَّزُ بتلقائية..

والدُّهُ أصرتْ على إقامتها، ووالده حَضَرَهَا على مُضَضٍ لأن لا وقت لديه لهراء أعياد الميлад، فقد وَعَدَ ذلك المساء - وفي هذا التوقيت تحديداً - بمُوافاةِ شخصٍ ما في مكانٍ اتَّفَقَ عليه مُسبقًا، شقةٌ مستأجرة لا يدري أحدٌ عنها شيئًا باستثنائه هو وشخص خاص يهيمه أمره كثيرًا!

رَدَّدَ ثرثرةً عن تفاهةِ أعياد الميлад لم يجد لها أذنًا مُصغيةً، أبدى تبرُّمًا وهو يُشاهدُ الكعكةَ المُغطاةَ بطبقةٍ ثَقِيلَةٍ من الكريمةِ المُخفوقةِ والشموعِ المغروسةِ بها، ويُنبِّصُ لأنشودةَ "سنة حلوة يا جميل" المُضجِرة.. وانتظر بنفادِ صبرٍ إطفاءَ ولَدِهِ الوحيدِ عشرَ شُموعٍ شُموعٍ بأنفاسه الضعيفة وسط تهلِيلِ المدعوِّين وتشجيعِهِم..

طالب انتظاره، ففرب فمه من الشموع قائلاً لولده:

- دعني أساعدك وإلا بقينا هنا حتى منتصف الليل!

أطفأ الشموع بنفخة واحدة وزوجه نُطيلُ النظرُ إليه بعتابٍ ولومٍ،
لكنه تجاهلها مُقبلاً الصبي في جبهته قائلاً بعجلة:

- عُقبال مئة سنة يا (شاهر) ..

قَبِلَتِ الأمُ وحيدها على خَدِّه، في حين أشار الأبُ إلى ساعته من
وراء الابن وتحت أنظار الأم، التي اكتفت بنظرة مُتجهمة وهي تُشيرُ
إليه أن يرحل.. بإمكانك الرحيلُ ما دامتُ رفقتنا لا تُسرُّكُ إلى هذا
الحَدِّ!

والصبي لم يكن سعيداً، لا هدايا باستثناء دفتر رسم وأقلام تلوين،
حتى الكعكة التي قَطَعوها رمقها بنظرات القرف والازدراء، فهو لم يعد
يطبق الحلوى ..

جلست الأمُ مع بعض النسوة يُثرثرن، وتنحى الأطفال للعب
والعبث بأثاث المنزل، في حين انتحى (شاهر) جانباً كي يُخرج علبة
السجائر التي سرقها من حُجرة والده ..

تناول سيجارة وهو يُشاهدُ من خلال النافذة والده واقفاً يُشعلُ
سيجارةً هو الآخر باسمًا لخلاصه أخيراً من ذلك السجن، بدا سعيداً، لم
يكن كذلك قبل دقائق معدودة ..

والدته تُحدثُ جاراتها وتضحك .. تضحك ملء فمها، تضحك
شامتةً لسماعها خبر طلاق .. يَبْتَهِها المُقربة ..

الأولادُ يختلسونَ النَّظَرَ إليه، سادَ الهمزُ واللمزُ، وكانَ أحاديثُ
النِّسوةِ لا تكفي، انتقلتِ عدوى التَّهَكُّمِ والشَّماتَةِ لآلِجَاهِمِ أيضًا!
يلدنونَ طريقته في التدخين ويتضاخكونَ ساخرين!

كَتَمَ سَعَالَهُ بكفِّه، وذهبَ إلى الحمامِ حيثَ أقفلَ على نفسه البابَ
هناك..

شَعَرَ بشيءٍ من السَّكينة.. أنا داخلُ مكانٍ تَتَنِي الرائحةُ ومُقفِلٍ، لا
أحدٌ يحسُّ بي، لا أحدٌ يسألُ عن وجودي، أنا منبوذُ كصراصيرِ هذا
الحمام! لن يفقدَ وجودي أحد.. أبدًا!

ثم لم يشعر إلا وتيارٌ كالكهرباء العنيفة يسري في عروقه.. انتفض
بدنه بضع مرات، وتدفقت رغوَةٌ بيضاءُ بغزارةٍ من بين شفتيه،
وتحوّلت مُقلّته للونِ أبيضٍ مُفزعٍ، وكانَ مسًّا قد أصابَ بدَنه
الضئيل..

توقفَ أخيرًا عن الانقباض، وهَمَدَ تمامًا كما لو استحالَ جُثَّةٌ
هامدة..

عندما فَتَحَ (شاهر) مقلتيه الواهنتين وجدَ نفسه راقداً على سريره
داخل سِكن الجامعة..

كانَ العَرَقُ يتسرَّبُ من جميع مسامات جلدِه، ونبيرةٌ هستيريةٌ أخذتْ
يُرَدِّدُ وأنفاسُه تتلاحقُ كما لو كانَ عائداً من سباقٍ ماراثون:

- مجرد كابوس.. مجرد كابوس مُفزع!

نَظَرَ من خلال النافذة، فأبصر الأفقَ يسطيعُ بلونِ أرجواني خلابٍ،
دفعه لأن يقولَ هامساً:

- الفجرُ ينبُجُ..

ونَهَضَ من على الفراش بتثاقُلٍ مُردِّدًا في خلاص:

- كابوسٌ مُفزعٌ.. مجرد كابوسٍ مُفزعٍ!

الجزء الأول

1

تدحرجت كُرَّةُ قدمٍ مُتَسَخَّةٌ بالطين الجافِّ وعلامات الأصابع
العارية بين الأقدام الخافية العنيفة.. صغار يمارسون اللعبة كأنهم في
حَرْبٍ، يتشاجرون بأكثر مما يتسلون، ويحاولُ بعضهم تحطيم سيقانِ
بعضِ هجماتٍ رُغنٍ هَدَفُها الأذية البحتة..

في ذلك الحي الفقير القَدَرِ، حيثُ يجلسُ الشُّبانُ بجذوعٍ عاريةٍ
طلبا لبعض النسائم الباردة التي لا تحييُّ ذاتَ ظهرٍ قانظٍ، وتترك
النسوةُ الدميماتُ كالتوقِ لغسلِ الخضراواتِ تمهيدا لبيعها، مُراقباتِ
أنجاليهنَّ وعيونهنَّ غيرِ مهتمة، وألسنةٌ لا تكاد تتوقَّفُ عن قَذْفِ
الثَّرَثَةِ، والرجالُ بادؤُ الشَّرَاسةِ والخُطورةِ وهم يتبادلون الأحاديثَ
وتدخينَ لفائفِ يدوية الصُّنع، ولربما تلمحُ مُستأً عركته الأيامُ
يضطجعُ على قارعة الطريق مُتضمخًا بالعرقِ، والذُّبابُ مُجتمِعٌ عليه،
فلا يكاد يطرف له جفنٌ..

بدا حيّ أشباح لا أثر للحياة فيه، فتمطّ ممارسات رتيبة كئيبة،
الشتائم الداعرة والمجدفة ترتفع فستقبلها آذان النسوة بضجر غير
مُعلن، والعفاريث الصغيرة تتشاجر بشراسة تُعجب الشيطان،
يتقاذفون فيما بينهم فلا يسلم عرض أبداً..

تمرّ فتاة لعوب مرتدية تنورة قصيرة ومطوَّحة بساقين ملويتين
ببراعة، فيتصايح الشبان بمجموح مطالبين المليحة الجريئة بمزيد من
الجرأة، يُطاردونّها بنظرات نارية، وأفواههم إمّا مفعورة أو ناطقة
بالعبارات القذرة المتلمظة، فلا تُظهر المليحة استنزازاً إلا لركض
الجُرذان قرب كعبيها، وقد تتوقّف لتردّ لهم بعضاً مما قذفوها به،
فتبصق صوب هذا، وتشمّ أمّ ذاك، ثمّ تلتصق بالجميع وصمة "أبناء
الحرام" قبل أن تغيب..

تحدث ثورة مفاجئة بين صفائح القمامة الصّلبة.. إذ وثب قطّ
قذر أعور بعتة بُعية اصطياد جُرذ يقتات عليه، قبل أن يهرع بعيداً في
رُكنٍ بعدما ظفّر بغنيمته التي تقطُر منها القذارة..

الرائحة كريهة، لا تُحتمل، كأنها رائحة الغائط في قِماط طفلٍ،
والجميع غير آبه للروائح، والشتائم، والمُشاجرات، كأنه جحيمٌ نتنٌ
على الأرض، بُقعة لا يُصدّق وجودها ما لم ترّها، والمخزن أنك تراها..
هكذا فكّر (شاهر) مُتأملاً "ديستويا" التي ولجها بقدميه.. بدا أنيقاً
مُقارنةً مع الأسماك التي يتلفعون بها، ارتدى بذلة رمادية غامقة مُبخرّة

وقميصاً سماوياً، بصره محجوب بنظارة سوداء رَمَقَ عَبرَها الحياة
الوحشية مهموماً.. لربما كانت فكرة سيئة.. قدومه إلى هذا المكان
الذي يعاني أسوأ صنوف الشُّظف، هم كان يفكر بحقّ الجحيم؟ المكان
كان وكراً، جُحَرَ ثعابين، وليس مَسْكناً لآدميين..

اشأبت الأعناق صَوْبَه، الجميع توقّف عما يقوم به، كان الزمن
ذاته توقّف في الحى القلدر، حتى الجرذان في مستودعات القمامة
ركدت، الأنظار مُثبتة عليه، تُتابعه بشغفٍ وكراهيةٍ وتحفُّزٍ..

الصغار توقّفوا عن الشَّجارِ وهتِكِ الأعراض بالأسن، كانت
الكرة تندرج ببطءٍ حتى استقرت بين قدمي الغريب.. تأملها ساكناً
قبل مدّ أنامله والتقاطها.. ببطءٍ رَفَعَهَا حتى واجهتْ بَصَرَه، كما لو
كان يتأمّل كُرّة كريستالية ذات أنوارٍ خَلابيةٍ..

التقط الشُّبانُ طرف الخيط، رحبوا بالمواجهة، أخرجوا السلاح
الأبيض واقتربوا بحماسةٍ لا تخلو من حذرٍ، بدوا كُثُور يافعةٍ باحثةٍ
عن فرائسٍ، ففتَحَ أنامله لِيَسْقِطَ الكُرّة..

تدحرجت جانباً، فتابعتهَا أبصارُهم كأنها رسالةٌ ما، عادوا لمراقبته،
كان صامتاً كصَمٍّ، يتابعُهم ببصره كما يتابعونه، كانت معركةٌ تحديقي
بالأبصار..

- "ماذا تريد؟" -

أخيراً كَسَرَ أحدهم حاجز الصمت، حتى إن بعضهم تنهَّد
بارتياح، كان الصمت مُطبَّقاً وغريباً في حضرة ذلك الغريب، وتحمَّس
أكثر الصبية فتعالت الصيحات المتحمسة:

- "اخلعوا عنه ثيابه!"

- "افتحوا بطنه!"

- "اخرسوا يا خنازير!"

خَرَسَ الصَّبِيُّ كالدمى التي فرغت من بطارياتها، في حين، رجع
الاهتمام المتربص كله صوب الغريب الصامت.. هل ينطق؟ متى ينطق؟
لماذا لا ينطق؟ أهو أصم؟ أم أخرس؟ أهو مجنونٌ كي يظهر بقدميه في
حي كهذا الحي بمنذامه المرتب ذاك؟

- "ابحثْ عَمَّنْ يُدعى (ضيوي)!"

بدت جُمْلَةً عاديةً خرجت من فمٍ طبيعي، لكن بدا لوقعها على
نفوسهم أثرٌ الصاعقة، وأدركوا -على نحو ما- أن الغريب الآن بات
مَمْنوعاً من اللَّمسِ حتى ينظر كبيرهم في أمره..

- "هلم.."

ساروا وسار يتبعهم دون أن يحيد بصر أحدهم عن الدُّرْب
المقصود، رُفَاق ضيق عبوره، مياه المجاري الطافحة في كل شِبْرٍ ورُكْنٍ،
والناموس متجمع فوق البرك المائلة للخضرة المتعفنة، تقاطرت مياه

التياب المغسولة والمنشورة على الشرف فوقهم كالأمطار، الرطوبة
تزيدهم اختناقاً كلما ضاق الممر، أبصر (شاهر) في آخره باباً شبيه
موارب، وقبل أن يبلغوه توقف الفتي الذي يقودهم قائلاً للجميع:

- انتظروا..

قصدَ بها الزائر طبعاً دون أن ينظر إليه، وغاب بالداخل مدةً
قصيرة تاركاً الشاب بين أعوانه، يلوكونه بأنظار حادة تنبش عن سر
زيارته لمقر قيادتهم، لكنه وقف غير آبهٍ لشيء، لا يتحرك به سوى
صوت أنفاسه المنتظمة..

- "ادخل..."

انبثق الصوتُ من العتمة المبهمة، فجاوز (شاهر) الجميع ليلج
بخطى رتيبة وجراة غير معقولة، لم يزر مكاناً كهذا في حياته من قبل،
لكنه مستعدٌ الآن لما هو أكثر..

لم يتبين سوى ظهر الفتي المتحرك بسبب العتمة الدامسة والنظارة
على عينيه، لكنه لم يخلعها.. تبع الفتي فحسب إلى غرفة تشعُّ بضوءٍ
أحمر خافتٍ.. وبالدخل، تمددَ رجل في أواخر الستينيات من عمره، ذو
حاجبين كثين على أريكة خشبية مُرتدياً جلبابَ نومٍ مُقلَّم، وقد وضع
قدمًا فوق الأريكة وأراح الأخرى على البلاط حيث جلست امرأة
غير محتشمة تجهز له "الترجيلة"..

تصاعدَ البخور من مبخرة عثمانية مُتدلية من السقف، على
الجدران فراء ثعالب وبضع قِطْعِ أثريّة مُتدلية، غدارات وسيوف من
عهد إسلامي مُندثر..

الجدار وراء الرجل حمل لوحة ذات إطار مُزخرف دُوت عليها
آياتُ سورة الصمد، فُكّر (شاهر) بالتناقض هنيهة دون إظهار ذلك
في تعابير وجهه المستكينّة..

- "دعونا.."

خرج الكل إلا المرأة المشغولة بالتعميرة، وبنظرات ناعسة ولهجة
ملول غَمَمَ الرجل دون حتى أن يرفع وجهه لتأمل ضيقه:

- نعم؟

- (R.D.6) ..

- آه!

قالها بفهم مُستهزئاً.. كما لو كان المطلب شريحة قمر صناعي
مُتطور من ميكانيكي سيارات نصاب، ماذا تصنع تحفة مثل (R.D.6)
في هذا الجحر القدر؟

أخيراً، اعتدل (ضيوي) في جلسته، لا ذوق ولا احترام.. لقد ولج
الوكر بقدميه وعليه التحمّل..

تجاهل (شاهر) رغبة القتل المعتملة في نفسه، إذ تمنى فصل رأس
هذا الرجل الثثن عن جسده.. وتتوَدَع غَمَمٌ:

- أريدُه ولو نبشت الأرض بحثًا عنه..

فتبسّم الرجل واضعًا قدمه المُشَقَّقة في حِجْرِ المرأة قائلاً لها بازدرأ:
- دَلْكي..

نفذت بانصياعٍ تامٍّ، ونظر الرجل حوله باحثًا عن رُفقةٍ غير
موجودة قائلاً باستهزاء:

- تائه يا أولاد الخلال!

- أين أجده؟

- ارجع يا بني فالعمر..

وإذ بشاهر ينقضُّ عليه لِيُطبِقَ على حنجرته بأصابع كالكلابات!
فأطلقت المرأة شهقةً، وقبل إطلاقها صيحةً باعْتَهَا (شاهر) بتحديق
زاجرٍ لا يُهادِن، فانكمت..

اختنق الرجل، سال رَبُّدُه حتى بَلَغَ القبضة التي لا تمزح، وأنصت
إلى لهجة مُهدِّد لا يبدو صاحبُها غاضبًا إلى ذلك الحد:

- "لا تُمثِّل دور الرِّيس عليّ! أنا لا أُمثِّلُ لبصقة، وأنت مجرد
بصقة.. هل ينصتُ عاقلٌ لبصقة؟"

- "آغغغغ!!"

جرس هاتف يرنُّ..

ثمّة هاتف، هاتف على الطراز القديم من زخارف مُذهّبة.. أفلت
(شاهر) ضحيته التي فقدت الثقة المتعالية تمامًا..

وبذعر، تناول (ضيوي) السماعة مَلْهُوفاً وهو يدفع المرأة بقدمه في وجهها، صارخاً بغضبٍ فجره هَلْعُه:

- إليك عني! خارجاً!

هُرعت للخارج مذعورةً ويدها لا تكفُّ عن لطم صدرها، في حين وضع (ضيوي) السماعة على أذنه.. لم ينطق بحرف وهو يستمع للطرف الآخر يتحدث، هز رأسه قبل أن يضع السماعة بمكانها متأملاً (شاهر) بنظراتٍ مُتخوفة..

لم يتفاجأ (شاهر) عندما انكشف جزءٌ من الجدار، دار على محورٍ عموديٍّ يسمح بمرور شخص واحدٍ لا أكثر، رأى نوراً أبيض كاذباً أن يطغى على الضوء الأحمر المقيت الذي وَقَفَ بمحيطه، ونبرة شابها توثّر دمدم (ضيوي):

- المُعلِّم سيقابلُك..

رَمَقَه (شاهر) بصمتٍ.. قالها كمثقفٌ باستخدامه لتلك الكلمة، كأنما يتكلم عن (أرسطو) لا عن صاحب غُرزةٍ أو مقهى..

لم يتردّد ولو حتى ثانيةً، اندفع للداخل تاركاً التابع الكلب، كان مجرد كلبٍ من كلاب المُعلِّم إذن كما توقَّع بالضبط..

لا وجود لسوى مَلِكٍ واحدٍ على أية مملكة، حتى وإن كانت كهذه في السوء والانحدار..

2

على النقيض تماماً، وجد (شاهر) نفسه في مكتبة!

المكان مُرتَّبٌ ونظيفٌ ينمُّ عن ذوقٍ رفيعٍ في انتقاء الأثاث غالي الثمن، المكتبة احتلت الجدار الخلفي وراء المكتب العريض الذي اصطُفَّت عليه تماثيل بُرنزية لُحُورٍ عارياتٍ متموضعات، ثمة صندوق خشبي يحمل صورة أيل يبدو أنه صندوق سيجار، أقلام شفرة فضية، سكين فُتِحَ خطابات..

وعلى كرسيٍّ دَوَّارٍ وثيرٍ جَلَسَ.. المُعلم.. لا يمكن إلا أن يكونه.. رجل وقور يرتدي نظارات مظلمة، وبذلة أنيقة سوداء مضمخة بعطر فاخر فَوَّاح، ورابطة عنق كحلية دسٌ بها دبوساً مُذهَّباً، كان ممتلئاً، لحيته كثَّة ذات لونٍ رمادي تخللته بعض حُمرة الحِشاء، شبهُ أصلع، وقد أطلَّ ما تبقى له من شَعْرٍ حتى بَلَغَ كتفيه..

مدَّ يده بترحابٍ داعيًا ضيفَه للجلوس على الكرسي الوحيد
الموجود هنالك، بدا كرسي اعترافٍ أو تعذيبٍ، لم يجلس (شاهر) بل
ظَلَّ واقفًا ينتظر..

أشعل المعلم غليونًا عنابيًّا بتؤدةٍ مُراقبًا النظارة السوداء التي أخفت
عيني صاحبها بإحكامٍ... فَرَّغَ من طُقوس الغليون، فنفتَ دُخانَه
الضبابي كقاطرةٍ وهو يفتح الصندوق عارضًا على (شاهر) سيجارًا
يُدخِّنه..

- "لا أَلْمَسُ هذه الأشياءُ فهي لا تعجب سوى ضيوفٍ، إنهم
يحبون التظاهر بالفخامة وكأنَّهم رجالُ أعمالٍ أو ملوكٌ، الحُمقى!
يظنون أنَّ مجرد تدخين سيجار سيجعل منهم أصحابَ شأنٍ وهم مجرد
صعاليك!"

- "لا أدخن.."

رَمَقَه الرجل بمقلتي صقر.. كانت حدقتاه نافذتين يمكن تبيينهما من
وراء زجاج نظاراته المعتمة، بدا كأنه استشفَّ كل ما يتغيه من مُراقبةٍ
تعاير ضيفَه المُتجهِّمة، وبثقةٍ هَمَسَ:

- أمتأكِّدُ أنت؟ لا أحد هنا يرفضُ الدخان، إنه الهواء الذي
نتنفسُه!

- أقلعتُ..

- هذا شائك، يقولون إن للإرادة علاقة بالإقلاع، هذا هراء،
الإقلاع يأتي عندما يضجر المرء ويفقد لذة الإحساس بالشيء...

- (R.D.6) ..

- آه.. بديل السجائر الأنسب! أتخلم بإيجاد المخدر رقم واحد
حاليًا؟

- أين أجده؟

- بالخارج ستجد العشرات، لا بل المئات من الضباع الجائعة،
أعتقد أن الخواطر راودتك بشأن هذا المكان وخارجه، لا ريب بأنك
فكرت، مَلِكٌ خَفِيٌّ للصعاليك يَسْعُه السيطرة على تعطشهم للدم
والمال والمخدرات والنساء، يضع توازنًا للإبقاء على سر الأمور
الطبيعي دون مشكلات..

كما لاحظت أجذ عزائي بالقراءة، أنا رجلٌ مُتعلِّمٌ يا سيدي، ولن
أقول عن نفسي مُثَقَّفًا، المُثَقَّفُ لا يقول عن نفسه: أنا مثقف! هذا
زيف لا شك فيه، مُكابرةٌ وغرورٌ أيضًا..

طالعتُ كثيرًا حتى شابَ بصري بعض الضعف، لكن لا بأس، هذه
ضريبة أدفعها عن طيب خاطر لمعرفة أفكار الأقدمين، كما أنها تنسني
ما يدور من هراءٍ وخواءٍ في العالم الخارجي..

في الحياة أمورٌ أهدُّ من مُجردِ معرفةِ مكانِ شيءٍ أو شخصٍ، ومن
الانتقام! الانتقامُ سخافةٌ جعلتنا أقربَ للهمجية، فقد علمتني السنون
مراقبة الجميع بعيني الحياذ وبكثيرٍ من الشفقة، هل سمعتَ بسيزيف؟
- دُلّني على المادة وإلا..

- كُلُّنا سيزيف كما ذكر (كامو)! كلُّنا ذلك الإنسان العايب،
أعمالنا هُراء، وأقوالنا هواء، نحن نأكل ونشرب ونتعاشر، أنت قادمٌ
من عالمٍ تأكلون فيه لحوم الخراف والطيور، وتشربون الماء المنقى،
والعصائر الطازجة، والمشروبات الروحية، تتزوجون كي تمارسوا المتع
الجسدية بالخلال، ولتتجبا ذريةً تدركون سلفاً ميراثها في الحياة..

ثم قَبِطُ للقاع بقدميك؟ في هذا الوكر؟ حيث يأكلون لحوم
بعضهم بعضاً؟ ولا يشربون سوى الخُمور الرديئة؟ هنا الرذيلة بأسوأ
صورها، والميراث مجهولٌ أيضاً.. بائع مخدرات؟ قواد؟ المستقبل هنا
مُظْلِمٌ كقلوب الكفار يا سيدي.. أنت قَدِمْتَ من عالمٍ مثاليٍّ خيّرٍ
بقدمين متهورتين، تظنُّ عالمنا فهِرساً في كتاب الفساد والظلام، مُفعماً
بمصطلحات المخدرات والدعارة، أنت وأمثالك تزورون المكان
لمصطلحاتٍ عجيبةٍ أجدها مُضحكةً لحدِّ البكاء، شرُّ البلية ما
يُضْحِكُ.. تحسبوننا سوهر ماركت للأشياء العفنة!

الأحراش في كل مكان يا صاحبي، عالمُك الذي قَدِمْتَ منه ليس
استثناءً من ذلك، الآن وأثناء حديثنا ستجدُ زوجتك نائمةً في أحضان

شخص آخر، ستجد رجلاً وقوراً يعملُ أستاذًا في مدرسة ابتدائية يُداعِبُ صبيًا مُداعِبته لفتاة، ستجدُ في فنادق الدرجة الأولى التي يصورونها في البرامج السياحية على أنها الجنة - غرفًا مُقفلة، هل فكرت بفتح إحداها؟ ستجد رجالًا مع قاصرات، وعجائز مع مراهقات ..

- لا تُحدِثني عن عالمك العَفِنِ، فلم آتِ لسماع الحوادث المَقِيته..

لم يغضب الرجل، ابتسم فحسب قائلًا بتؤدة:

- لسنا بمستقنع لبصق الخيرين من أمثالك، فارحل بسلام وابصُقْ في مستقعك الخاص..

- سابصُقْ في وجهك إن لم..

قاطعهُ الرجل مُقهقهقًا، ثم أشار بسبابته قائلًا ببسمةٍ واسعةٍ أظهرت نواجذه:

- لا تُصدِّقْ نِقَتَكَ بنفسِكَ فهي زائفة!

لا تُصدِّقْ رواياتِ البطولة، فالكتابة أسهلُ من الفعلِ، أستطيعُ بقلمِي هذا أن أسلخ جلد دُبٍّ بأظفاري! لكن الواقع أعسر بكثير.. صدَّقني!

صرَّخ (شاهر) ضاربًا سطح المكتب بقبضته:

- (R.D.6)؟!

- آه! الإدمان مُشتعل، مثل اللافا في العروق!

استعاذَ (شاهر) قبضته لِهثًا كالراكضِ، فهَمَسَ المعلم:

- لا تحاول الاستخفاف بي فأنت لم تُخفني..

- أريدُ المادة اللعينة فحسب.. أرجوك!

راقبه المعلمُ مليًا.. كان يحاول التَّشَبُّهَ بعُنفٍ فيما وراءَ نفسهِ هذا

الشاب الواقِفَ أمامه، لكنه اصطدم دومًا بنظاراته السوداء المُداهنة..

- "اخلعْ هذه.. دعني أنظرَ في عينيك.."

مدَّ (شاهر) يده وخلع النظارة، فنظر المعلم بصمتٍ طويلٍ..

قَطَعَهُ أخيرًا لما قالَ بِشَغَفٍ:

- مجرد مُدْمِنٍ تَعِسٍ آخر..

- لا أريدُ شَفَقَتَكَ..

- شفقتي؟ الشفقةُ ثَمَنُهَا بَخْسٌ في أسواقنا!

- كم تُريدُ؟

- كم ستدفعُ؟

- ما تطلبُه..

- المطلوبُ فادِحٌ، لن تُقدِرَ عليه..

- لا يهمني..

- ربما أساعدك حقًا، فأنت كائن ميّال للوثب بين العالمين،
بإمكانك تحقيق الكثير، عزّمك على السير حتى مبلغ الهدف أمرٌ مثيرٌ
للاهتمام!

أرى ألا ضيّرَ من مساعدة زبونٍ قديمٍ وعزيزٍ على جيوبنا وخزّينتنا
لكن بشروطي أنا، اعلم أن المعلم ليس مُجرد لقبٍ تافهٍ، أنا الحياةُ
هنا، أهبها لمن أشاء! أنا المماتُ هنا أوقعه بمن أشاء، أنا إلهٌ صغيرٌ في
هذه البقعة الزائلة المنسية من الأرض، لا أهابُ أحدًا، ويهابني
الجميع..

- إذا أردتني أن أحرّ ساجدًا لك فأنت واهم..

- لا أتوقّع منك غير ما قلته، لا تقلقْ فأنت لستَ من عبادي،
أنت (إبليس) حينما أبى واستكبر!

- هل قلتُ: إنك مجرد ثرثارة؟

- أحسبك ذكرتها سابقًا! لا بأس.. إذا أردتَ المادة فهي لك،

لقد أجهدنا تدبير كميةٍ شحيحةٍ ونادرةٍ، هي لك، لكن بشرطٍ واحدٍ
قد يكلفُك الكثير.. أنا لا أحاولُ إخافتك، بل أُجرّدُ الحقيقةَ من ثيابها
أمامك لتأملها بكل تفاصيلها القذرة.. هل أنت مُستعدٌّ للتجربة؟

- بكل تأكيد..

- أنت ممن يخافون بعسر، مَجِينُكَ إلى هنا يدلُّ على ذلك.. أنا
أحاولُ دَفْعَكَ إلى رؤية الحياة بمنظورها الحقيقي، أنت مُرتاحٌ نسيًّا
كونك في مكتبة نظيفة، تحاطبُ رجلًا مُتعلِّمًا أنيقًا في غُرْفَةٍ نظيفةٍ
ومُعطرة..

تذكرُ الأنجاس والباغيات والصبية الأندال، تذكرُ (ضيوي) وبَغِيه
والروائح الكريهة.. كل هذا مجرد غِيَضٍ من قِيَضٍ..

غابة البشر ليست بحاجة لملك، الكل يسعى بوسائل القتل والنهب
حتى يصير الأمر الناهي، الدرب هنا مُلوَّثٌ، مُلوَّثٌ بِشِدَّةٍ، تفوح منه
رائحة نجاسة لا تُوصَفُ، والمنظر لا يُصدَّقُ!

عُدْ إلى حيثُ الأمان، أوجدْ عالمًا طبيعيًا يبعُدُ كل البعد عن بؤرة
الجنون، لا تجعل من نفسك غُرَضًا للضياح من أجل هدفٍ أحمق..

لا تَدْعَ الحُمَقُ يُدمِّرُكَ!

رَمَقَه (شاهر) بنظراتٍ ثاقبةٍ خبيثة..

لقد أدركَ أمرًا لا يمكن إغفاله عن مُدمنٍ مُحترفٍ، إنه يتعاطى
المادة منذ أربعة أعوام، لم يحتفظ خلالها بمسَلِّكٍ واحدٍ يسلكه المدمنُ
المحبولُ، كان مُدْمِنًا ذا أعصابٍ قَوْلَاذِيَّةٍ، يَدْمَنُ وهو يفكرُ، ولا
يتصرفُ بطيشٍ.. نَصَفُ المُدْخِرَاتِ يُنْفِقُهُ على الأكل والشرب
والإيجار، والنصف الآخر يُنْفِقُهُ على التعاطي، (R.D.6) مادة مختلفة

عن جنون الكوكابين والهروين المطبق، إنه مخدر يختلف عن سابقه،
تطوّر من واحد إلى ستة بغير عَيبٍ، مُخدّر راقٍ إذا ما صُنّف بدقّة..
أمالَ وجهه ليطالع تقاسيم المعلم المزعوم، وبتقّة شابها استهزاء
همس:

- أنت مُدمن (R.D.6).. مثلي تمامًا!

وتراجع متوقّعا اشتعال غضب المعلم.. إلا أن الرجل صَفَقَ يديه
مُحدّثًا دَوِيًّا كالمفرقات، وقَهَقَهُ قائلاً:

- عظيم! ممتاز! أنت الصالّة المنشودة حتمًا!

- يجدرُ بك فعلُ شيء بشأن جنون العظمة الذي يتأبّك، إن
(R.D.6) مُخدّر مؤذٍ نفسيًا، أعراضه تبدأ بأمراض النفسية، وتنتهي
بعينين مُحمرتين وحبّة وتنميل بالأطراف معظم الوقت..

- لا تخف، لن أهرش جسمي أمام أحد، أستطيع التحكّم بجُري!

- هذه مشكلة تخطّيها أنا الآخر منذُ زمنٍ بمرهمٍ دوالي الساق!

وتبسّم مُتشفّيًا، حتى الملكُ سَقَطَ ضحية مملكة السوء الخاصة به،
هذا أول ملك يفقد السيطرة على عرشه بهذا الشكل، ويتحوّل إلى
تابعٍ يُمارِس ما يمارسه أيُّ تابعٍ مُدمن!

خلع المعلم نظاراته مُطالعًا (شاهر) بحدقتين دمويتين كالأبالسة،
وراقبه طويلًا قبل قوله باهتمام:

- كيف تُخَفِّفُ من حُمْرة عَيْنِكَ بهذه الصورة؟

- أَسْتَعْمَلُ قَطَّارَةً خَاصَّةً بِالْعَيُونِ، أَتُرِيدُنِي أَنْ أَخْبِرُكَ بِتَرْكِيبِهَا؟

- يَا حَبِذَا!

- هُنَالِكَ مُقَابِلٌ طَبْعًا!

فَهَهْهَ الْمَعْلَمُ مُجَدِّدًا، وَأَعَادَ نَظَارَاتِهِ إِلَى عَيْنَيْهِ قَائِلًا:

- لَا بَأْسَ فَقَدْ اعْتَدْتُهَا، كَمَا تَرَى يَا سَيِّدِي أَنَا مُهْتَمٌّ بِمُدْمَنِ

مُتَمَكِّنٍ جَيِّدًا مِنْ أَدَوَاتِهِ، رَأَيْتُ عَلَى شَاشَتِي قُوَّتَكَ رَغْمَ الْإِدْمَانِ،

فَادْرَكْتُ أَنَّكَ مُدْمِنٌ يَقِظٌ! لَسْتَ ككَدِيدِنِ الصَّعَالِيكِ الَّذِينَ يَغْرِقُونَ فِي

دَوَامَةِ السُّمِّ، فَلَا يَنْتَشِلُهُمْ مِنَ الْقَاعِ سِوَى أَطْبَاءِ الْمَشْرِحَةِ..

مَا دَامَ أَحَدُنَا يَفْهَمُ الْآخَرَ سَأَخْبِرُكَ بِالْمَطْلُوبِ حَالًا دَوْمًا إِبْطَاءً، نَحْنُ

بِحَاجَةٍ لِبَاحِثٍ، بِاحِثٍ مُتَمَرِّسٍ يَسْتَطِيعُ إِطْلَاعَنَا عَلَى النَّتَائِجِ الْمُتَرْتِبةِ

عَلَى إِدْمَانِ مُخَدَّرِ (R.D.7) ..

- (R.D.7)؟

- مَفْاجَأَةً، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ الْعِلْمُ لَا يَتَوَقَّفُ عِنْدَ حَدٍّ، هَذِهِ الْمَعْلُومَةُ

الصَّغِيرَةُ سَرِيَّةٌ لِلْعَايَةِ، لَكِنِّي سَأَجْرِبُ الثِّقَةَ بِكَ..

نَحْتَاجُ إِلَى مُدْمِنٍ يَقِظٍ لَتَجْرِبَةِ الْمُخَدَّرِ الْمَطْوَّرِ قَبْلَ تَدَاوُلِهِ بِالسُّوقِ،

لِمَعْرِفَةِ: أَكَانَ نَاجِحًا أَمْ لَا؟ ابْتَدَأْنَا بِالْفِعْلِ إِنْقَاصَ كَمِيَةِ الْمُخَدَّرِ الْقَدِيمِ

حتى صار سلعة نادرة في السوق، (R.D.6) كان هوساً حقيقياً،
لكننا نسعى لجعل (R.D.7) أعجوبة العالم الثامنة!

- وأنا فأر التجارب؟

- ذكرتُ كلمة "باحث" لأنها أقلُّ ضراوةً من فأر تجارب، سمّه
استطلاع رأي.. استبياناً! يجب أن تُدرك مدى قوة المُخدِّر المُطوَّر أو
ضعفه، يجب عملُ مقارنةٍ ما بين المخدرين لرؤية نتيجة سنوات العمل
الشاق..

- هَبْ أني رفضتُ؟

- لا إجبارَ هنالك، لكن حالك سيصيرُ من حال البقية المتأزمة
بالخارج، ستظلُّ تبحث عن مُخدِّرِكَ حتى الإعياء ولن تجده، فكّر
بالموافقة، فالموافقة معناها تزويدك بمخزون كالحلم من المخدر المطوَّر،
فإذا أثبتَ فشله زدناك بكمية هائلة من المُخدِّر القديم.. ماذا تقول؟
ومدّ يده طلباً للمصافحة، فتفكّر (شاهر) هنيهة..

تنفّسَ بعمقٍ ثم تساءل:

- أتنوي تجربته؟

اكتفى المعلم بابتسامة صفراء ولم ينطق، فأجاب (شاهر) نيابةً عنه:

- بالطبع تريدُ تجربته، الفضولُ يُساوِرُك بشأن متعة جديدة،
لكنك تخشى العواقب..

- العواقب؟ كالموت مثلاً؟

- كالموت..

- على العموم هذا عَرَضٌ مُغَرٍّ، لكنك غيرُ مُجْبِرٍ على تَقْبُلِهِ..

3

مَشَى البدين بفانلته الداخلية الملوثة بِبُقع العرق وزيت القلي،
وأظفاره الطويلة الفاحمة قمرش لدغه بعنف من أثر قُرْص البعوض..

تبعه (شاهر) مُتناسياً رؤيته عبوات البيرة الرخيصة المُلقاة في أركان
البناء، والجُرذان التي مَدَّت أفواهاها لتذوقَ من فتحاتِ العُلبِ كأنما
تبحثُ عن السكرة بدورها، اشتَمَ رائحة قِيءٍ، أنصَتَ لأصوات
صُراخٍ عنيفٍ، كان عِراكاً بين رجالٍ وعشيقاتهم، تعرَّفَ أنفه رائحة
الحشيش التي تُصيبُ المرءَ بالدُّوار، وقد زكمت أنفه بقوة..

قال البدين وهو يهرش إبطه غزير الشعر:

- الأجرة عشر ليرات يومياً.. لا ماء، إذ يجب عليك البحثُ

عنه، لا كهرباء أيضاً، لكن هذا لا يهْمُك، أليس كذلك؟

كيف تعرف أيها البدين القَدْرُ ما يهْمُني وما لا يهْمُني؟

حتى القطة التي مرت بجواره حامل، تمامًا كالبشر. عالم مُلوَّث
ببشره وحيواناته، ما الفارق بين العالمين؟

انفتح باب إحدى الغرف لتدفع منه طالبة في المرحلة الثانوية،
عرف ذلك من مريولتها وحقيبتها المدرسية، الدموع تُغرقُ مقلتيها مع
الكحل، ارتطمت به فأوقعت حقيبتها.. تناولتها مُغطيةً فمها براحة
يدها..

- "شهد)، ارجعي بحق جهنم!"

هكذا ارتفع الصوت، خَشْنًا لا يخلو من قهالِك.. مرا أمام الباب،
فأبصر رجلًا مكتر البدن واقفًا بثوبٍ داخلي، صَرَخَ كالمسعود وهو
يطالعهما بسحنةٍ مُحْتَقِنَةٍ:

- ماذا تبغيان؟! اغربا قبل أن..

ابتعد البدن صاحب العقار بخطى سريعة كأن الشيطان في أعقابهِ،
تبعه (شاهر) بذات الخطى الرتيبة، لن يتراجع ولن يتردّد، هؤلاء مجرد
حيوانات، وإذا تطلّب الأمر ليتحوّل إلى حيوان كالجميع فليكن..

- "غرفتك.."

ومدّ البدن يَدًا ملوثة بالسُّخام فنقده (شاهر) الأجرة، ناوله
المفتاح الصدي، وغادر وهو لا يكفُّ عن التجشؤ..

دلف (شاهر) منزله الجديد.. المكان قذر، قذر لأبعد الحدود، كأن
البهائم سكنته قَبْلَهُ، غُبَارٌ وشباك عناكب، أمر مفروغ منه، لا. لن
يكلف نفسه عناء إلقاء نظرة على الحمام فرائحته تُعَبِّقُ أرجاء الغرفة..
الفِرَاشُ ملوَّثٌ بالعرق الجاف وماء الرجال - ولربما النساء أيضًا،
قام بقلب الفِرَاش فوجده أفضل حالًا.. هكذا رَقَدَ بكامل ثيابه
وحذاءيه وحتى نظاراته السوداء متأملًا السقف مشقوق الطلاء..

لم ينم.. كيف ينام هنا؟ في غرفة الشيطان؟ والبعض؟ رباها! ماذا
عن الرائحة؟ أهي غرفة أم قبر؟ أيرقد على فِرَاشٍ أم داخل تابوت
فرعوني؟

الويل كل الويل لمن سَلَكَ سَبِيلَهُ.. كلمات المعلم ما زالت تتردّد
داخل رأسه، (أفلاطون) الحي المزعوم.. تَبَّأَ لَهُ من أَفَّاكَ، وَتَبَّأَ لَهُ من
حَيٍّ، وَتَبَّأَ لَهُم من مخلوقات تُضَاهِي الشياطين!

مجرد قتلة وزناة مدمنون، لا يستحقون شيئًا من كرم الدنيا، لطالما
مَقَتَهُم، مَقَتَ الشَّرَّ الصريح غير المُغْلَف، الشر الحيواني الشره الممتطي
أجساد النساء وذراعه مُشوَّهةً بحقن السم، وقد كشف فمه المغفور
عن أنيابٍ ملوثة بدماء الجنون..

الإدمان شهوة، إشباعها أَلَذُّ وأشهى من قضاء الوطر، يشعل الحياة
في روحك الساكنة، شرارة حياة في برميل من البارود، يُفَجِّرُهُ، يجعلُ
الميت يُبعث حَيًّا من جديد.. ها قد وجد سبيلًا للحياة بعد أن قضى

جُلَّ عمره كالمتعفن في قبره.. إذا كان الثمن الانصياع لأوامر المعلم
فليكن، لقد وجد أخيراً مدعاة للعيش من جديد، حتى وإن كان الثمن
الانضواء تحت راية قانون الغاب..

خالطت أفكاره القائمة أصوات ضجيج، وصخب حيوانات العالم
الخارجي.. أنصت للمشاجرات والصراخ والبكاء والضحك بنصف
أذن كالحالم، قبل أن يغلبه سلطان النوم أخيراً..

كان القارب الخشبي يتأرجح في عرض بحر قائمة مياهه، السماء
مغطاة بغيوم دخانية، والأفق لا يبشر بياسة..

وجد نفسه جالساً في القارب بسكينة عجيبة، متمتعاً بالعزلة بلا
أمل في النجاة، البعد الآخر المجهول، لا بشر ولا أمل..

أفاق في التاسعة صباحاً، لا أذان لأنه لا مسجد، كان هنالك
مسجد وهدم، بالأحرى هدم من تلقاء نفسه، يُشاع أن إمامه صلى
الفجر وحيداً بلا أمل في حضور إنسان واحد يهاب ربه..

لم يحدث أن رُمم المسجد، كان آيلاً للسقوط كأيّة بناية مُتهالكة،
تماوى أخيراً وعلى رأس الشخص الوحيد الذي عاش بمرارة وخشية
من الله..

نُحْض (شاهر) مُثْبِعًا بعرق غزير وآثار لسعاتٍ مثيرة للحكة
المُهِيجَة، ربما من الناموس، ولربما من آثار الإبر السابقة، لا ماء لغسل
الوجه..

- "ولا فطور طبعًا!"

كذا غَمَمَ بسخريةٍ جامحة، وخرج من الغرفة العَفَنَة مُتَبَيِّنًا ألا
مشاجرات هنالك، الكل راقِدٌ كالأموات الآن، ولن يستفيقوا إلا في
الليل كالوطايط..

الأبواب شِبْهُ مُوَارِبَةٍ، إذ لا شيء يُسْرَق، لا خُرُمَات، فالعذارى
صِرْنَ مُتَهْتِكَاتِ الْأَعْرَاضِ، سَبِيلًا لِكُلِّ مَنْ هَبَّ وَدَبَّ، والداخل
كالقَاطِنِ يظفر بكل شيءٍ بالغرفة، والأُنثَى بالطبع تخضعُ له مُسْتَسْلِمَةً
كالجارية!

كانت الخواطر وحشية، ولم يصدق (شاهر) رحلة الخواطر المؤرقة
التي تدفقت في ذهنه، أيُّ عصرٍ هذا؟ أيُّ اِحدارٍ؟
وَأين الشرطَةُ بحقِّ الجحيم؟

كان يعلم مُسَبِّقًا سببَ عدم وجودهم، فالسلطة الأولى والأخيرة
هنا للمُعَلِّم، المُعَلِّم المَدْمَن! حتى الشرطة في جيبه، هو اعترف له
بذلك..

- "إذا أردتَ صُنْعَ عَالَمٍ "ديستوي" مثالي فعليك بالشرطة أولًا،
دعهم يرون جزءًا من النعيم الواعد، دَعْ لُعَابَ رَجُلِ الْأَمْنِ الْمُعْتَدِّ

بنفسه يسيل حتى يجفّ، دعه يشهد أن عالم الانحدار ليس بذلك
السوء، هنا يستطيع رجل أمن قبيح وممتلئ أن يظفر بأجمل فتاة
وبأبحسٍ سِغَرٍ، كل القاذورات التي يأبى إظهارها في مجتمعه الذي يزعم
التحضر بإمكانه التبجح بها هنا، لكن لكل شيء ثَمَنه طبعاً..

هل تذكر عندما كان والدك يهددك بقطع المصروف أو بخلع
فيشة التلفاز إن لم تذكر؟ كنت تخاف على مصروفك وبرامجك التي
ستفوتها لدرجة التظاهر بالذاكرة كي لا يضع منك شيء مما تشتتبه
وتتمنى اقتناه.. أولئك الذين يتجحون بالشارات الأمنية لن يتخلوا
عن المنع البهيمية هنا، إنها "يوتوبيا" رجال القانون قبل أن تكون
يوتوبيا نحن!"

يا لها من فلسفة! يا لها من حياة! الإدمان يسبب الحكمة أحياناً..
لم يكن (شاهر) رجلاً ملتزماً، لكنه يؤمن بالله إلى حدّ عدم التمادي
أكثر، كان ينظر بوقاحة إلى مفاتن النساء، ويغفل أكبر قدر من
الصلوات، ويحلف يمين اللهو ألف مرة في اليوم..

- "أَزِنُ أَزِنُ أَزِنُ!"

مُتَسَرِّدٌ على قارعة الطريق، صبي في الثانية عشرة من عمره يحمل
ميزاناً، يا له من عملٍ لا يخطر على بال، حقاً أئمة من يكثرُ لمعرفة
وزنه؟ ذنُ الله يرزق من حيث لا يعلم هؤلاء.. حقيقة!

من مستودع مواد تموينية رآهم خارجين بأحمالٍ تعجز الحمير عن حملها، أعمارهم كلهم متراوحة ما بين العاشرة والحادية عشرة أو أكبر قليلاً، لكن ظهورهم مقوسة كالعجائز، ووجوههم مُغبرة بالطحين الذي يحملونه على ظهورهم..

قادته خُطاه الرُتيبةُ إلى مطعم (سفرجل).. إذا كان الأكل هنا بنظافة أهله..

- "أهلاً بالبيك!"

تحية ساخرة التقطها سمعه، فردَّ متجاهلاً ما سمعه:

- فلافل، حمص، زيتون أسود وشاي..

- كما يأمرُ البيك!

- لستُ (بيك)!

- أقال البيك شيئاً؟

صمت (شاهر) على مَضضٍ، لن يضيع الوقت في تحطيم أسنان الرجل بينما معدته خاوية، ربما عَقِبَ أن يشبع..

لم يتجاوز عددُ الزبائن الستة أنفارٍ، كلُّهم عمال لديهم رِزْقٌ شحيح، لكنه حلال على عكس أكثرية سكان الحي، احترامهم (شاهر) وإن لم يعرفهم، يكفي أنهم يعملون حتى وإن أضاعوا الأجرة

في سُكْرٍ أو مُخَدَّرٍ أو أَحْضَانٍ غَانِيَةٍ! ربما لأن عيونهم مُجَهْدَةٌ تحمل
أسمى معاني المِراةِ الصادقة..

- "صباح الخير يا عم (سفرجل).."

دخلت برشاقة مطوَّحة بالهواء حَقِيبة جلد مدرسية، مرتدية مريولة
بنات الثانوية، ورابطة شعرها الأسود القصير كيفما اتفق، كانت هي،
الفتاة الخارجة من عند جاره مكتنز البدن وهي تنشج.. ماذا كان
اسمها؟

- "صباح الغزلان! كيف (شهد) المجتهدة؟"

- "اصنع لي شطيرة فلافل بسرعة.."

- "الأميرة تأمرُ والعبدُ يُنفِذُ.."

بدت طالبة بريئة، في الصباح تُشرقُ وفي المساء تُظلم، وعن أي
دراسة تتحدث؟ البارحة أيضًا كانت مرتدية ذات المريولة، تبيتُ في
أحضانهِ وفي الصباح تذهبُ للمدرسة؟ أهذا هو النظام؟ أتراها تدفعُ
رسوم الدراسة بَعْرِقِ جِسمِها البَضِّ أيضًا؟ هذا أسوأ من أن يكون
حقيقًا..

توقفت عن تطويح الحَقِيبة لما وقع بصرُها عليه، مليحة حقًا، ذات
بشرة نصرة قمحية، صحيح أن أنفها أظسُّ قليلًا، لكن وجهها فيما
عدا ذلك إبداعٌ من إبداعاتِ الخالق التي لا تُحصى، ذات قوامٍ ناضجٍ
مُتلئ مفاثته، عبثت سبابتها بِحُصْلَةٍ من شَعْرِها بغنج مظاهرة بتفقد

برطمانات المخلل، لكنها حتماً تراه، إنه واضح وضوح القمّل في رأس الأصلع!

جَهَّزَ لها الكهل طلبها ملفوفاً في ورق جرائد، فنقدته الثمن شاكراً، وهُرعت للخارج دون إلقاء نظرةٍ واحدة على الغريب.. لم يكثر، فهو ليس طَفَرَةً في عالم الرجال، ربما مظهره غير مُشجع إلى ذلك الحد!

تناهى لمسمعه أصواتُ جَلَبَةٍ حيوانيةٍ، كأنها مظاهرة أو احتفالية بمناسبة فوز فريق كرة قدم بالكأس، ومن أول الحي ظهروا، عشرات الرجال يُقدِّمهم واحد مفتول العضلات حَمَلَ على كتفيه فتى يُلَوِّحُ بجَترير وابتسامة ظافرة تملأ وجهه، كأنهم أتوا للتو من تحرير فلسطين أو فتح الأنجلس مجدداً..

رواد المطعم يتهايمسون، أذنه مرهفة السمع تلتقط من هذا وذاك بشبه انتباه..

- "هذا (حيدر)!"

- "فعلها ابن ال.. وانتصر!"

إذن فقد انتصر (حيدر).. على مَنْ؟

- "كيف تمكّن من (جهر)؟"

- "الرجل كالخريّيت والفتى كعود قصب السكر.."

مبدأ داود الذي هَزَمَ بمقلاعه جالوت يا جهلة! الفقى ماكر وغير
سهل كما يتبدى من نظراته، كانوا يقتادونه بفخر أحق وهو يرمُقُهُم
شزراً بنظراته التي لم يحسنوا قراءتها، ما يهم أنه مبتسم لمثل هذين
الوضعين..

ربما كان ذاك الجمر خرتيناً كما يقولون، لكن الفقى بدا قوي
الشكيمة، ذا منكبين عريضين، وعضلات متنافرة الأوردة، نظرتة غير
مريحة، بها لؤم حيواني خالص..

نقر (شاهر) على الطاولة حتى وُضِعَ طعام الإفطار قبالتة، مدَّ
أنامله مُلتقطاً حبة فلفل التهمها دفعةً واحدة، كان مظهره بالنظارة
السود. والهندام الأنيق لافتاً للنظر، كذا أفصحت نظرات (حيدر)
المختدة صوبه..

ابتسم في أعماقه باستهزاء، هذا الصعلوك قد يهلك من ضربة
سيف واحدة براحة يده القاسية....

أَنزَلُوا الصعلوك عن أكتافهم، فاندفعَ لداخل المطعم وخلفه عدد
من الشبان الأوباش ارتضاهم أعواناً له، وتفرَّقَ الحشْدُ بالخارج كُلُّ
يسعى إلى رزقه..

طفح وجه (سفرجل) بالبشر صارخاً:

- نزل الأكل لسادة الحي وحراسه يا ولدا!

بدا (حيدر) معتادًا على هذا الدلال هو وأعوانه، نظرات صَجِرَة بانّت في حدّتيه مُحملًا في الزبائن الذين أكلوا وهم يتهامسون عنه، كان يتظاهر بتفقد الرعية - الوغد! - ، صعلوك بذقن صبارية وثياب بالية ملوثة بعرق العراك يتظاهر بالإمارة، أمر باعث على التقزُّز...

- "الليلة يدفنون (حمر)!"

من دون مناسبة تَطَّقَ بما الصعلوك، فاشترَّبتُ الأعناق نحوهم بفضولٍ وشوقٍ لنيش المزيد مما حصل بالضبط، فتناول (شاهر) كوب الشاي - وكان على وشك إنهاء طعامه - لاحظ (حيدر)، و(حيدر) يريد إسماع الغريب حكاية قَهْزُ مفاصله وتُرْعُدُ أوصاله.. ليس أنا أيها الطفل الذي يُبَلِّلُ فراشه.. ليس أنا!

بتبختر، لَوَّحَ أمير الحمي وحارسه بيد طويلة الأنامل، قائلًا وقد ارتفعت عقيرته أكثر من اللازم:

- لم أحتج سوى دقيقة كي أُجهِّزَ عليه ثم..

وَضَعَ ثَمَنَ ما أكله ونمض.. صمتوا كأن على رؤوسهم الطير، ثم تساءل أحد الأعوان بتملُّقٍ مُهْدِنًا الجو:

- ثم ماذا؟

لكن (حيدر) لم ينطق، اربد وجهه قبل اندفاع لسانه:

- أنت يا هذا!

تجاهله (شاهر) وهو يمضي في سبيله، فهبَّ (حيدر) واقفًا وقفة
عنيفة أوقعت الكرسي وراءه صائحًا:

- أنت يا..

توقَّف (شاهر)، التفت، حدَّق بنظاراته السوداء متسائلًا:

- ماذا تبغي؟

- إلى أين؟

- وما شألك؟

هبَّ لتلك الإجابة باقي الأعوان وأحدهم يصرخ بعقيرة كالرعد:

- جب على قَدْرِ السؤال وإلا..

- وإلا ماذا؟

توقَّف الزبائن عن الأكل و(سفرجل) عن قلي مزيد من الفلافل،
شاب التوتُّر وجوههم، في حين ارتكز (حيدر) على الطاولة بقبضتيه
مُغمغماً ببرود:

- أنا لم أكْمِلْ قصتي..

- وأنا لا أرغبُ بسماعها..

- ستسمعها رغماً عنك!

- لا آخذ الأوامر على محمل الجدّ، خصوصاً من الصعاليك..

- من تقصد بالصعاليك يا وغد؟

- قصدتكم أنتم.. ألم يكن الأمر واضحاً؟ أنتم صعاليك وحيوانات
جاهلة إذن!

لم ينطقوا بالمزيد، التفوا حوله والشرُّ يقدح من أعينهم، كانوا
ثمانية أوباش تسلحوا بمطاورٍ ماضية وجنازير صدئة، ومن لم يحمل
سلاحاً تناول من على الطاولات زجاجات مياهٍ غازيةٍ استعداداً
لتحطيمها، واستخدام أطرافها المذبذبة الحادة في الذبح..

صاح (سفرجل) مُلوّحاً بكلتا يديه:

- أَقْبِلْ أَيْادِيكُمْ أَلَا تَحْطُمُوا الْمَكَانَ!

راق الأمر لحيدر، فصاح باستهزاء مُتصنّعاً التحضر:

- حقاً ليس للرجل ذَلْبٌ بما سنصنعه معك.. سننتظرُكَ بالخارج!

- ارجعْ إلى أُمِّكَ يا بني..

تلوّن وجهه (حيدر)، ودونما كلمات زائدة هجم على غريمه صارخاً
كحيوانٍ مسعور، فتلقفه الأخير بحفّةٍ وألقى بظهره على سطح طاولته
فهشّمهما معاً!

لم يتحرك (حيدر)، ظلَّ بمكانه وهو لا يكفُّ عن الأنين، فنبسّم
(شاهر) أخيراً.. قد سقط حارس الحي بسهولة مُدهشة، سقط على
يدي مُدمن!

فَكَرَّ أَنْ يَسْتَمَعَ بِإِغَاظَتِهِ، فَلْيَضَعْ طَرَفَ الْخِذَاءِ عَلَى رَقَبَتِهِ
وَلْيَضْغُطْ قَلِيلًا، سَيَعَامِلُهُ كَحَشْرَةٍ كَيْ يَعْرِفَ مِقْدَارَهُ.. لَكِنْ لَا، كَفَاهُ
مَا أَصَابَهُ، هَذَا دَرْسٌ لَا بَأْسَ بِهِ، حَتَّى الْأَعْوَانُ الْأَوْبَاشُ تَعْلَمُوهُ
بِسُرْعَةٍ..

أَخْلَوْا لَهُ الدَّرْبَ بِرُؤُوسِ مُنْكَسَةٍ وَأَطْرَافِ مُتَحَفِّزَةٍ، فَخَرَجَ بِغَيْرِ
هُدًى بَاحِثًا عَنْ سَبِيلٍ يَقْصُدُهُ، هَلْ يَعُودُ لِلْغُرْفَةِ أَمْ يَعْرِفُ مَوْطَنَهُ
الْجَدِيدَ أَكْثَرَ؟

4

السوق يسودها الهرج والمرج، لا بيع ولا شراء، مشاجرات دائرة
بلا تجارة..

كم من بصة تفادى! وكم من كنف أصابها بخشونة بقصد وبغير
قصد، النساء في السوق يفقدن أنوثتهن، والرجال يظهرن بُرودة
وقسوة تجاههن، فلا هم للجميع سوى تحصيل أكبر قدر من مال
تسديد الفواتير المتضخمة، والمتع الليلية المنسية جهد النهار وشقائه..

حسبه زبوناً يود الشراء، فصاروا يطاردونه بضائعهم الرديئة،
تبسم لكل وهو يدفعهم عن دربه بقسوة.. يا للسرك! ألا ترون
البذلة يا حمقى؟ كيف أرثدي مثلها وأحضر إلى حيكم القدر بحثاً عن
سلع الدجاج والخضراوات والسماك منتهية الصلاحية؟

كانت البسطات منتشرة كالذباب حول مستودعات القمامة، أكثرها لأدوات مستخدمة في الجراحة العشوائية، أسلحة بيضاء.. أخرى انتشرت فوقها صور خليعة لأغلفة أقراص ليزر من مختلف الأقطار، هؤلاء بالذات لم يطاردوه بالبضاعة، هذا معقول، رجل ببذلة أنيقة لا يمكن أن يحضر لابتياح أفلام إباحية، ربما للعقاقير المهلوسة، مادة (R.D.6) اللعينة العزيزة، لكن سوقها يبدأ ليلاً، أما تجارة الأفلام الإباحية فمشروعة نهاراً ولا بأس بها..

كان الباعة صغاراً، كالعادة يدخنون لفائف التبغ بحنكة الكبار، وعندما يتضحكون يتمكن من رؤية أسنانهم المصفرة والنخرة كأسنان العجائز، لقد فقدوا براءتهم منذ اللحظة التي فتحوها بما أعينهم على الدنيا، صاروا شيئاً أخطر من الرجال، صاروا وحوشاً..

سار.. توقف عن السير.. نظّر لليمين على الأرض قليلاً، بسطة أخرى جلس عليها طفل في السابعة من عمره يضع لفافة هو الآخر، ورجل كهل يشعلها له بعود ثقاب!

- "أنت!" -

هز الكهل يده بالعود حتى أطفأه، وقد علت وجهه مسحة تساؤل بريئة، فقال (شاهر) عاجزاً عن كتم استنكاره:

- إنه مجرد طفل! ماذا لو كان ابنك؟

- هو ابني يا سيد!

وضرب كتف الصغير الباسم بقوةٍ صائحاً بمرح:

- وأنا فخور به!

تأمل سحنة الكهل ملياً، احتفظ به مع ركام الذكريات العفنة التي
لن ينساها ما حيي.. كيف سينسى هذا الرجل السعيد وابنه الأسعد؟
تنهد فواصيلاً المشوار.. حقاً إن الحياة مسلية، من قال إنها مُملة
باعثة على الضجر؟ لا بد أنه شخص غني لم يحاول الترحُّل من صومعته
الذهبية..

يستطيع البقاء في هذا المكان للأبد دون أن يشعر بالسأم، دروس
الحياة لا تتوقف، ومهما تشعر بالتكرار فانت تعلن الهزيمة في النهاية،
ما زال العالم يمتلئ بالعجائب التي تستنكر رؤيتها..

- "علكة يا عم؟ عسلية يا عم؟ ملبس؟"

وَضَعَ راحَةً يَدِهِ عَلَى كَتِفِ الصَّبِيِّ البانع وأزاحه برفقٍ جانباً..
تنحى عن دربي يا بني وإلا قتلُك!

لكن البانع بدا مُصرّاً، التصق به كدودة في الشَّصِّ، طارده بحجة
لوز بالعسل صائحاً:

- حتى المُعلم يعشقها!

قال المعلم! ليس معلم الصبي حتمًا فقد نطقها بضم الميم، بدا
مُثَقِّفاً اللحظة التي نطق بها الكلمة.. (شاهر) فكّر بهذا كله متسمرًا،
بتفهّم النفث، بصمتٍ نقدّه ثمن الحلوى، فأطلق الصبي لساقيه العنان
مبتعدًا..

فضّ الغلاف البلاستيكي الشفاف مُتَبَيِّنًا وجود وريقة مهترئة
مدسوسة، فتحتها بحذر فوجدها مُدَوَّنةً بخط زخرفي جميل، وبقلم حبر
أسود، لا بُدَّ أنه خط المعلم المثقف..

"عُدْ إلى غرفتك وامكث بها حتى أراسلك مُجدِّدًا.."

- "مطلب سهل!"

طاف الأرجاء دقائق معدودةً باحثًا عن مهزلة جديدة يُضيفها إلى
ملفِّ الذكريات الساحرة من الحياة، ثم دار على عقبيه راجعًا
أدراجه..

لم يكن مطلبًا سهلًا..

لم يصدق أنه صار خاضعًا لشخص واحد يَأْتَمِرُ بأمره، صار ينتظر
إشارة من شخص مُلوَّث كي يدخل أو يخرج، ولربما كي يأكل
ويشرب أو يذهب للحمام فيما بعد!

ثلاثة أيام قضاها داخل الغرفة، مُنصِتًا إلى المشاجرات والزُعيقِ
المُتواصل..

فَكَرَّ بالخروج، لكن سرعان ما غَدَلَ عن الفكرة، الرسالة كانت صريحة الفحوى، المكوث معناه عدم الخروج، والخروج معناه ضياع الهدف..

راودته هلاوس، كان قد أقلع عن التدخين قبل سنوات بعد إدمان المادة السحرية، أما الآن فقد صار التدخين هدفاً آخر له، فأقسم أن يبحث عن سيجارة عندما يخرج..

المُعلِّباتُ التي ابتاعها شارفت على النفاد، والمُعلم اللعين لا يسأل عنه، هل مات؟ لِمَ لا؟ أليس الفرد المتفرد بالملك والجاه هدف الجميع هنا؟ ألم تكن تلك كلماته بالخرف؟ ماذا لو أن أحد أعوانه طَبَّقَ ذلك المبدأ بمخادفيره واغتال المُعلم كي يحل محله وهو ها هنا قابِعٌ بانتظار رسالة من جثة؟

ثم إن المَلِكَ المزعوم مُدْمِنٌ كغيره، ومُخَدَّرٌ (R.D.6) قاتلٌ غير رحيمٍ كغيره من صنوف المُخَدَّرَات، غير مستثنى من منجل الهلاك..

انتابته الكوابيس بشأن ذلك، صار ينام كثيراً لقتل الوقت، كوابيسه باتت أكثر سوداوية.. القارب الخشبي المتأرجح في عرض بحر قاتمة مياهه يكاد أن يغرق، الماء كان يتسلل ببطءٍ عبر ثُقُوبٍ دقيقةٍ توطئةً لابتلاعه كاملاً بصاحبه..

أفاق بذقنٍ ناميةٍ وعرقٍ غزيرٍ وجوعٍ كافٍ.. صوت طرقات
صاخبة على بابه، ورسالة مرَّرها صاحبها أسفله..

وثب كالجئون مُلتقطًا الورقة الجديدة، كانت داخل مطروف أنيق
هذه المرة، فصَّه، طالع بصرٍ شاخصٍ في شوقٍ سطورها المدونة بذات
الخط الزخرفي النضيد:

"بوابة اللجنة مفتوحة على مصراعيها! تعالَ حاليًا لرؤيتي.."

شعر بعرقٍ باردٍ يهبط ببطءٍ كَرِه من جبينه حتى بلغ أسفل عُقه،
كوَّر الرسالة ورماها جانبًا، وحرَّز رِتاجَ الباب فاتحًا إياه على
مصراعيه قبل ركضه إلى الخارج كالملهوف..

وأثناء هبوطه السلام اصطدم بشابٍ هادئٍ الطباع كما تشي
تقاسيمه، يرتدي نظارات طبية سميقة أخذت الكثير من ملامحه، وقد
حمل أكياسًا من الفاكهة والمعلبات صاعدًا الدرجات برويةٍ كأن الزمن
ملكُ يمينه..

حدث ارتطامٌ عنيفٌ، وتبعثرَ كل شيءٍ أرضًا قبل انزلاق الفتى
للوراء بعنفٍ، تبدَّت آياتُ الفَرَع عليه مُحاولًا التثبيت بأي شيءٍ،
اختل توازنه، كانت السقطة مؤدية لعواقب وخيمة حتمًا، لولا اندفاع
قبضة (شاهر) وتشبُّها باليد المناشدة..

أوقف جسمه كله، فثبَّت الشابُ ناظره في حدقتي مُنقذه قائلًا
براحة:

- حمداً لله.. لم يحدث شيء!

رأى شيئاً عجباً في صدقي مُنقذه، ثم لم يلبث أن اتسع ثغره بلوعة عجيبة..

- "شاهر؟ أهو أنت؟

يا الله! ألم تعرفني يا رجل؟ هذا أنا.. (فيصل)! ياه! كم من سنوات.."

تلوّن وجهه (شاهر) جزءاً من الثانية ليشتي عما بداخله، فتكشفت معرفته بالشاب، لكنه تجاهله، بل دفعه بخشونة جانباً وهو يركض لأسفل بسرعة الريح..

وظل الشاب مسمرًا بمكانه والذهول يملأ وجهه..

الساعة الآن العاشرة ليلاً..

المعلم الداهية! يستحق سمعته، إذ لم يُسلم المادة بعجلة.. لقد كان يسيطر على إدمانه هو الآخر، تمامًا كشاهر..

وربما لا! الفرق بينهما أن اللعين يمتلك مخزوناً سرّياً من مادة (R.D.6) بخلافه، لكنه لم يتكالب على تجربة المادة المطورة، بل منّحه شرف أن يكون كبش الفداء..

كانت المادة الجديدة كسانلي رقرقي، ذات زُرقة شفافة كماء العينين، المادة القديمة كانت ذات صُفرة شفافة، مُشتقة من البروفين والبلادون وفطر الأمانيت، ثم يأتي دور المواد السرية كخلطة كنتاكي، تلك الخلطة التي منحت المُخدَّر أسطوره، تركيبة لا يعلم بها غير الله وصانعيها العبقري المجنون..

المادة الجديدة خليط بين المخدر وعقار الهلوسة، وهي عبارة عن خلطة مركبات كيماوية من باربيتورات ومثدريين وفولانييل وغيرها، بلا مشتقات طبيعية هذه المرة..

المفاجأة هنا - كما ذكر المُعلم - أن مادة عضوية مُستخرجة من حيوان، وتدخل في أهم تراكيب مخدر (R.D.7) ! أي إنه المخدر الأول الذي يستخدم مادة مُشتقة من حيوان قَدِر، هذه سابقة لأن النبات هو الأساس في أية تركيبة خاصة بمخدِّر، و(شاهر) يستعدُّ لتجربة مخدر قد يكون مُشتقاً من عضو خنزير!

صعدت الفكرة بعصارتها فصار على أهبة للتقيُّ بعنف، رائحة المخدر قريبة من الكلور، لا بأس، هذا لن يكون أسوأ ما قام به في حياته..

كان قد جَهَّزَ أوراقاً وأقلاماً لكتابة تقريره، على رأس الورقة قام بتسجيل اسم المُخدَّر كاملاً دون اختصارات:

(Raw Death 7) وتعني الموت الخام 7، يُشاعُ أن الحرفين

يُشيران لتلك التسمية.. نعم؟ لا؟ من يدري؟

استطلاع رأي، بحث.. هذا المخدرُ أفقدي القدرة على الإبصار

لذا أنصحُ بمنع تسويقه حالًا! هذا المخدرُ أصابني بالشلل؛ لذا أنصحُ

بشراء كرسي مدولب قَبِيلُ تجربته!

تبسم، توسعت الابتسامة، ضحك، تنهد.. ماذا سيخسر؟

ماذا سيخسر؟

الجزء الثاني

1

القاربُ الحَشْبِيُّ لا يزال مُتأرجِحًا كالمهدِ في بحر المياه القائمة،
والسَّماءُ ما زالت مُغطاةً بغيوم ضبابية رمادية..

ما زال جالسًا في القارب بذات السكينة العجيبة، مُتمتّعًا بالعزلة
بلا أمل في النجاة.. البعد الآخر المجهول، حيث المياه محيطة به من كل
جانب..

جسم ضئيل يطفو على سطح الماء يدنو منه، جسم بشري ضئيل
له رأس وأطراف صغيرة، قَلْبٌ سكنته رُعبًا لا مثيل له..

تطوّعت ممرضة بإخباره تلك المعلومات القيمة التي كان يجهلها..
أخبرته أنهم أعلنوا وفاته "إكلينيكيًا" في تمام الساعة الرابعة فجراً،
لكنه خيَّب توقعاتهم لما اشتعل جهاز راصد القلب بجنون بعد حوالي
عشر دقائق!

عشر دقائق كاملة كان خلالها لحمًا ميتًا مُكوَّمًا فوق سرير رخيص
شراشفه الحكومية بالية!

كانت مُشفقةً على شبابه وهيئته المُبعثرة وحاله التي تكسر الفؤاد
والخاطر، وهو بمنأى ساهم عن ثُرثُرَتِها، يفكر في منجل الموت الذي
تمسّس أوردة عنقه قبل تغييره رأيه في آخر لحظة مُعطياً إياه فرصة
أخرى!

سيطرت عليه تلك الفكرة المروعة، فانفجر باكياً وهي ترمقه
بشفقة، وتُجفّف له جبينه المتعرق.. كان يرى المعلم واقفاً يضحك
بمكرٍ وهو يغمز بالعين اليسرى.. عين الشيطان! يلوح بإبرة تحوي
مادة ذات زُرقة شفافة قائلاً بحُبث:

- "بوابة الجنة مفتوحة على مصراعيها.. تعالَ حالاً لرؤيتي!"

هدأ نوعاً، فهمس من بين أسنانه:

- حتماً سأفعل!

سألته الممرضة بقلق:

- هل قلتَ شيئاً؟

- أنا جائع!

حضر رجل شرطة كي يسأله عن المادة في دمه.. التحليل يقول إنه ليس مُخلدَر (R.D.6) كما يعرفونه، شيء آخر أكثر قوة يسري بدمه، شيء مُطوَّر، شيء مُخيف!

لا يعلم، حقًا لا يعلم، قد يكون كابوسًا، وقد يكون ميتًا، لكنه لم يُشخّ بنظريه عن الشرطي الممتلي الذي سجّل أقواله في مُفكّرة، كان قاسيًا في استجوابه فظًا في رُدوده، وهو أمر طبيعي، إنهم يعاملون المُدمِنَ تمامًا كالمنتحر، كلاهما لا عقيدة له يستحقُّ الازدراء لاستهتاره بحياته..

وقبل نُهوِضه من مقعده قال الشرطي بخشونة مُحنكة:

- سنعاوُذُ استجوابك!

كي يقودهم للمُعلم؟ لا، حتى الشرطة نالت نصيبها من (R.D.6).. أنت يا صاحبي قد تكون نزيهاً، لكن رؤساءك ليسوا كذلك حتمًا، لا هم ولا أولادهم!

أسبل جفونه مُقرّرًا النوم، المزيد من النوم، قتل الوقت مُهم، يجب قتل المزيد من الوقت كي لا يشعر بشيء.. نُم! اقتل! نُم! اقتل!

أفاق.. الممرضة تناوله طبق حساء الدجاج المقيت، يسأله عن المدة فتخبره بإشفاق أنه على حاله منذ أسبوع.. إذن نُم! اقتل! نُم! اقتل!

أفاق على معاينة الطبيب، قياس الضغط ودرجة الحرارة، المبولة جاهزة لعينة جديدة، كم لبثتُ يا دكتور؟ شهرًا.. شهرًا؟!

نُم.. اقتل.. نُم.. نُم!

- "على الطريقة الأمريكية.. لدينا خبر جيد وآخر سيئ!"

- "إلي بالسيئ.."

- "للأسف، أنت لم تتماثل للشفاء، لا استجابة لعلاجنا، تلك المادة الجديدة قوية حتمًا، والمدهش أنها مستخرجة من.."

- "عضو خثير؟"

- "لا، بروتين الجاموس!"

- "إذن فهذا هو الخبر الجيد!"

- "لا، الخبر الجيد أنهم لن يسجنوك، سيتم نقلك لمصلحة مختصة.."

- "مصلحة مختصة؟ من أي نوع؟ وكيف سيساعدونني هناك؟"

- "أحسبهم الوحيدين القادرين على ذلك الآن، فقد انتهى دورنا هنا.. حظًا موفقًا يا بني!"

2

تقعُ مصحَّةُ "البرعم الأخضر" على طرف الممر المتخلل "غابة السرخس" كما يطلقون عليها، والتي تحتلُّ جزءاً لا بأس به من خلفية بلدة منسية يُقالُ لها "حرم الخنطة"، حيث بُنيت في أواخر السبعينيات قريباً من "الجلب الأرجواني" ..

تتألفُ المصحَّةُ من ثلاثين غرفة، ولم يؤمه مرضى كُثر في تلك الأيام بسبب بعض الحُرافات الرائجة بكون المنطقة مسكونة بالعفاريت! فأغلق عقب سنة من افتتاحه، وبيع بمبلغ زهيدٍ إلى مليونير مسيحي في الأربعين من عمره ..

ومن دون دعاية، بدأ أهل الفضول يزورون تلك المصححة رغم أن الرجل لم يُدخِل عليه تحسينات من أي نوع، فقط يعرجون عليه وكان هالة من نور تقودهم نحوه! زاعمين أنهم أتوا للبحث في أصل

الحكايات المخيفة التي تدور حوله.. كان هذا قبل الحريق الكبير الذي اندلع فيه مع مطلع الثمانينيات..

وفي عام 1988م أُعيد بناء المصححة عن طريق الحكومة التي عاودت شراءه من حفيد المليونير الراحل، ثم انتهت الأقاويل المتعلقة بصددّه، فلا أحد من العامة يعلم اليوم ما إذا كان موجودًا الآن أم لا، فقط الحكومة تعلم أنه مَقَرٌّ لمعالجة مدمني مخدر (R.D.6) القتال..

في خريف مُكفَّهٍ تغمره أوراق الشجر المتساقطة كان وصول (شاهر) للمصححة..

بدا المكان صامتًا كالضريح، حاويًا للأسرار الغامضة التي لا تهمه في شيء إن وجدت!

ثمّة مزرعة غير مبهجة وإسطل، المكان مُحاطٌ بأسوار شاهقة الغلّو، والدخول والخروج يتمُّ عبر بوابة فولاذية يحرسها رجلٌ راقبه بنظراتٍ غير ودودٍ بالمرّة..

في الداخل صمتٌ بين الأروقة، ورأس عملاق حيوان رنة معلق بالقرب من خزانة اللوي، بدا مظهره شنيعًا، وكأنّ الزبد الأبيض ما زال يُلطِّخُ شدقيه الأسودين.. ماذا يصنع في مصححةٍ بحقّ الله؟

ثمّة صورة تحتل جزءًا واسعًا من الجدار المقابل، وتمثّل منظرًا رُسمَ بدقّةٍ وبراعةٍ للمصححة من الخارج ومن زاويةٍ مُمتازةٍ..

على طاولة الاستقبال جرسٌ ضئيلٌ كناقوسِ الفنادق، ضُربَ
المُمرضُ المصاحبُ زره المعدني براحة يده، فانطلق الرنين بحدة خافتة
ذات صوت مألوف، في حين أنزل (شاهر) متاعه أرضاً، وطفق يتأملُ
كلَّ زاويةٍ وقِطعةٍ أثاثٍ بصمتٍ كان على رأسه الطير..

- "أهلاً يا سادة!"

نظراً بآن واحد، فأبصرا ممرضة عابسة الوجه ذات ملامح دميمة،
لكنها عريضة المنكبين ذات جسد متين البنية كالذكور، ترتدي نظارة
بيضاوية صغيرة، وتأملُهما بعينها الضيقتين من فوقهما، بدت ممتلئة
لولا الذبول في حنجرتها..

- "أنا المشرفة (وجهة).."

صوتها رخيم اعتاد إصدار الأوامر..

ولج الممرض بالموضوع بسرعة، فشرح لها أمرَ المريض الجديد وهو
يُسَلِّمُها ملفه..

- مدمن آخر؟ آه من الدنيا التي لا ترحم!

أصدرَ الرجلُ صوتَ طقطقةٍ مُردِّفاً بلهجة ذات خُطورة:

- المادة في جسمه مختلفة..

نظرتُ لشاهر بفضول متسائلة:

- أحقاً؟

ردَّ الشابُّ بخشونةٍ وقد أدهشته طريقُها بالكلام عنه وكأنه وَلَدٌ صغيرٌ لطيفٌ:

- وكيف لي أن أعلم؟

- على رِسْلِكَ أيها الفتى حارُّ الدماء! ما هكذا تؤخذ الأمور..
هل لي بمعرفة اسمك؟

- (شاهر)..

- إنه يروق لي كثيرًا.. ماذا كنتَ تعمل؟

- كنتُ رسامَ إعلانات..

قالها متأملًا المكان حوله وكأنما يقيس إمكانية أن يعج بالمرضى..
وفي النهاية مدت المرأة يدها مُصافحةً المُمرض..

- "يامكانك الرحيل، سنعتني به جيدًا.."

لاحت - بغتة - نظرة قاسية في عيني الرجل الذابلتين، وارتسم
تجهمٌ قاسٍ على وجهه وهو يقولُ لشاهر ببطء:

- ابتعد عن المشكلات، ولا تنسَ أن الشرطة مُهتمةٌ بأمرِكَ..

- حاضر يا والدي!

انسحب الرجل تاركًا المرأة تُدوّن شيئًا في الملف، ثم اصططحته في
الممر قائلةً بعجلةٍ كأن الوقت يداهمها:

- الآن تقابل المدير، إياك والمشاكسة معها وإلا نلتَ متاعب
جَهَّة..

- أين المرضى؟

- هنا وهناك.. ماذا كنت تظن؟

- أنهم لا ذوا بالفرار!

- لا أحد منهم يفر، هذا مزلهم الحقيقي!

توقفا أمام الباب في آخر الممر، طرقات.. "ادخل".. دخلا..

كانت المرأة الجالسة وراء المكتب أقل حدة من المشرفة، لكنها ذكرت بالمعلم على نحو ما، جلستها، مكتبها المعتنى به، شعرها معقوص وملايسها غامقة، في عينيها حنوٌّ يمكن تبيينه..

- "سيد...؟ (كاسبار) (كاسبار هاوزر)!"

وابتسمت مُتناولة الملف من المشرفة، تصفّحته دون تدقيق هامسة:

- من الآن فصاعداً سيكون هذا اسمك! تماماً كالحكاية القديمة الغامضة، هل سمعت بها؟

- أجل.. لكن اسمي هو (شاهر) وهو يعجبني..

- وصلتني مُكالمة بخصوصك، واحدة من الشرطة والأخرى من طبيبك، أخبرني الأخير أنك أفقتَ من حالة موت سريري، يجب أن نحمّد الله!

- الحمد والشكر له، ما علاقة ذلك باسمي؟

- ما بلغني من معلومات بشأن ماضيك ذكرني كثيراً بحكاية (كاسبار هاوزر) العجيبة..

- فقررت تسميتي كما تفعلين مع حيوانك الأليف!

- لا تكن مُتَعَتِّتًا يا عزيزي! أتمنى أن نوجد لك البيئة المناسبة كي تتماثل للشفاء.. لكن دعني أسألك سؤالًا واحدًا.. لماذا تعاطيت المخدِّرَ أساسًا؟ ماذا كانت ذريعتك بالمقام الأول؟

تعلّق بصره باللوح البرونزي الصغير المُواجه له، (باسيت)، هذا اسمها إذن.. ثم حدّجها بنظرة طويلة صامتة، ففكر بالإعراض عن الرد، لكنه في النهاية أجاب:

- أردت.. أردت حضور حفل عيد ميلادي ورؤية والدي ووالدي ورفاقي!

- والدك ووالدك؟ لكنك تربيت في ملجأ للأيتام قبل أن..

- قصدت الذين لم أنعم بمقابلتهم قط!

باغتها الصمت وقد تنبّهت أخيرًا لمقصده، فانشغلت بتدوين بعض النقاط الإضافية.. إحباط.. اكتئاب.. شغف بالهلاوس.. كان يُخَمِّنُ ما تدونه بين صفحات ملفه..

- "بإمكانك رؤية غرفتك الآن.."

- "شكرًا يا ماما (تيريزا)!"

- "أستميحك عذرًا؟"

- "لا شيء، هذه تسميتي أنا لك فحسب!"

اكفهر وجه المشرفة قائلةً بحدّة:

- الاحترام!

لكنها راقبته بحبورٍ عجيبٍ، ثم وبيرة ذات وجلٍ تمتت:

- حظًا موفقًا هنا يا سيدي..

هكذا، خرج برفقة (وجيهة)، فاقتادته مسافةً لا بأس بها، شاهدَ خلالها عبر النوافذ حديقةً لا بأس بها..

- "هذه هي غرفتك.."

وهمت بالرحيل، فتساءل متأملًا الباب:

- وأين المفتاح؟

- لا مفاتيح، الوجبات الثلاث تُقدَّم في قاعة الطعام، الفطور في الثامنة، الغداء في الواحدة، العشاء في التاسعة..

وغادرت تاركة إياه يَحْمِلُ متاعه ويدُلْفُ..

فما إن فعل حتى بوغت بصيحاتٍ مَرَحٍ وهتافاتٍ وتصفيقٍ حارٍّ
و.. ماذا يحدث؟

أبصرَ عددًا من الوجوه الذكورية والأنثوية، ترمقه بعضها بشغف
وحماسةٍ والأخرى ببرودٍ ولا مبالاة، وقد توسَّطَ الجميع مُمرضةٌ جذابةٌ
ذكرته بصوفيا لورين في شبابه!

طاولة من المفترض أنها تخصه تراصت فوقها أطباق وكؤوس،
بانتظار صَبِّ العصير وتقطيع تورتة هائلة الحجم!

وعلى السَّقْفِ وراء الكَلِّ، عُلِّقَتْ لافِتَةٌ من القماش دُرْنَ عليها:
"أهلاً بالزَّيْلِ الجديد!"
وعلى الرغم منه.. ابتسم!

3

لم تؤثر طفولة (بلجة) العيسة به كثيراً...

أبواه كانا أحمقين، وكثيراً ما تشاجرا أمامه حتى أصابه مرة إناء في
جبهته قذفت به والدته والدّه لكنها أخطأت التصويب!

ماتا في حادثة سيارة مروّعة، وقد قال الشهود إنهم رأوهما يتبادلان
الصفعات أثناء قيادة والده سيارته، فلم يتنبه لمصباح الإشارة الأمر
بالتوقف، لقد سُحقا سحقاً بسيارة أخرى!

كان يفرغ من كابوس كي ينتقل لآخر، في الملجأ عاش طفولة
بانسة، وفيما بعد عندما كبر تحول إلى مُدمن، وأدمن المخدر
(R.D.6)، فانقلب الكابوس ثقيل الوطء لحلم وردّي، ثم لم يلبث أن
تحول إلى شيء لا يوصف بكلمات، صار كالسيد في قصر واقع بمعزل
عن البشر، وقد كان هذا يُناسبه أكثر...

لم يتذكر (بلجة) اسمه الحقيقي قط، وإن ضايقه الاسم الذي حمله كمريض، والذي كانت مدام (باسينت) مديرة المصح تناديه به، كانت تسلية المرأة هي إطلاق ما يحلو لها من تسميات على كل مريض يدخل للعلاج من إدمانه المدمر، ولم يفهم معنى اسمه الجديد حتى وثق معرفته بباقي أفراد عائلته الجديدة التعيسة، فتعرف النشيط منهم والجميل والذكي - أو من كانوا كذلك قبل إدمانهم -، ومن بين الأذكاء وجد الأذكي، الفتى المقعد (حزنون)، فراره ذات ليلة مستفسراً عن معنى اسمه، فأخبره الفتى الذي عانى مرارة الشلل أنه يعني الفسحة ما بين الحاجبين، وقد كان ذلك حقاً، فحادث الإناء تسبب له بئدبة متسعة زادت من تفريق حاجبيه وتباعُد المسافة بينهما، فبات منظره مُزعجاً له وللـبعض..

استعان سراً ومرات عدة بأدوات ماكياج اقتنصها من غرفة (ذهب) تلك المريضة المغرورة، مُزِعاً الخلاص من تلك المشكلة لسراً رَقَدَ في أعماقه منذ زمن..

في بداية تعارفهما داخل المصحّة كان (بلجة) و(ظلال) يُمضيان غالبية الوقت معاً، ثم فرقتهما الأيام ومام (باسينت) أحدهما عن الآخر لعدم ارتياحها محالطة الذكور للإناث، معتبرة ذلك خطيئة لا تُغفر، حتى وإن كانوا مرضى يواسون بعضهم البعض..

ولدى حضور الممرضة (أزوريت) وجد (بلجة) فرصته سائحة مجدداً، فأزوريت لم تكن تتمتع بذات تعُت مدام (باسينت) أو كفاءتها، تاركةً للجميع الحبل على الغارب، مُكتفيةً بإطعامهم

وإلباسهم مع تكفلها بنصيحهم في معظم الأوقات، فكان هذا أكثر من مناسب..

وجد أن مفعول الماكياج لا يدوم طويلاً، فكان يرسم حاجبين بقلم الكحل، ويضع قليلاً من مساحيق التجميل على التُدبة اللعينة أملاً بموارثها، ثم يُهرع للقبيا (ظلال) في الحديقة، حيث تجلس على الأرجوحة منتظرة قيامه بدفعها من وراء..

ذات مرة قام بأرجحتها قليلاً قبل أن يوقفها، فهتفت مُعترضة:

- لم توقفت؟

- (ظلال) أنا..

- أنت ماذا؟

- أنا أحبك!

قالها ووجهه يتعرقُ بكثافة، حتى زالت كل المساحيق التي وضعها على نُدبته القبيحة، فتلقتْ بصمت.. لم تخبره أنهم جميعاً هنا مجرد مرضى في طور النقاهة، ولم تقرأ به وبُندبته رغم الإغراء الواقع في نفسها تلكم اللحظات، الحقيقة أن الأمر سرّاً قليلاً فقررت أن تتسلّى بعواطفه..

هكذا، ردّت عليه هامسةً بعينين مُسبلتين:

- استغرق منك الأمر مُدةً طويلة.. وأسفاً!

- ويلي! على ماذا؟

- قلبي ملكٌ لغيرك.. آسفة يا (بلجة)!

ثم فَرَّتْ من ناظره مُهَنَّةً نفسها على النجاح الساحق الذي حققته، غير آبهة - أو عالمة - أنها صدمته صدمة لم يستشعر لها مثيلاً..

جلس مكانها فترةً يتأرجح، قَبَضَ على الحبلين المتدليين من فرع الشجرة الضخم بقوة، ثم سحب بقبضتيه لأسفل بقوة وعُنفٍ حتى آذاهما وأدماهما بشدة، لكنه لم يَأْبَهُ أو يتأوه.. انحصر تفكيره في سؤال واحد.. مَنْ يكون؟ مَنْ الوغد؟ مَنْ تراه يكون؟

من بعيد أبصر (شاهر) مُتمددًا كعادته على العُشب الندي الأخضر داسًا سُبُلَةَ قَمْحٍ بين شفتيه، فاشتعل حَقْدٌ كالنار بين ثناياه، وارتفع صُراخٌ عَقَلَهُ: "المُستجدُّ اللعين! ومن غيره؟"

اشتعلت نيرانٌ غيرةٍ مُدمرةٍ وبصره لا يُفَارِقُ الفتي الذي لم يستسغه مذ أتى أول مرة، كان يكرهه، يكره ثقته العمياء بنفسه، يكره هُدوءه كأن العالم بأسره لا يعنيه.. ذات مرة صَعَدَ للسطح، فوجده راقداً على ظهره وقد دسَّ بين أسنانه نكاشة مُتأملًا الغيوم في السماء، كأنه ينتظر خبراً منها بسلام رُوحِي!

هكذا، وجد (بلجة) خَصَمًا، لكن (شاهر) لا يُسْتَهَانُ به، والعراك معه لن يكون في صالحه، إذن فليجد مَنْ يُنَافِسُ غريمه قوةً وليوغر صدره عليه..

ولم يكن ثمة شخص مناسب بين الشبان، كما أن الجميع يحبونه ما
عداه و(داهوت) الأشقر الجميل، و(تؤلول) الذي يُنافسه قُبْحًا،
لكنهما لن يحاولا اعتراض سبيله أبدًا جُنَيْهِمَا..

4

لدى استقبال المصححة تلك المريضة الباكية، احتملتها مدام (باسينت) إلى غرفتها بعونٍ من (وجيهة)، حيث أعطتها حَجْرًا جميلًا يُماثلُ الكريستال ابتهجت الفتاة لمرآة كثيرًا، فوعدها المرأة بمنحها إياه إذا ما كَفَّت عن البكاء كالصغار..

فيما بعد، زارت تلك المريضة بعد تحسُّنٍ طفيف (حلزون) أمين مكتبة المصححة كي تسأله عن الحجر، فقطب حاجبيه مُعتصرًا ذاكرته قبل أن يُجيبها:

- إنه التبريس، يقال أنه يشفي من الاستسقاء، ويقال إن من يمتلكه يصير خبيرًا بعلوم الفلك!

ثم تذكرُ أمرًا آخر سيثيرُ اهتمامها مُستقبلًا:

- يقال أيضًا إنه إذا ما رُصِّعَ به خاتم، جعل حامله محبوبًا من الشخص الراغب في نيل حبه!

عندئذ علمت (تيريس) معنى اسمها الذي استساغته، فقد وجدت له رئةً موسيقية جذبتها، واحتملت الحجر معها دائمًا كما لو كان مصدر قوة غامضة توشك على امتلاكها يومًا..

زفاف (أزوريت) من الطبيب الذي طلب يدها قبل شهر فحسب قد دنا..

أثناء تحضير فستان الزفاف جلست في غرفة (ناردين) ومعها (خرير) و(ذهب) و(ظلال) و(غصون)، وحتى (قبرة) الشرهة تخلت عن باب الثلاجة كي ترى ثوب الزفاف الذي بهّرها كثيرًا..

كانت (أزوريت) تعاملهنَّ كصديقاتٍ قديماتٍ، فترفُل في الثوب الجميل أمامهنَّ، وتدورُ حول نفسها كالفراشة وهُنَّ مُصَفِّقاتٌ ضاحكاتٍ، تُخبرهنَّ أن يوم زفاف الأنثى يوم مُخلَّد في ذاكرتها، وجميعهنَّ سيسعين لجعل ذلك اليوم هو الأجل في حياتهنَّ، فتحرك بحديثها مُخيلاُتهنَّ..

بجرأتهما ووقاحتها المعهودتين تطلب منها (ذهب) إخبارهن عن ليلة الزفاف وما يقع فيها بين الذكر والأنثى، فترسمُ حُمرَةَ الحجل على وجوههن جميعًا عدا (قبرة) البلهاء التي تتساءل ببراءة:

- وماذا يحدثُ في ليلة الزفاف هذه؟

فيجيء الإنقاذ عن طريق (ناردين)، تدلُّفُ بلطفٍ حاملة علبه استكمال النواقص لفستان الزفاف فهي خياطة بارعة، فتطلب (أزوريت) منهنَّ جميعاً وبلطفٍ الخروج، فيتفذن ذلك دون مشكلة، وتصنع (ذهب) المثل بضغينة لم تحفها يوماً في الحديث والنظرات تجاه (ناردين)!

أما (تبريس) فكم تمنى المكوث أكثر والمشاهدة! لكنها لم تجرؤ يوماً على طلب السماح لها بالبقاء، فتهرع إلى غرفتها وتبتدى طقوسها المعتادة، تصنعُ ثنائم من الخيوط والورق، وتتمتم بكلمات غير مفهومة، تخطُّ بقلم تلوين أحمر دوائر لولبية على ثنائمها!

كانت تحتفظ بشيء من كل ما تمارسه في ذاكرتها، طقوس نَبأها أن وسائلها ستعينها على كشف الحجاب عن اسم حبيبها، وتمارس أفاعيل الساحرات تلك كلها ويدها قابضة على حجرها الأثير الذي تسمت باسمه..

دأبت (تبريس) على زيارة (حلزون) وهو جالس على طاولة والكتب والمراجع مُتراصة من حوله كقطارات، فأخذت مشورته في مطالعة بعض كتب السحر والشعوذة، وكان قد قرأ أكثرها قبل أن يجدها قُرْفُ بُراء لا نفع منه، لكنه ساعدها بحكم خبرته مُنتقياً لها عددًا لا بأس به من الكتب التي تتناول شروط السحر و(مُخاواة) العقاريت، دون أن يفتهم سبب تحمُّسها الشديد لتلك الترهات..

وتحوّلت غرفتها الجديدة داخل المصحّة إلى غرفة غجرية من قارنات البخت، حتى إن المشرفة الدميّة (وجيّهة) كانت تخاف كثيراً الدُّنُوّ من غرفة المراهقة المجنونة، وكثيراً ما زارت مدام (باسينت) في مكتبها كي تنقل لها - بوجه ممتنع - أن مشعوذة شيطانية تتلو السريانية ليلاً تقطن معهم، فكانت (باسينت) تضحك وتسخر من تخاريفها الممتعة..

وذات ليلة، خرجت (وجيّهة) من حجرتها واضعةً شالاً ثقيلاً على كتفيها، فالبرودة كانت غير طبيعية، كما أنّها سمعت صوتاً مريباً آتياً من المطبخ..

هناك، وجدت هراً أسود يحاولُ فتحَ الثلاجة، فتهاوى قلبها بين أضلعها، ومستٌ ثغرها الجاف بأطراف أناملها هامسةً كالماخوذة:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم! لا بُدَّ وأن المدمنة اللعينة قد (خاوت) جنياً!

ولدى بلوغها السابعة والعشرين من العمر، دأبت (تريس) على الخروج في جولاتٍ ليليةٍ في ممرات المصحّة بقدمين حافيتين وعباءة سوداء كرهبان معابد القرايين، حاملةً شمعةً ومتلفظة برُقى عجيبة، وفي إحدى جولاتها الليلية قابلت (صفر) المولّع بالدمى الميكانيكية يدور بحيرة التائه كما لو كان فاقداً لشيء مهم، فقالت له عبارة واحدة أراحته فيما بعد كثيراً، وإن لم يفهم كيفية معرفتها بموضوعه:

- "ستجد (صفرد)!"

وفي ليلة أخرى قابلت (راهب)، وقد وجدته مُرتدياً خوذة بمصباح
ويعكف على جرجرة جهاز عجيب الشكل، فقالت له ساخرة:

- أنت بكائناتك الفضائية وأنا بعفاريقي، ولترَ مَنْ منا سينجح في
الاستيلاء على القصر!

كانت كديدن المرضى الذين أطلقوا على المصححة اسم "القصر"
لسبب ما يجهلونه هم أنفسهم..

طبعاً أثارت دُعره كثيراً، حتى أنه استيقظ صبيحة اليوم التالي مُعلنًا
للجميع أن (تبريس) كائن فضائي آخر نيته غير سليمة تجاه أبناء
الأرض!

استمتعت كثيراً بالخوف الذي تفشى بينهم تجاهها كلما مرت
بأحدهم، وصارت تحمل الازدراء للجميع لدرجة أنها صارت تتناول
وجباتها، وتقضي جُلَّ وقتها في عُرفتها بين التمانم وممارسات
الشعوذة، وتدرجياً تحولت لانطوائية، كان هذا قبل أن يتحوّل الخوف
منها إلى اهتمام بها!

وكان أول الزائرين هو (بلجة)، إذ أراد عونها لجعل (ظلال) تُعشقه
وتتعلق به، فأعطته تميمة جلدية أمرته ألا يزعجها عن عُنفه أبداً، كما
أمرته ألا يفتحها ليرى ما بداخلها وإلا أُصيب باللعنة!

رَضَخَ للأمر، لكنه عندما استوثق من عدم جدوى التهمة فَسَحَهَا،
فأبصر بداخلها ذَيْلَ عَقْرَبٍ!

زارهما (ضارية) أيضًا طالبة منها تَمِيمَةً تُعَجِّلُ بِشِفَاءِ صديقتهما
(لؤلؤة) الأثرية إلى قلبها والتي ترعاها بأُمومةٍ، فَمَنَحَتْهَا (تبريس) ما
طلبت، ولدى فشل تلكم التهمة أيضًا زارهما (ضارية) كي تَمْرَأَ بِهَا
وبعفارتها، فحذرهما (تبريس) مِنْ فِعْلِ ذَلِكَ وإلا حَلَّتْ عَلَيْهَا لَعْنَةٌ لَنْ
تَزُولَ عنها إلى أبد الآبدين!

زارها (ثؤلؤل) أيضًا باحثًا عن حُلٍّ لمصيبتها، و(زغدة) للخلاص من
كوابيسها المُرعبة، حتى (قبرة) المدينة الأَكُولِ زَارَتْهَا لِإِيجَادِ وَسِيلَةٍ تَلْجُ
بِهَا نَادِي "الآنسات الخافيات"!

لكن أعجب زيارة حدثت هي زيارة (أزوريت) لها شخصيًا، وقد
جالستها الممرضة باحترامٍ ورهبةٍ رغم فارق السِّنِّ بينهما، فقد كانت
(أزوريت) مؤمنةً تمامًا بقوة السحر والعفاريت..

سألتها (تبريس) عن المشكلة، فانتحبت (أزوريت) قليلًا قبل أن
تَمْسَ من خلال دموعها:

- زوجي يريد طفلًا من صُلْبِهِ!

أثارت الجملة قلقًا مُبْهِمًا في نفس (تبريس)، فقد كانت تلك بادرة
غير مريحة، في حين أضافت (أزوريت) مُخَفِّيةً ملامحها بكفئتها:

- كما أنه يغار!

- ممن؟

- من.. من (شاهر)!

ذَهَلْتَ (تبريس) حتى اتسع بصرُها، وَهَفَّتْ دَهْشَةُ:

- (شاهر)؟ لكنه..

- أعلم هذا! لكن.. تريدان الصدق؟ أحيانًا تراودني أفكار مشينة

بشأنه!

- أنت؟!

- سامحيني! الأمر أكبر من مقدرتي على الاحتمال أكثر، كان

يجب أن أُسِرَّ بالأمر لأحدٍ قبل أن أُصاب بالجنون.. أراه مؤخرًا في

أحلام شائنة ولا أعرف السبب!

- إن (شاهر) بمقام ولدك الآن يا أُمّاه!

- أعلم هذا! أعلم هذا!

ثم دأمتها نوبةٌ نشيجٍ منحت الفتاة فُرصةً للتفكير بهذا كله، كانت

فكرة الإنجاب مُخيفة، فهي تعني أن ينال الطفل كل اهتمام ويفقد

المرضى امتيازات وجودها المتعددة، وقد يطلب منها زوجها تَرْكُ

العمل..

لكن هذا! حديث رهيب لا يخطر ببال حتى عفريت من عفاريته!

وعندما خيراً قبل تفرقهما، وفكرت (تريس) مطوياً في الأمر حتى
أعيها التفكير.. لكنها لم تلبث أن اتخذت قراراً صارماً ذات ليلة،
فمصلحة الجماعة تفوق مصلحة الأفراد..

هكذا، شحذت جميع التمانم ورقي السحر لجعل ممرضتهم المحبوبة
عقيماً!

5

في غرفته بالمصحة، وأمام درج احتفظ داخله بخصوصياته من أيام
المزل، استخرج (ثؤلول) سكينًا صغيرة ماضية رفعها عاليًا كي يتأمل
ملاحمه على نصلها..

تذكر ضحكة مدام (باسينت) لما وقع بصرها على وجهه المليء
بالتآليل القبيحة، وبمعايرة قاسية ألصقت به اسمًا لطالما تمكّم به أكثر
المرضى عليه..

والذي لم يدركه أحد منهم أنه كرههم أجمعين، ولدى ولوجه
غرفته الجديدة وضع ستارة على المرأة العريضة هامسًا بحقي:

- هذه المرأة تسخر مني!

في المصحة تقلّبت نفسيته أكثر، لقي استنزازًا من المشرفة
(وجيهة)، حتى ألما كانت تضع له الطعام وأنفها يبتعد عن وجهه كما

لو كانت تحشى التقاط عدوى منه، وفي مرة تمشى في الحديقة، فسمع صوت (هدهد) الأجنس يهتف به:

- لِمَ لا تحشى في غرفتك أيها الحيوان القبيح؟ إنك تؤذي الناظر إليك!

فرمقه بنظرة كراهية جمّة، وهُرع إلى غرفته كي يمر بأزوريت التي تبسمت لدى رؤيته، فنادت به بخنوّ:

- إلى أين يا بطل؟

لكنه تجاهلها مُواصلًا الركض، ظلّ صوّما يطاردُه حتى بُح..

وفي غرفته أوصد على نفسه الباب لاهثًا، قبل قوله بنبرة مخنوقة والعبرات محتشدة في مقلتيه:

- المرأة اللعينة تسخر مني!

كانت ثأليه معاناة ما بعدها معاناة، لكنه لم يُبحّ بوهنه لأحد، حتى إن (أزوريت) عرضت عليه ذات مرة أخذه لطبيب مُمكن كي يتخلّص منها، فرفض بإباءٍ وأعماقه ملأى بالتحسّر على رفضه المتسرع..

كان يكره الشفقة والاحتقار معًا، أراد عيونا طبيعية، لذا قضى جُلّ وقته في غرفته، وإذا اجتمع مع أحدهم اختار فئة معينة لا تزدريه، مثل (ناردين) اللطيفة و(حلزون) غير المكترث إلا لكتبه..

وعندما يُمرُّ بشاهر من دون قصد، يسمع صوتًا هادئًا يناديه بقوله:

- كيف حالك؟

كيف حالك! كيف حالك! بلا (ثؤلول)! حتى (ناردين)
(حلزون) و(أزوريت) ينادونه بثؤلول بغير نية سيئة، فهم لا يعرفونه
باسم غير هذا الاسم المقيت، لكن (شاهر) كان الوحيد الذي تعامل
معه بالاحترام المطلوب..

ورغم هذا شعر (ثؤلول) بكراهية عجيبة له، ففسَّرَ احترامه ذاك
على أنه سُخرية مُبْتَنَّة بِمَكْرٍ، أحيانًا يطلب (شاهر) عونه في حمل
الأغراض التي ابتاعها (وجهة) للمطبخ فيرفض، أراد سماع الفتى
يصرخ ويشتم ويعايره بتأليله كسواه، أراد الانتشاء بالظلم الذي
يشعر به.. جميعكم أوغاد تعايروني وكأنكم كاملون، وحتى أنت يا
من تتظاهر بالطيبة والبساطة معي.. كلكم حِفْنة من المدمنين الأفاكين!

وذات مرة، طلب (شاهر) منه عونه في الإسطبل، فرفض (ثؤلول)
صارخًا بجدة:

- لستُ عبدًا لك!

فاكتفى (شاهر) بجزّ رأسه ومباشرة عمله دون تفوهه بحرف واحد
منغص..

ثم وقعت الطامة عندما أصاب أعذب داء مشاعره وفؤاده، فقد
تعلق قلبه بالفتاة (زغدة)، ولم يدرك أنه بذلك قد سطر التعاسة بأسوأ
معانيها في حياته..

لم يمتلك (ثؤلول) مواهب خاصة، لا بالحب ولا بغيره، لذا احتمل
وردة حمراء، وبطريقة مبتذلة قدمها لزغدة عندما كانت مستغرقة في
تأملاتها الخاصة في الحديقة..

لكنه رفضت هديته بصرخة، وتراجعت للوراء صائحة بهيجان
ودُعر:

- وكان هذا ما ينقصني، "البيع" يخطب ودي!

أذت كلمة "البيع" تلك مشاعره أكثر من اسمه، وفي غرفته وقف
متجرداً من ثيابه كلها، فوجد التأليل في كل بقعة من جسمه، حتى في
المواضع الحساسة، فغمغم كالبهائم وجسده القبيح أخذ بالترنح:

- هل هذا أنا؟ من أنا؟ لماذا أنا؟ ماذا أنا؟

ثم يشج بحرقه حتى سمع طرقات على بابه، وكان الطارق
(أزوريت) بذاتها تسأله بركة عما أصابه، أراد الصراخ ونعتها بالبغي
حملها على الرحيل، لكنه تكوّر على نفسه كالقط المبتل، وبضالة
غمغم:

- لا شيء، يا أماء، أشعر بالتعاس لا أكثر..

- إذن افتح الباب ودعني أقسُ لك حرارتك..

- لا داعي لهذا كله، أنا م وأستفيق، وعندئذ أصر كالرهبان..

- إذن تصبح على خير يا عزيزي..

وترحل تاركة إياه يكرر عبارتها مرارًا وتكرارًا بتهكم مُشمزٍ..

خطر له ذات مرة الاستعانة بتبريس وعفاريته، فزارها عند منتصف الليل بخطوات خفيفة وأنفاس مُتلاحقة، فقد كان حقًا يهابها..

استقبلته باسمّة باستهزاء مُتسائلة:

- ماذا؟ تريد حلًا لثألي لك؟

- أريد حلًا لقلبي!

استرعى الأمر اهتمامها، فتمتعت:

- هكذا.. ومن تعيسة الحظ؟

تجاهل كلامها قائلاً بتصميم:

- (زغدة)؟

- (زغدة) الرعيدة؟ ألم تجد إلا الفتاة التي تخشى ظلّها؟ انسَ

الموضوع أفضل..

- أبدًا!

- أوه.. يا لها من شجاعة! لكنك ستنسى، حتمًا ستفعل..

- لماذا؟ لماذا؟

- لأن عفريتًا أعرفه ويعرفني قد تعلقَ بها، ولن يتركها أبدًا حتى لو اضطر إلى ذبح منافسيه على قلبها!

هنا فقط تبدى جنبه وهو يهبُّ واقفًا ويتراجع مُرتعدًا، خارجًا من غرفتها مُذعورًا، وصوت ضحكها الشامت يطارده كأشنع كابوس!

وفي حجرته تجرد من ثيابه كالعادة، ووقف متأملًا نأليله في المراة التي أزال الستارة عنها صائحًا:

- يا حقراء!! يا أنجاس!!

مخاطبًا نأليل الشبح المشوه الذي يناظره كل ليلة تقريبًا..

ثم جلس على مقعد أمام طاولته، مستخرجًا من الدرج سكينه الضئيلة الحادة، فتمعن بها مُحدِّقًا بتقاسيم وجهه المنفرة، وبنبرة حقد هَمَسَ مُمررًا إيمامه على الحد حتى أدماه:

- الليلة ينتهي كل شيء.. كل شيء!

وبرغونة جنونية قام بتمزيق نأليله كلها شر تمزيق! ثم خرج بتلك الهيئة المروعة وهو يصرخ، ولحسن الحظ أن (وجيهة) كانت أول من رآه، فاستنجدت بالمرضى مُذعورة..

قام (شاهر) بلف بطانية عليه، وبسرية تامة ويعون من (هدهد)
نقل إلى غرفة من غرف المصححة المتعددة ريثما تُمرع (وجيئة) لإخبار
(باسينت) ..

وحضرَ طبيبٌ مختصٌّ عَقِبَ مرور ساعةٍ كاملةٍ ومعه مُمرضته،
ففظفا جُروحَه كُلَّها بالمطهرات، ثم قامت الممرضة بتضميد الفوضى
التي أحدثها بأناةٍ هامسةٍ بعباراتٍ مُشجعةٍ:

- أنت فتى شجاع.. ما اسمك؟

ردٌّ ساخرًا:

- (ثؤلؤل)!

لكن وجهها لم يوح بشيء، وواصلت عملها حتى أتمته، ثم رحلت
هي والطبيب، لكنها لم ترحل عن بال الفتى المتضرر نفسيًا وجسديًا..
لأيام ظلَّ يحلم بها، كانت امرأةً تماثل (أزوريت) عُمرًا، قصيرة
القامة نوعًا، ذات شعر أسود قصير كالباروكة، ممتلئة قليلًا، لكن
أنوثتها الظاهرة جذبتَه بشدة..

أراد معرفة اسمها، وتمايل مرة على (أزوريت) التي أتته بصينية
الطعام كي تعاود الممرضة زيارته لتفقد جروحَه، فوعده (أزوريت) -
التي لم تفهم مقصده الحقيقي - خيرًا، وأخبرت زوجها بالعمل كي
يرسل الممرضة، لكنه رفض قائلًا: لا داعي لحضورها لأن الجروح
متماثلة للشفاء..

صارت (زغدة) أثرًا بعيدًا من الماضي، فقد صار وَلَّهُ (ثولول)
الأول والأخير لقديسات الرحمة اللواتي يهمن بالشفاء في آذان
المعذبين من المرضى، وتحول إلى مريض سريري مُعزَل، حاله كحال
(لولوة) المسكينة..

6

(جروح) اسم يُناسبُ فتاة، ورغم ذلك لم يكن هذا اسمها الحقيقي..

فقد لاحظت مدام (باسينت) نُدبات كثيرة من أداة حادة في راحتيها، وعندما سألتها عمّن تسبب لها بتلك الجروح القديمة أجابتها:

- العقاب!

كانت (جروح) تحتفظ بشفرة حلاقة في جيبها، ذات الشفرة التي استخدمتها والدتها الراحلة عليها كلما أخطأت في شيء، وقد كانت هَفَواتها لا تُذكر، يمكن لأي صغيرة ارتكابها، إلا أن والدتها كانت تملك رأياً آخر..

- "افتحي راحة يدك!"

والسبب - مثلًا - تركها الجزر المطبوخ في الطبق لأنها لا تطيقه، ثم تقبض الأم رسغ ابنتها بثبات، وتمرر الشفرة الحادة ببطء على يدها البضة، تاركة لها ندبة جديدة من ندبات الهوان والألم..

ثم صارت (جروح) تُعاقب نفسها على ما تعتبره غلطة بذات طريقة والدتها، لذا امتلأت يدها ندوبا قبيحة!

لم تتغير (جروح) أثناء تجربة الإدمان وبعدها، ظلت محتفظة بالشفرة معاهدة نفسها ألا تقع في الخطأ احترامًا لذكرى والدتها المعتوهة!

وباستثناء تلك العادة الماسوشية، تبدت (جروح) فتاة جميلة تُعنى بشعرها وثيابها ونظافتها، وبعينين لجلالين كانت تفقد الفتية بولع سري لإيجاد من يناسبها منهم أكثر، ليس كحبيب وإنما كصديق مُخلص مُقرب..

كانت مشكلة الفتاة أنها صامتة أكثر الوقت كالبكم، نادرًا ما تنطق، فإذا نطقت واكتشفت أن ما قالته بدا معييا أو غير مفهوم سارعت بمُعاينة نفسها بشفرة الحلاقة!

كانت تستأنس بالحديقة وخضرة المزرعة، وأكثر ما أحبته لدرجة الوله الحصان في إسطبل المزرعة، وقد كان فحلًا جميلًا يدعونه عداء الصحراء، جوادًا عربيًا أصيلًا بُنيًا، ذا حوافر قوية وقوائم بيضاء..

صارت تستيقظ فجراً كي تُلقِي التحية على العداء، وتطعمه قبل قيام (شاهر) أو (هدهد) بذلك، وتوطدت العلاقة بينها وبين الجواد الجميل، فصارت تقضي جُلَّ وقتها يومياً معه، تطعمه مكعبات السكر وتروي له حكايات عن ذكريات كنيية، كما أنها دأبت على تنظيف آثار ضربات سوط (داهوت) الآثمة على ردفه كلما امتطاه بقطن طبي ومُطهر للجروح، وزاد ذلك من معاناتها وعدد الندبات على راحتيها..

ذات مرة، تصادف وجود (سرعوب) في الإسطبل، وجدته يُداعِبُ ظهر حصانها الأثير، فتتمرّ وجهها قليلاً وأمرته بالابتعاد عنه! قرنت دهشة في سحنته، وبترفُّق همس ويده تربت عُنُق الحصان:

- لكنه يحبُّ هذا!

- وما أدراك؟

- هو من أخبرني!

- احملُ ثُرْهاتك بعيداً عن حصاني!

دُهِشَ أكثر لتعبير التملُّك الذي استخدمته، لكنه كان من المسلمين، فابتعد بخنوع وخرج دون أن يناقش، في حين دنت هي من عداء الصحراء هامسةً والدمع مترقرق في عينيها:

- أنا آسفة!

ولم تحدد أسفها على ماذا بالضبط.. على تأخرها عليه، أم على ترك الفتى يداعبه.. المهم أنها وجدت غلطة لا تُغفر، وفي غرفتها في تلك الليلة رَسَمَت خطأ دمويًا جديدًا على راحتها اليسرى!

في الصباح الباكر يستيقظ الجميع لتناول وجبات الإفطار، بعدها تبدأ حصص التعليم، فقد اقترحت (أزوريت) إحضار أفضل المدرسين لهم لتعليمهم كسائر البشر، ومن بينهم شابٌ لطيف يُدرس الرياضيات..

كانت القاعدة الأولى والغامضة لدى (باسينت) ألا أسماء! يمكن للمدرس أو الطبيب معرفة اسم تلميذه أو مريضه، أما العكس فمرفوض، كأن المرأة تفضل تفوقهم وعدم مخالطتهم باقي البشر..

بطبيعة الحال كان لا بُدَّ لعددٍ منهم أن يكونوا ضعافًا في الرياضيات، ومن بينهم (جروح) التي كانت تركز في حصة أستاذها على وسامته ومَلامِحِ الرقيقة الهادئة، كان شابًا مُتبسطًا يهوى استخدام الحكايات في حل المسائل المستعصية، كان بارعًا لكنها لم تكثرث للدروس كلها..

أما كارثة الكوارث فتمثلت في أسئلته لها حول المسائل والمعادلات، كانت تخطئ دائمًا في الأجوبة معه ومع بقية الأساتذة في سائر المواد، لكن الخطأ مع أستاذها المفضل معناه طرح ندبة جديدة ومؤلمة على إحدى يديها..

لم تقصر في زيارتها اليومية للعداء، فكانت تجلبُ له قِطْعَ السُّكَّرِ وترتّب على ظهره، وتقضُّ عليه ما دار بينها وبين أستاذ الرياضيات، وتظلُّ بالساعات تثرثر عن وسامته ومدى دماثة أخلاقه، وفي النهاية قبل أن ترحل تُداعِبُ أذني الحصان هامسةً بدلال:

- إنه يذكرني بك!

لم تكن علاقة (جروح) بأزوريت طيبة، كانت تطلق عليها "السيدة الزجاجة" لأنها بدت مجرد امرأة تافهة لا تَمُحِبُ سوى سعادتها، أما تعلُّقها بهم فهي مجرد مظاهر باردة وصورة مزيفة للظهور بمظهر المحسنة..

لكنها أظهرت إعجاباً خفياً بالمشرفة (وجيهة)، كانت تحترّمُ نَعْبَهَا في الاعتناء بالمُدمنين رغم قسوتها وصرامتها.. كانت تحترّمُ المرأة المُرَهَقَةَ مِنْ قُرْطِ العمل، وتمتّعت المدعية المكتفية بالعبارات الرقيقة كأية سيدة أُرستقراطية أخرى..

لذا، حينما دعتهَا (أزوريت) للانضمام إلى شقيقتها أو رفيقتها - كلاهما سواء - في أمور التدبير المنزلي من خياطة وصنع قوالب الحلوى أعرضت وبشدة، كانت المزرة قُرّة عينها، والعداء اهتمامها الخالص بعد مُدرّس الرياضيات..

وفي اليوم الذي حضر به رجل بدين منكوش الشعر زاعماً أنه مدرّس الرياضيات الجديد ثارت، ورغم أن (وجيهة) أخبرتها أن

الشاب لم يعد بمقدوره انجى لانشغاله بالتحضير للسفر لم تصدقها، بل نعتتها بالكاذبة، فعمدت إلى صفعها من فرط الغضب والانفعال، فهُرعت إلى غُرفتها منتحبة كالطفلة الغريب، لكنها لم تعاقب نفسها بالشفرة لحسن الحظ لأنها لم تعتبر ما اقترفته غلطة..

وعند انتصاف الليل خرجت حافية قاصدة الإسطبل، فجفلت عندما وجدت (سرعوب) جالسا أمام عداء الصحراء دون أن يحسّه..

كان الحصان الجميل مُعتلا كما يبدو، فأسرعت تنفحسه جزعة قبل تَلْفُتها إلى الفتى الصامت صارخة في وجهه بميجان:

- ماذا صنعت له؟

- ليس أنا!

- ماذا تعني؟

نَهَضَ ببطء، وقبل مغادرته ألقى بقبلة صادمة:

- إنه يشعر بالغيرة فحسب!

7

إذا كانت المقولة الماثورة هي "مولود وبفمه ملعقة من ذهب"، فإن تلك المتعلقة بحلزون: "مولود وبفمه كتاب"!

فتى نجيب لطيف، ربما الوحيد الذي أحبه الكل دون ضغائن أو همكُم - إلا من ناحية الاسم فقط-، قصده الكل أول ما قصدوا لمعرفة معاني ألقابهم المبهمة التي صارت أسماءهم الأزلية فيما بعد..

من أين أتى (حلزون) بثقافته؟ كان ذكياً مثقفاً مذ ولج المصححة بشلله اخرن ومقعده البدائي المدولب، وأظهر نجابة في كل شيء، وكل سؤال يمتلك إجابته..

كانت مدام (باسينت) تحبه أيضاً وتعامله بلطف، وكثيراً ما كانت تجالسه لأحاديثه الشائقة التي تنسيها هموم إدارة المصححة، وهو ما لم تصنعه ألبته مع مريض آخر لأن (حلزون) استثناء مهم، فهو لم يختار

الإدمان بل دُفع إلى هوته دفعاً، والده حَقَّنه عن طريق الخطأ بالمخدر
على أنه دواء، فصار ابن أبيه في عادة الإدمان اللعينة!

لذا كانت مُتعاطفةً معه ومعجبة بمعلوماته الغزيرة.. يُحدثُها عن
الحضارات المختلفة والبلدان الجميلة، فترمقه بنظراتٍ تمزجُ بين
الاندهاش والاستحسان، فهو يتكلم عن "اللوfer" وكأنه زاره، وعن
مقابر الفراعنة وكأنه ولجها، وعن الأنهار الأوروبية الخلابَة كأنه جَلَسَ
على ضفافِها يوماً..

من ذكرياته التي لم ولن ينساها ما حيي أن مفصلاً في دولاب
مقعده القديم قد علق، فصار بحاجة إلى بذل مجهودٍ لجرحته،
وتصادف أن كان (شاهر) ماراً بالمكان مُصادفةً، وبظرة واحدة تفهم
الأمر، فتركه وذهب لجلب زيت التشحيم من المطبخ..

أثناء تشحيمِ المَفَصِلِ العالِقِ تبادلًا حديثًا مُطوَّلاً ومُشوِّقًا، حادثه
(حلزون) عن "اللوfer" فكلمه (شاهر) عن "الموناليزا"، قصَّ عليه عن
مقابر الفراعنة فعُدَّ له أسماءهم وانجازاتهم عبر التاريخ، حكى له عن
جمال الأنهار الأوروبية، فذكر له أسماءها واحدة تلو الأخرى!

وعندما تركه مُحيياً بيد مرفوعة، صنع (حلزون) المثل هامساً بنبرة
مُتهدجة:

- أخيراً وجدتُ "الفارس"!

عبارة غريبة.. أما مقصده منها فسيأتي فيما بعد..

لم يسعد (حلزون) كثيراً في المصححة، صحيح أن الطعام متوفر،
والملابس تنبعث منها رائحة صابون الغسيل..

لكنهم كفوا عن زيارته للاستزادة من معلوماته القيمة. وصاروا
أكثر انشغالاً، فأصيب بخيبة أمل لم يظهرها، ولكن سرعان ما تلاشت
عندما عكف على تصفُّح الكتب في مكتبة المصححة العامة..

صُعِقَ (حلزون) وبفرح لم رأى الكتب المتنوعة والكثيرة داخل
مكتبة هائلة الحجم، فتحوَّل إلى أمينها بالمعنى الحرفي للكلمة، حيث
بات فيها أغلب الأوقات، بل اتخذ منها حُجرةً للنوم رغم سيل
الاعتراضات المتهمر من (وجيهة)..
طالعَ بهم كل الكتب وبزمنٍ قياسيٍّ أيضاً، وأعاد ترتيب المكتبة

بمساعدة (شاهر) الذي ظلَّ يُلازمه كل يومٍ تقريباً، يتحدثان عن
الروايات وكتب الجغرافيا والعلوم من شتى الأنواع، كان ذكاء
(شاهر) عجيبيًا يدنو من العبقرية، لكن مظهره يوحي بشابٍّ غير مبالٍ
بالحياة، تعلقَ به (حلزون) أكثر عن ذي قبل، كما أنه الوحيد الذي
يعلمُ سرَّهُ!

ففي ليلةٍ من الليالي كاشفه (شاهر) بموضوع صغير شائق، إنه
واقعٌ بالحبِّ حتى النخاع منذ زمن، ولما سأله بمكرٍ عن سعادة الحظ
ظلَّ (شاهر) صامتاً باسماً..

كانت (ناردين) هي الألفظ والأجمل من بين كل الفتيات في نظره، لذا وَجَدَ أنها تصلح حقاً لصديقه الهادئ الواثق، إثمًا يُشكِّلان ثنائياً ممتازاً، ولم يخبر أحداً بالأمر..

لم يحدث أن رآهما معاً، وهذا ما جعله مُحْتَاراً، ولما سأل (شاهر) عن السبب أجابه:

- هي فتاة عَذْبَةٌ، وأنا أهابها نوعاً!

- معقولة؟ أنت قهَابُ فتاة؟

- وَلِمَ لا؟ إثمُ الغموض الآسِرِ بعينه!

وعندما استأذن للذهاب كي يعاون (هدهد) في الإسطبل، قَامَسَ (حلزون) بينه وبين نفسه بشغف:

- لا بُدَّ وأنه "الفارس"! وَمَنْ غيره يكون؟

إذن.. ما حكاية الفارس؟

لدى (حلزون) سِرٌّ يُثْقِلُ كاهله، سِرٌّ يمكن اعتباره مُخِيفاً.. فقد نشأ في منزل بمخاوف تَعْتَمِلُ نفسه ونفسيته، ظَلَّ يحملها حتى انتقاله للمصحة..

كانت تسلية مدام (باسينت) الأخرى بعد إطلاق الأسماء الغربية عليهم هي سرد الحكايات المخيفة، وهي اللحظات الوحيدة التي تجد بها المرضى وقد تجمعوا في سهرة ليلية - إذ لا تلفاز هنالك لأنه قادر

على توليد عنف لديهم وتصرفات أخرى غير محسوبة النتائج -
بانتظار سماع ما سيُسرَد الليلة كصغار الكشافة..

أما الحكاية التي نالت إعجابهم وبشدة - عدا (زغدة)
(حلزون) - فقد كانت حكاية عن أسطورة صينية قديمة تُدعى: "قائد
الصفصافة" ..

تقول مدام (باسينت) بنبرة ذات رهبة متأملّة عيون المرضى المتسعة
وشفاهم المنفرجة قليلاً وهي تُطالعُ كتاباً قديماً بعينين ضيقتين من فوق
نظارة طبيّة أصيق:

- عاش في قديم الزمان فارسٌ يُدعى (لي سن إين).. أراد شراء
مزل كي يعيش فيه مُستقراً، فقد قرَّر الزواج أخيراً عَقِبَ حياةٍ حافلةٍ
بالمغامرات المُتهوِّرة مع تابعه الشاب الذي رافقه في كل رحلاته
ومغامراته الشائقة..

بحث (لي) عن مزل الأحلام طويلاً، ولكن دونما جدوى، فهذا
المزل صغير، وذاك غالٍ، وثالثٌ مَوْقَعُهُ غيرٌ مُناسبٍ، ورابع أكبر من
اللازم..

شعر (لي) باليأس بعد عناء وطول بحث، لكنه وجد مزلّه المنشود
في أحد الأيام..

كان مترلاً مُناسبَ الحجم، في باحته حديقة مناسبة لزراعة زهور
الترجس التي يفضلها (لي)، كما أن منظر الجبال ذات القمم الثلجية
من خلف المنزل تبدى خلاباً..

قال (لي) مُبهراً لتابعه الشاب (كوان):

- لقد وجدتُ المنزل الذي أحلمُ به أخيراً!

كان مالك المنزل عجوزاً مُتفَضِّلَ الوجه جامد التعابير، وقد قال
للمُشتري الجديد المتحمس بنبرة باردة وهو يشير باتجاه باب المنزل
القديم الذي حمل نقوشاً عتيقة:

- يجب أن أُحذِّرك من شراء هذا المنزل المشؤوم!

تملكت (لي) دهشةً عارمةً، فتساءل:

- ماذا تقصدُ يا جدي؟

- منزلي هذا هو مأوى للأشباح المُسمَّاة "كوي"!

- أشباح؟ في هذا المنزل؟!

- أشباح تحب الأذى، أصحابها ماتوا أشنع المِيتات..

إن "كوي" تنشد أذية الناس علَّها تجد منهم من يحلُّ محلها في
الحجم! لكنها لا تستطيع السيطرة على الذين يمتلكون قلوب التنانين
الشجاعة..

فهل أنت تَينٌ شجاعٌ يا سيد (لي)؟

قالها متهكمًا، لكنه فوجئ بالرجل يقول وهو يشدُّ قبضة يده:

- أنا ما هو أكثر من ذلك!

رَمَقَه العجوز بنظرةٍ طويلة، ثم مدَّ يداً معروقة وممسكة بعقد بيع
المرل، فوقع (لي) عليه ونَقَدَ الرجل ثمنه..

وقبل أن يرحل العجوز التفت إلى (لي) قائلاً له:

- قد أعذَرَ مَنْ أُنْذَرَ!

- "أعتقد أنك قد تسرَّعت بشراء هذا المرل المُخيف يا سيدي!"

كانت تلك كلمات (كوان) تابع (لي) الذي أوقد الفانوس وهو
يتمتم باسمًا:

- لا عليك، إنما مجرد تخاريف الشيخوخة!

التحف (كوان) بالبطانية هامسًا بصوتٍ مُرتجفٍ:

- أشعرُ بالخوف!

- أنتَ تشعرُ بالبرد فقط..

كانت النافذة مفتوحة، ولما همَّ (لي) بإغلاقها فوجئ برؤية أغرب

شيء..

كانت هنالك يَدَ زرقاء ممدودةٌ عبر النافذة، تحمل بين أصابعها رسالة، والمخيف في الأمر أنها كانت يَدًا وذراعًا فحسب، إذ لا وجود للجسد كله!

- "شبح"!

هكذا صاح (كوان) في رُعبٍ، فقال له (لي) بحزمٍ مُتأملًا تلك اليد المخيفة:

- اهدأ، لا تدع الخوفَ يتمكنُ منك هكذا..

بقيت اليد ممسكةً بالرسالة الملفوفة بعنايةٍ كما لو كانت تنتظر من (لي) استلامها، فما إن فَعَلَ حتى تلاشت اليد كأن لم تكن!

- "هذا أغرب ساعي بريدٍ صادفته في حياتي!"

هكذا قال (لي) مُتأملًا رسالة الشبح ، فقال (كوان) في شوقٍ:

- ماذا تقول الرسالة يا سيدي؟ اقرأها بسرعة أرجوك..

فضَّ (لي) الرسالة وابتدأ القراءة:

إلى مالك المنزل الجديد (لي سن إن)..

أمهْلُكَ حتى فجر يومٍ غَدٍ كي تُغادرَ منزلي الذي أقطنه مُنذُ سنواتٍ عديدةٍ، واعلمْ بأنني قد أجبرتُ الجميعَ من بني جنسِكَ على

الفرار دونما رجعة، وكل من حاول أن يتحداني نال العقاب الرادع،
فلا تحاول اختباري لأن القتل لا يُعتبرُ خطيئةً لِشَبَح!

التوقيع: "قائد الصفصافة"

طوى (لي) الرسالة مجدداً، وبدا ساهماً شاردَ الذهن وهو يغمغمُ
واجماً:

- "قائد الصفصافة" .. من تراه يكون بحقَّ الله؟

لا أحد يمكنه الإجابة عن ذلك السؤال سوى رجل الشرطة
(ين) ..

و(ين) هذا كان قد قام في الماضي بعملٍ جريء وشجاع، إذ أنقذ
امراًةً مُسنَّةً من حَبْلِ المشنقة الذي لَفَّهُ أحد الأشباح المنتحرين حول
رَقَبَتِها، وقد أغضب تدخل (ين) الشبح، ودخل معه في صراعٍ مُضنٍ
حتى مطلع الفجر، عندئذ أصاب الوهن الشَّبَحَ وتحوَّلَ إلى قطعة من
الْحَطَب!

وجد (لي سن إن) الشرطي الكهل في المَخْفَرِ عاكفاً على تفسير
برتقالة، فحيَّاه وجلس معه للدردشة ..

قَصَّ عليه قصة المزل ورسالة قائد الصفصافة، فقطَّبَ (ين) جبينه
متمتماً:

- قائد الصفصافة؟ لا أَظُنُّكَ تَوَدُّ تحديه يا بني، فقد كان الرجل في الماضي أحد أقوى مغاوير الإمبراطور قبل أن يُقتلَ في إحدى المعارك، فنصَّبته الأشباحُ قائداً عليها وصارت تُطيعُهُ طاعةً عمياء..

- ولماذا يسمى بقائد الصفصافة؟

- لن نجد أحداً هنا لا يعلمُ مَقَرَّهُ العتيد، إنما الصفصافة ذات الأعوام المانة، والموجودة عند المنحدر القريب..

شكره (لي)، وقبل أن يغادر سأله:

- هل تعلم الطريقة المثلى لهزيمة شَيْح؟

لا أحد يمكنه الإجابة عن ذلك السؤال سوى الحكيم (بي)..

(بي) الذي اعتزل الناس، وصار ناسكاً يتأملُ في كهفٍ باردٍ، أمضى ليلةً من ليالي أسفاره الطويلة في فندق مهجور مليء بالأشباح، وعندما كان يغطُّ في نومٍ عميقٍ استيقظ إثر سماعه أصواتاً مُروعةً، فوجدَ أربعة أشباحٍ تنظرُ إليه، كان الأول لرجلٍ مات غرقاً، والثاني لقاتلٍ حوكمَ وقُطِعَ رأسه، والثالث لامرأةٍ شَنَقَتْ نفسها، أما الرابع فقد أُحرقَ حتى الموت..

لا أحد يعلم كيف تمكن العجوز الحكيم من التغلب على تلك الأشباح، ولذلك زاره (لي) كي يستفيد من خبرته..

استقبل الحكيم (لي) بحفاوة، وجلسا داخل الكهف أمام نار أشعلها الحكيم كي لا يشعر ضيقه بالبرد القارس، ومن ثم سأل (لي) الحكيم:

- أيها المعلم (بي)، كيف تمكنت من هزيمة الأشباح الأربعة بحق الله؟

أجاب الحكيم (بي) عابثاً بلحيته التي لامست الأرض من شدة طولها:

- بالشجاعة وإظهار اللا مبالة! إذا كنت غير خائف فلن تتمكن الأشباح "كوي" من إيدائك أبداً، فقد أمرتهم بالكف عن الظهور في الفندق في تلك الليلة، وإظهار السلوك الحسن كي ترتاح أرواحهم المعبدة ولو قليلاً، فوافقت الأشباح ثم تلاشت..

- فقط؟

- فقط..

نَهَضَ (لي) مُحيياً الحكيم على الطريقة الصينية التقليدية بضم أصابع اليد اليسرى مع القبضة اليمينية قائلاً باحترام وهو ينحني:

- إنني أنحني لحكمتك وشجاعتك يا معلم، فقد أفدتني كثيراً!

لاحقاً في تلك الليلة، قال (كوان) بنبرة متوترة مُشيراً إلى نقطة ما عند المنحدر:

- لا بُدَّ أنْما الصفصافة التي نبحثُ عنها يا سيدي..

كان (لي) يحملُ القوسَ والنَّشَابَ، وقد وضع سهمًا في وتر القوس استعدادًا منه لأي مواجهةٍ قد تحدثُ بينه وبين الأشباح..

سأل (لي) تابعه بغير اكتراث:

- أنت خائفٌ يا (كوان)؟

- بالطبع أنا خائفٌ!

- يجب ألا تخاف وأنت برفقتي..

فجأةً بزَغَ شيءٌ ما، فصاح (كوان):

- طيفُ رجلٍ يا سيدي!

- لقد رأيته..

وبسرعةٍ، سدَّدَ (لي) سهمَه باتجاه ذلك الطيف الذي أطلق صرخةً مُروعةً قبل أن يتلاشى، فاتَّجها إلى حيث اختفى ليجدا السهم مغرورًا في ثمرة قَرْعٍ!

قال (كوان) متعجبًا وهو يهرشُ جبهته:

- يا للغرابة! الشَّيْخُ أصبحَ ثَمرةً!

- أرايتَ؟ إن الأمر لا يعدو كونه تسليّةً إذا ما تمعَّنتَ بالأمر!

ضحكا قليلاً قبل أن يشير (كوان) إلى آثار أقدام مُتجهة صوب الصفصافة المسكونة، فاتجها إليها ليجدا شبحاً يرتدي ملابس المحاربين القدامى بانتظارهما..

قال الفارس المحارب مُلوّحاً بسيفه عالياً:

- من ذا الذي يجسر على الدنو من شجرة قائد الصفصافة؟

لكن (لي) أخرسه بسهم جعله يتلاشى وهو يُطلق أعتى الصّرخات، ثم دنا من الشجرة وتأملها مُطوّلاً..

قال (لي) لتابعه (كوان) وهو يُتفل في كفيه ويفرّكهما جيداً:

- ناولني الفأس يا (كوان)، فسنكون بحاجة لحطبٍ كثيرٍ في الشتاء للمدفأة!

نهاية الحكاية.. وهي حكاية قد لا تجدُها مُرعبةً إلى ذلك الحد، لكنها أثرت بزغدة التي همست مُرتعدةً وأسنانها تقضم الملاءة:

- إذن، كان قائد الصفصافة هو البُعبع!

ردت عليها مدام (باسينت) ضجرة:

- أجل، لكنه الآن أصبح مجرد ثرة قرع مُتعفنة.. اخلدوا للنوم في عُرفكم الآن..

أما (حلزون) فقد تأثر بالحكاية بصورة عجيبة، وإن لم يُظهر ذلك لأحد..

لم يحدث أن سهر أو نام دون رؤية قائد الصفصافة، وصار يُشاهد اليد الزرقاء تخرج له من كل جدار ونافذة برسالة بين محالها، وقد دُون عليها تهديدٌ بقتله هو شخصيًا! حتى إنه شكَّ بأن لتبريس وعفاريتهَا يدًا بالموضوع!

ولأنه وجد الأمر لا يُطاق، وقد زاد عن حده، فقد طَلَبَ مُلاَقاة (شاهر) في مكتبة المصححة، فلم يتردد الأخير أو يتأخر كديده..

حكى له (حلزون) عن قائد الصفصافة ومطارداته التي لا تتوقف عند حدٍّ..

- "الليلة الماضية بعث لي برسالة تقول إن الليلة عند مُنتصفها سيكون مماتي!"

لم يسخر (شاهر) منه، لم يناقشه حتى.. ظل صامتًا مُنصتًا والفتى المشلول يُواصل حديثه مُرتعدًا:

- أنت الوحيد الذي بإمكانه إنقاذي يا (شاهر)! فأنت الفارس الذي سيقهرُ قائد الصفصافة وأنا تابعك!

- لستَ تابعًا لأحد..

- بل أنا كذلك! بشللي وكرسي اللعين أنا تابع!

وتراجع بكرسيه هامسًا:

- لا أريد أن أموت!

رَمَقَه (شاهر) بصمْتٍ، ثم فُضْ لُيرِبَتَ على كَتِفِهِ..

وظَلَّ (حلزون) على حال سيئة طيلة اليوم، يُراقِبُ بأسَى جمال
(ناردين) وطيبة (أزوريت) وحمق آنسات "نادي الحافيات"، وبحثَ
(راهب) الغموم عن الكائنات الفضائية..

زار (لؤلؤة) بعد أخذ إذن من (ضارية)، فتحدّثَ معها لساعة
أضحكها خلالها، قبل دخول (ضارية) وأمرها له بالخروج لأنه أهلكها
كثيرًا، وأثناء عودته إلى غرفته التقى براهب وخودته العجيبة، فقال له
باسمًا:

- جَرَّبَ التخاطبَ مع الكائنات الفضائية بالموسيقى الهادئة، فهي
لا تعرف لغةً غير هذه!

وفي غرفته وعند انتصاف الليل، سَمِعَ (حلزون) طُرقاتِ خافته
على بابه، فتحرك بكرسيه صوبه وفتحها، فلم يجد أحدًا..

خَرَجَ لِلْمَرَّةِ مُغَالِبًا جُبْنَهُ، وبأسنانٍ مُصطكةٍ تَتَمَّ لنفسه:

- إذا كان لا بُدَّ من الموت فلأمتَّ بماءِ الوجهِ إذن!

وفجأةً، لَمَحَ ظِلًّا يركُضُ باتجاه المكتبة، فلاحقَ به وقلبه يَخْفُقُ بعنفٍ
يكاد يسمعه بأذنيه، ووجد الباب شِبَّةَ مُوارِبٍ والضوء آتٍ منه،
فابتلعَ ريقَه مُتحرِّكًا ببطءٍ للدخول..

وجد فوزى في قسم كتب الأساطير والحُرَافَات، ومن بين الأرفف
تمكَّن من رؤية يد المسخ الخارجة ذات الزرقة المروعة والمخالب
السود الحادة، فأطلق أعنى صرخاته:

- التَّجْدَة يا (شاهر)!

بُوغِتَ بشاهر يقتحم المكان بالفعل! والأغرب من هذا كله أنه
كان مُتسلِّحًا بقوس ونشاب صوبَهما بسرعة باتجاه يَدِ الْمَسْخِ، ثم
وبدَقَّةٍ أطلق سَهْمَهُ لِيَسْتَقِرَّ في اليد المتوارية بين الأرفف!

ثم وكأن الزمن صار يتحرك ببطء، مضى (شاهر) نحو السَّهْمِ
البارز ساحبًا إياه من بين الكتب المبعثرة في الأرفف، ففوجئ (حلزون)
به مُنغرسًا بثمرة قَرَع!

نزع (شاهر) السَّهْمَ من الثمرة، وقذفها بحِفَّةٍ قبل تَلْقُفِهَا قَائِلًا
لحلزون ببسمةٍ عذبة:

- إن الأمر لا يعدو كونه تسليةً إذا ما تمعَّنت بالأمر!

8

تَقُولُ الْأُغْنِيَةُ السَّيِّئَةُ:

"إِذَا أَحْبَبْتُكَ فَلَا تَحْبِبْنِي.."

لَا تَصْنَعِ الْمِثْلَ فَأَنَا أُرِيدُ كِرَاهِيَتَكَ!

حُبُّكَ صَنَعَ الْخَيْرَ فِي نَفْسِي..

وَالشَّرُّ نَاقِصٌ، أَكْمَلُهُ مِنْ غَرَائِزِكَ!"

لكنها بصوت (خرير) الرائع تتحول إلى مقطوعة موسيقية تَطْرَبُ
لها الْآذَانُ، فإذا ما غنتها حتى أمام (باسنت) تصمت الأخيرة
مستمتعة!

ولكن لمن تغني (خرير)؟ ومن تقصد بتلك الكلمات المنفرة؟

لطالما أخفت ذات العقيرة الملائكية إعجابًا خفيًا بأمير المصحة
الجميل، فعندما يظهر (داهوت) بحضرة مقلتيه وشعره الأشقر تبدأ
(خرير) الغناء بصوتٍ خافتٍ مُراقِبَةٍ خُطواتِهِ، تضحكُ لضحكِهِ،
وتعبسُ لعبوسِهِ، وتسخطُ لسخطِهِ..

كانت تتصرف كزوجةٍ مُطيعَةٍ له بالخفاء، حلمت به أكثر الليالي
وهو يُقبلُها، ثم حلمت به يقبل سواها، وقد كانت (ذهب) هي أقوى
المرشحات لنيل قلبه، فالفتاة تتمتع بفتنةٍ مغيظةٍ كما لو كانت عارضة
أزياء من اللواتي رأت صورهنَّ في المجلات النسائية، أما عنها فجمالها
لا بأسَ به، تَقْطِيبُهَا جَذَابَةٌ، لكن أنفها مُقلطح قليلًا، وعندما تطالع
نفسها في المرآة، تصطدم دومًا بأنفها، فتتمتمُ عابسةً:

- لن يُعجبُ بي طالما وجهي يحمل هذه الأضحوكة!

سُرْتُ حين أعلن (داهوت) ذات مرة ألا صوت يضاهي صوتها،
رقصت بانتشاء في غرفتها حتى أعيأها التعب، ونامت حاملةً بشقي
أحلام الرومانسية الوردية.. رَأَتْهُ يَقْطِفُ وردةً ويدسُّها وراء أذنها، ثم
يبدأ بتقبيلها حتى تستسلم بين ذراعيه وتستكين، وحين تستيقظ
تقبض جيدها بأسى لأن الواقع مختلف..

لم تكن علاقتها وثيقة بالفتيات، كانت تُراهنَّ خصوصًا غدارات لا
تُجدي الصداقةَ معهنَّ نفعًا، بل إن ضررها أكبرُ من نفعها، كانت
تفكر دائمًا بحبيبتها الذي وقعت في هواه مذ ولج المصحة للخلاص من
عذاب الإدمان..

ربما حادثت (قبرة) البدينة قليلاً، فهي بلهاء نَهْمَةٌ للطعام لا
خُطورة منها، كان هذا قبل أن تستكينَ يوماً في غرفتها مُفَكِّرةً:
ولكن ماذا لو كان ذوقه يميلُ إلى البدينات البلهائوات محبات الطعام؟

هكذا نبذتها هي الأخرى!

كانت تُغني لأزوريت كثيراً منتظرة سماع السؤال، حتى التقطته
أذناها أخيراً..

- "مَنْ تقصدين بتلك الكلمات العجيبة يا حبيبي؟"

كفَّت (خريز) عن الغناء، وبخجلٍ قالت كلمة واحدة.. اسماً لم
تندم على نطقه:

- (داهوت)!

رمقتها (أزوريت) بنظرة ارتباك، وبضحكة قَلِيلةٍ تمتعت:

- آه.. محبوب الفتيات الأول! ألم تجدي غيره؟

عبارة متناقضة غريبة، سببت قلقاً داخلياً للفتاة.. ماذا قصدت
تلك المرأة؟ أتكون هي الأخرى مُولَّعةً بالفق؟ إنها أكبر منه بكثير،
كما أنها متزوجة!

وظلَّت مُوسوسةً بالفكرة حتى قرَّرتْ بُذْها بادئ الأمر، ثم
استعادت رباطة جأشها مُقرَّرةً التَّصرفَ بدهاءٍ..

كانت كالجمل لا ينسى أبداً، فتأكدت من أن أسبوعاً سيكون
كافياً وأكثر لنسيان ما جرى بينهما، ثم زارها في غرفتها، وغنت لها
قليلاً حتى صفا الجو لها تماماً..

بعينين مسبلتين وابتسامة هادئة تساءلت (خريز):

- ما رأيك بصغير؟

- الله! ما أجهل الحب!

فكرت (خريز) قليلاً والغيظُ يملأ كيافها.. إذا كانت هذه المرأة
تحبُّ (داهوت) فلن تعترف لها بذلك أبداً، كما أنها تعلمُ بمشكلة
(صغير) الأحمق ومع هذا لم تذكرها!

إذن، هي تحاول إقصاءها عن ذُرْبِها، لكن هيهات!

تظاهرت باللامبالاة وهي تُراقبُ كلَّ خَلْجَةٍ من خَلْجَاتِ
(أزوريت)..

- "وجدتُ (داهوت) واقفاً بهوى أخرى فتنحيْتُ.."

ضحكت (أزوريت) قائلةً ببلاهة:

- مسكينة (ناردين)! الفتي يُطارِدُها كظَلِّها وهي لا تكفُّ عن
التذمُّر!

اتسعت عينا (خريز) بظفرٍ وغضبٍ، فقد وجدت غريمَها الخفية
أخيراً!

صارت تُظهرُ برودةَ تجاهِ ألطفِ فتياتِ المصحّةِ، وأحياناً تُوَقِّعُ لها
طعامَها أو تُوَعِّرُ صَدْرَ (وجيهة) عليها.. من الذي كَسَرَ الطبق؟
(ناردين) كسرتَه! من الذي لَطَّخَ مَفْرَشَ المائدةِ بِبُقعِ الحساء؟ (ناردين)
لَطَّختَه!

لم تعاقِبْ (وجيهة) (ناردين) سوى مرةٍ واحدةٍ، ولكن عندما انْهال
سيلُ الاتِّهاماتِ على رأسِ الفتاةِ التي تتقنُ فعلَ كلِّ شيءٍ شكَّتِ المرأةُ
الأزبيةَ بالأمرِ، فقالت في يومٍ لناردين التي كانت تُساعدُها في الجلي:

- ارى أن تحلي المشكلة - أيما كانت - بينك وبين (خريز)..
الفتاةُ لا تنفكُ تكيلُ لكِ اتِّهاماتٍ باطلةً، ولا شيءَ أسوأ من حَقْدِ فتاةٍ
على أخرى!

9

أعجبتُ مدام (باسينت) بالمرضى الأشقر مُذْ وَقَعَ بصرُها عليه
للهولة الأولى، فقد كان حَسَنَ التقاسيم، نُصِرَ البشرة رغم قُدَّارة
ثيابه، كما أنه الوحيد الأشقر وبعين زبرجديتين..

عند اللهو يصير الأمرُ الناهي، ووقت الأكل ينالُ نصيب الأسد،
فأغلب الفتيات يتنازلن له عن قِطْعِ البسكويت الذي يحبه..

كان زَيرَ نساءٍ مأكراً، غالباً ما يفتنم الفرصة لتقبيل هذه أو تلك،
حتى إنه في مرةٍ وعندما استوثق من حُبِّ الفتاة (خريز) ذات الصوت
العذب له، وعدّها بقبلةٍ ما إذا ما تجرّدت من ثيابها واضطجعت أمامه
كما ولدقّا أمها!

لم تصنع كما أمر، وولت مُنتحبةً إلى الحمام، فلاحقَ بها وقلبه يرتعد
من وشايتها للمُشرقة الصارمة في مثل هذه الأمور، وعلى الباب الذي
أوصدته على نفسها هَمَسَ لها بنعومة ثعبان:

- هَلَمْيَ يا حلوة.. أنا أُمَازحك فقط! أنتِ لن تفسدي صداقة
جميلة بسبب مُزحةٍ سَخيفة.. أليس كذلك؟

وعندما سَأَمَ من استجابتها رَكَلَ الباب بقسوةٍ، وابتعدَ ولسانه
أخذَ بكيل الشتائم المُقدعة..

أثناء خروجه يفاجأ بشاهر، فلا يحاول إغاضته أو اعتراض سبيله،
بكره ذليل يطأطي رأسه وعقله يصرخ كبركان ثائر:

- "لو أن لي مثل قوتك وسطوتك لأشبعُك ضرباً حتى تخضع
لي!"

ومع الشلة التي لا يجمع بينها سوى كراهية ذاك المدعو (شاهر)،
يُجالِسُ الأمير الجميل - مضطراً - أقبح مريضين، (ثؤلول) بثأليه،
(بلجة) بندبته التي تصنعُ مسافةً بين حاجبيه..

فيما عداهما كان هواهُ لدى الفتيات، يُغازِلُ هذه ويقرصُ تلك،
أحياناً يَلْقَى استجابةً وأحياناً لا يَجِدُ إلا الصَّمْتَ الخجول..

وعندما نُبِّههُ فؤاده لضآلته أخيراً، وَجَدَ أن لا أصلحَ له مِنْ تلك
الحورية اللطيفة المُسماة (ناردين)..

كانت أول صفة ينالها في حياته من يدها، فاستشاط غضباً حتى
كاد أن يضربها لولا أن فوجئ بقبضة صارمة تُكبل له يده..

كانت قبضة (شاهر) الذي سأله بحزم:

- أتودُّ ضرب فتاة؟

- إليك عني!

- ليسَ قبلَ أن تعتذر..

وهنا أتى (داهوت) بأجراً فعلة في تاريخه المخزي، فقد بصق في
وجه (شاهر) الذي تفادىها بسرعة وبقطة، حاول الخائب ركله بلؤم
في ساقه، ثم حاول قبض مواضعه الحساسة لهرسها بقبضته.. كان
يحاول القتال بشراسة مُخنث يكاد يقع ضحية للاغتصاب، ولم تُجد
محاولاته نفعا مع (شاهر).. كل ضربة ومحاولة إيذاء لم تجد سبيلها إلى
بدنه، فقد كان يُبعد هجماته براحة كفّه اللامبالية كأنها تذبذب الذباب
فحسب!

وفي النهاية، لوى (شاهر) ذراعه وأجبره على الركوع قائلاً له
بخشونة:

- قلتُ اعتذراً!

صرخ (داهوت) متألماً:

- أعتذر!

- أعلى!

- اعتذراً!

فأطلق سراحه، وتركه يعصي والدَّمْعُ يكاد يطفح من عينيه
الجميلتين، واعدًا نفسه بالانتقام من (شاهر)..
ذات مرة، كان (شاهر) يتمشى برفقة (سرعوب) في الحديقة،
عندما أزاحه جانباً وهو يهتف:

- احترس!

ثم التفتا معاً إلى جذع الشجرة وراءهما، فبين لهما سهمٌ خشبيٌّ
صغيرٌ الحجمٌ مغروراً في اللحاء!

تمتم (سرعوب) بتقاسيم كالحية:

- أحدهم حاول قَتْلَكَ! كان يستهدفك أنت!

عبَسَ (شاهر) مُنزعجاً السهم الضئيل الذي أُطلقَ من سلاح ما،
قدَّفه في الهواء قَبْلَ مُعاودته التقاطه هامساً بغم:

- أترأه هو؟

- هو مَنْ؟

- لا عليك..

يومَ حفلٍ ما قبل زفاف (أزوريت)، ارتدى الأمير بذلة سوداء وربطة عنق قرمزية ذات دبوس مذهب على شكل وردة، ومشط شعره للوراء، ثم دسَّ منديلًا طواه بعناية في جيب البدلة الأنيقة العلوي، ووضع في الأكمام أزرارًا ذهبية منقوشة، فصار نجم الحفل بلا منازع بين الذكور..

ورغم أن (ذهب) كانت نجمته، فإن بصره لم يتحزح عن جمال (ناردين)، التي رفلت في ثوب أفتحواني التصق بقوامها المتناسق التصاقًا، وقد وضعت على كتفيها العاريتين شالًا حريريًا شفافًا ذا زُرقة سماوية، وعَقَصَتْ شَعْرَهَا كملكات فرنسا القديمات، فألهبت مُخيلته وبشدة، وظلَّ يُطارِدُها طيلةَ الحفل رافضًا إلقاء نظرة على الأخريات اللواتي بالغنَّ في تأثُّقهن وإبراز أنوثتهن..

وجدها واقفة تحدثُ (شاهر) وتضحك، فاربدت سِحتته.. كانت مُستندة للجدار، وتماثُ بصرها بملاحه القوية، وانزعج لما قبلت منه كأس العصير التي قدمها لها..

جلس شاعرًا بذوبان بين ثناياه، وتردَّدت تأوُّهاتُ حسرةٍ في داخله مُسترجعًا تفاصيل أنوثتها المبكرة وجمالها الذي خَلَبَ الأبواب..

دنت منه (خريز) مُتسائلةً والحُمرة تقطر من وجهها:

- أترافصني؟

- أنا.. مُرهقاً!

ابتعدت بفؤاد كسير كالعادة، فتسّم الفتى شامتاً ووجهه مرفوع قليلاً للسقف..

- "تبدو مرعجاً.."

عدّل رأسه للأمام، فوقَ بصره على (غصون) وقد ارتدت فستاتاً أرجوانياً تبرز من جانبيه السفليين سقاها الناصعتان ذواتا التناسق البارع، فحركت شيئاً في نفسه أخيراً، ونهضَ ليهمسَ في أذنها، ثم تحرك مُبتعداً وهي تُلاحقه ببطء، كانَ متشوّقاً ومحاوِلاً ألا تُهرع وراءه فتلفت الأنظار إليهما..

في المصححة تصرف (داهوت) كامير حقيقي، فكان يطلبُ امتطاء "عداء الصحراء"، وعندما يفعل يُلهبُ ظهره بالسوط وهو يضحك متجاهلاً صُراخ (جروح) وتوسلاتها ألا يؤذي الجواد أكثر من ذلك، ولم يوقفه سوى تدخل صارمٍ من صوتٍ لطالما خشيَ صاحبه ومقتته:

- "كفّ عن ضرب الحصان!"

رمقه (داهوت) بنظراتٍ مُستهينةٍ من فوق الحصان قبل قوله:

- وماذا لو رفضتُ؟

- عندها أرميك من فوقه..

- لن تجرؤ، وسأفعلُ ما أشاء، فهو حصاني!

- لم تترك لي خياراً..

هكذا، وثبَّ (شاهر) من فوق الحاجز الخشبي مادًّا ذراعه صوب
الأمير الجميل، فرفَّع الأخير ذراعه، وبكل قوته هَوَى بالسوط على
وجه (شاهر) صارخًا والغضب يذيب خلایا مُنَّه تَذوِيبًا:

- يا جربوع! يا حيوان!

أمسك (شاهر) به وبالسوط، وقذفه من فوق الحصان ليطرحه
أرضًا وهو يقول متهمكًا:

- لقد عرفتُ أصلَكَ أخيرًا، لا بُدُّ أن والدك كان إقطاعيًّا من
الأتراك الذين يجلدون الفلاحين بسياطهم دائمًا!

10

إذا كان (داهوت) هو "الأمير الجميل"، فذهب هي حتمًا "الأميرة الجميلة" ..

أي كلمات تُعطي فتنَّها وأنوثتها حقهما الكاملين؟ كانت ذات شُقرة ذهبية، مُحياها حمريًا لذيذًا، حسدُها كل الفتيات على شفتيها الناضجتين، وصدرها المُمتلئ، وقوامها المثني ببراعة، وحسدُها أكثر على زُرقة اغيط في عينيها الواسعتين الثملتين قليلًا ..

حتى أيام الإدمان كانت تُعنى بصفاء بشرتها، فتستحمُّ يوميًا مرتدية الشيء الوحيد الثمين الذي امتلكته مذ ولجت المصحة، قلادتها الذهبية ذات نقش الدولفين، فلم تكن تُفارقُ جيدها ألبتة، في النوم، وفي الحمام، وفي كل الأوقات لم تخلعها بتاتًا ..

ارتدت أجهل الفساتين والتنانير دوماً، وسرى عبق المسك من جسمها كلما دخلت أو خرجت، وعندما تفعل تطالعها النظرات بنهم ذاهل وحسرة مؤلمة، حتى إن (شبابه) صفرت مرة عندما وقع بصرها عليها قائلة بإعجاب:

- علامَ توحّمت والدُك يا فتاة؟ فراولة بمخفوق الكريمة؟

كانت من اللواتي يثقن بأنفسهن ثقة عمياء، جمالها من النوع الذي تفتتح له السبل بكل تأكيد، لكن طموحها لم يكن غير عادي...

كانت تطمح لحب من فتى معين لفت اهتمامها مذ ولجت المصححة، الوحيد الذي لم يسل له لعاب أو تجحظ له نظرات لدى رؤيتها، ولأن السهل الممتنع يتمتع بثقة ثمائل ثقّتها فقد رصّده هدفًا لها..

لم تسلم طبعًا من تحرّشات (داهوت) بها، لكنها أعرضت عنه ولم تستجب له، فقد تبدّى في ناظرها كائنًا جميلًا فارغًا إلا من السُخف، ربما كفتاة مُتصاية مثل (شبابه)، حتى (ضاربة) تتحلى بصفات ذكورية بأكثر منه!

حوّلت غرفتها بعون من الفتيات المتحمسات إلى غرفة من الطراز الفيكتوري، وتسوّقت مع (أزوريت) لشراء قمصان نوم مُريجة وفساتين على الموضة باهظة الثمن، واشترت أقراطاً لؤلؤية لأنها

وجدتها مناسبة لأذنيها أكثر، ولم تتبع أساور أو خواتم لأنها كانت تراها ذات فُحٍ شَعبيٍّ على الفتاة..

كانت العيون تصبو إليها فتياناً وفتيات، الفتيان يرمقونها بعيون نَهْمَةٍ أَمَلَةٍ بالارتواء من كنوز جسمها، والفتيات يطمحن لأن يصرن أفضل صديقاتها، فقررت إيجاد وسيلة جيدة ومُسلية لتخير الأنسب لها من بينهما..

هكذا، قامت ذات يوم بخلع حذاءيها، وصالت وجالت حافية القدمين بتبخرٍ لافتٍ للأنظار، واجتمعت بها الفتيات مُتَسَائِلَاتٍ عن السبب بفضول..

فرفعت إصبعاً قائلة بلا مبالاة كي تزيد من شُعلة حماستهن:

- لقد استحققتُ سيادة نادي "الآنسات الحافيات" عن جدارة!

وبالطبع أردن معرفة المزيد، فتبسَّمت قائلة بتكاسلٍ عَذْبٍ:

- بكل بساطة طبقتُ الشُّعار لأصير عضوة وقائدة بالنادي..

وانتِ بِإمكانك الانضمام، ومعناه دُخُولُك - بشكلٍ رسمي -

غُرُفتي دوغما دعوة كي نقوم بأنشطة خاصة!

تساءلن عن شروط الالتحاق بناديهما المزعوم وهن يحلُمن بدخول

غُرُفتهما الجميلة المُعطرة لرؤية الفساتين والحُلِيِّ، فغمغمت بمكر:

- بسيطة، كل رغبة بالانضمام للنادي عليها بداية أن تتحلّى عن
حذاءيها!

وفي ثوانٍ صارت غالبية الفتيات مُجرداتٍ من الأحذية، فتبسّمت
بخفوتٍ هامسةٍ بدهاءٍ:

- ليس الأمر بتلك السهولة التي تتصورنها.. ثم على الفتاة أن
تضع قدمًا حافيةً على صدر فتى وتُردّد: "باسم عضوات النادي
الجميلات أعلّئك حارسًا لي!"

وعندئذٍ، سارع أكثرهنّ إلى انتعال أحذيتهن والابتعاد خجالاتٍ،
كانت (قبرة) المدينة من بينهن، لكنها ابتعدت وكأنها تزحف، إذ بدا
وكانها تريد البقاء لولا ألسنتهن السليطة، إلا (ظلال)، و(غصون)
اللتان تساءلتا بوجهين مخضيين بمُحمة الحجل:

- إذن فقد فعلت ذلك مع فتى ما؟ من تراه يكون؟

رفعت رأسها مزهوةً مُجيبةً:

- بالطبع فعلت.. فعلتها مع (شاهر)!

وافقت الفتاتان على تنفيذ الأمر على مَضضٍ، لم يكن الجمال
ينقصُ واحدةً منهما، وإنما الجرأة التي تتحلّى بها قائدة النادي
العجيب..

وهكذا، عكفت (ذهب) على مُراقبة المرشحين لنيل عُضوية النادي، مُشترطةً عليهما القيام بالشرط الأساسي أمامها كي لا يكون ثمة مجال للخداع..

و ذات يوم، دنت منها (ظلال) قائلةً ببساطة:

- أنا مُستعدة..

واقترادتها إلى غرفة المعيشة حيث رقد (بلجة) وابتسامةً بلهاء تعلو وجهه!

اقتربنا منه، وبكل بساطة وضعت الفتاة قَدَمَها العارية على صدره مُغممةً بثقة:

- باسم عُضوات النادي الجميلات أُعلنُك حارساً لي!

صَفَقَتْ (ذهب) جَذْلَةً وهي تقول مُهَنَّةً بِمَكْر:

- قَبْلُكَ عُضْوَةٌ بالنادي!

قَهَّلَ وجه (ظلال) أَيْمًا قَهْلًا، في حين، تساءل (بلجة) مُواصلاً التبسُّم الأبله:

- أهذا كل شيء؟

صارت (ظلال) العُضْوَةُ الأولى في نادٍ بدا كعالمٍ ورديٍّ مثاليٍّ، فالغرفة لا أروع منها، والفساتين لا أجمل منها كذلك، بإمكانها استعارة ما تشاء من الحلبي والثياب، بل أن تحظى بتصفيف شعرها لأن قائدة النادي تملك الموهبة..

تبدّت (ظلال) آية في الحسن بعدما كانت مجرد فتاة عادية لا تثير
الطموح كثيراً - اللهم إلا طموح بلجة-، ثم دفع (غصون) إلى اتخاذ
قرار سريع وإجراء أسرع..

هكذا، فاجأت (ذهب) يوماً بجلبها الأمير الجميل، شخصياً!
وبنظرة متحدية رَمَقَتْ (ظلال) الذاهلة قائلة بشيء من الشماتة:

- جئت لتأدية القسم!

كانت قدماها عاريتين، فنظرت (ذهب) إلى (داهوت) وسألته:

- أُمستعدُّ حقاً لتنفيذ ما طَلَبْتُ منك؟

ردّ مُستهيناً وهو يعضغ قطعة علكة:

- مُستعدُّ بفعل أيّ شيء لأجل (غصون) الجميلة! ثم إن الأمر
سيكون مُسلماً!

وهكذا صارت (غصون) هي الأخرى عُضوة في نادي "الآنسات
الخافيات"!

تحولت (ذهب) لأميرة حقيقية، وقد أعجبت (وجيهة) بتصرفاتها
حتى أعلنت أمامها وأمام مديرتها (باسينت) ذات مرة أن (ذهب) فتاة
تستحق كل ثناء وتقدير، فهي تتصرف كسيدة مُحترمة!

كان هذا في النهار فقط، ولكن عندما يحلُّ الليل، تبدأ اجتماعات النادي السرية، فتخلع الفتيات أحذيتهم، ويتقلن بأقدام حافيات في الممرات مع وضع قاعدة جديدة وصارمة: ألا تراكن (وجيهة) أبدًا!

في الدروس أظهرت (ذهب) تفوقًا مثيرًا للاهتمام، حتى أنها نافست (ناردين) الذكية، وقد كرست أكثر الوقت لتعلم اللغة الفرنسية، فقد كانت مُعجبة بالفرنسيات ورقّة لُغتهنَّ وجمال ثيابهنَّ وعَبَقِ عُطورهنَّ، فقررت أن تصبح مثلهنَّ، وبالتالي صار ذلك شرط النادي الجديد...

في حين قال لها (داهوت) بتهكمٍ لما تنهى لمسامعها ما تنوي فعله:

- لكن الأنسات الفرنسيات ينتعلن أحذيتهنَّ!

قالها رغم استمتاعه بمراقبة أقدامهن الدقيقات البيض، وهي تخطو برقة الفراشات على الأزهار فوق البلاط البارد...

ولم تكثر (ذهب) لما قاله، فهي تعلم مدى استمتاعه المريض بمراقبة أقدامهن عاريات، وتعلم استمتاعه أكثر بمراقبة (ناردين) وهي تصنعُ أيَّ شيء!

كما أنها تعلم مدى تعلُّق (خيرير) به!

11

في صغره، كان (راهب) صبيًا عاديًا يحبُّ العُرلة إلى حدِّ ما، لكنه لم يُبدِ حُبًّا ولا حُمقًا في أي شيء...

ثم وقعت الطامةُ الكبرى في المصححة، عندما وافقت (باسينت) أخيرًا على مطلب (أزوريت) باصطحابه معها للسينما كي يشاهد فيلم خيال علمي يتحدثُ عن غزو أهل الفضاء لسكان الأرض بأطباقهم الطائرة العملاقة..

كانت المؤثراتُ مُقنعة، مُقنعة زيادة عن اللازم، فاختلط الواقع بالخيال في عقل الفتى، حتى إنه ردَّد عندما خرج من دار العرض:

- إنهم يصلون ويجولون بيننا ونحن صمُّ بكم!

ثم ابتدأت اللعنة.. صار (راهب) صاحب فكر بعيد كل البعد عن الواقع، حلم بكائنات ذات جماجم كالبطيخ وعيون وثغور مشقوقة طولياً كالعفاريت، مُبَايَنة اللون ما بين الأزرق والأخضر، أجسامها رفيعة، وتمتلك ثلاثة أصابع طويلة في كل يدٍ وقدم!

ثم واصلَ سخافاتهِ مُدْعياً أنه أبصر طبقاً طائرًا فوق سطح المصححة، فضحك (بلجة) منه قائلًا باستهزاء:

- إنه لا يُفَرِّقُ بين الطبق الطائر وطبق "الدش"!

ويقصد "الدش" الكائن فوق سطح غرفة الحارس (هدهد)!

لكنه أصرَّ على أن الطبق الذي رآه يعرض ملعب كرة قدم، وبأنه مصنوعٌ من الفضة الخالصة، ولما سخروا منه وسألوه عن كُنه الكائن الفضائي الذي يعرف الفضة، أجابهم بإصرار أن الفضة ليس معدنًا أرضيًا..

اعتكف في غرفته مُطالِعًا الكتب المُستعارة من (حلزون) ، والتي تتحدث عن الاجتياح الفضائي، قرأ كُتُبًا عن التسليح الأمريكي بصفته الأكثر تطورًا، وعندما فرغ من مطالعة كُتبه وَقَفَ مُتَمَتِّمًا في قلق:

- لا يكفي! لا يكفي!

صَدَّقَ كل الأقاويل عن روزويل، وصدق كل الإشاعات المُتَرَدِّدة حول حقول الذرة ذات الإشارات المتروكة من سكان العالم الخارجي.. باختصارٍ، صَدَّقَ كل ما يمتُّ بصلةٍ للعوالم الخارجية..

يظن (راهب) أن المخلوقات المسألة تحاول تحذيرهم من تلك الطاغية التي أرسلت منذ أعوام مديدة كشافتها لرؤية ما إذا كانت الأرض تصلح للغزو أم لا، ويعتقد أن مُدَّة الكشافة قد انتهت..

- "ولم يتبقَّ إلا موافقة مجلس المخلوقات البلدي على عملية الغزو!"

بالطبع لم يكبح (حلزون) جماح سِخريته واستكباره بآنٍ واحدٍ عندما زاره (راهب) طالبًا المشورة، ومُرجعًا إليه بعض الكتب التي استعارها..

وجد أن المناقشات العلمية لن تُنقذ الأرض، فعمد إلى تصميم خُوذة ذات مصباح وراديو، وحمل التخطيط إلى (صغير) الذي يُتقن صناعة اللعب والدُمى الميكانيكية وتفكيكها وإصلاحها، طالبًا منه أن يصنع له واحدة..

قام (صغير) بالمهمة على أكمل وجه، فصار (راهب) يخرج في جولات ليليةٍ ومعه كشافٌ باحثًا عن أثر تشويشٍ في الراديو المفتوح والمُعلّق فوق خوذته، لأنها إشارات تبشئ الكائنات إذا كانت قريبة، وكلما وقع تشويشٌ في المخططة، زاد توثره وانفعاله..

وظلَّ على عادته البلهاء زمناً، حتى عاودَ زيارة (صغير) حاملاً تصميمًا أعقد لجهازٍ أغرب، وبثقةٍ لا مُتناهيةٍ قال له:

- هذه المرة سأؤمن لكم جميعاً الحماية بسلاحي هذا!
- هذه الخردة قد تستغرق مني وقتاً وأنا مشغول هذه الأيام..
- العالمُ لن ينتظر!
- سينتظر، ثق بي!

ولما فرغ (صفيح) من السلاح، باشر (راهب) وبهمة جَوَلاته مُتسلحاً بخوذته والمذيع والكشاف، وجهازٍ مُضحكٍ يُشابهُ الكنيسةَ الكهربائية!

حدث ذات مرة أن شكَّ بتبريس على ألما كائن فضائي، ولم يكن الأحمق يفرق بين فضائي وجني، وابتدع نظرية سخيفة بأن الجان ما هم إلا مخلوقات فضائية شريرة تُمهّد لغزو الأرض، وبأن كل المخرجين العباقر الذين صنعوا أفلاماً مُروّعة عن غزاة الفضاء ما هم إلا رُسُل التحذير من الدمار الذي سيحلُّ بالأرض إذا ما وقف البشرُ مكتوفي الأيدي..

كانت (تبريس) تتجولُ بتمائمها، و(زغدة) هرباً من بُعبعها، و(راهب) بحثاً عن غزاة الأرض..

تقول (وجيهة) باستنكارٍ ساخط:

- صارت مَمَراتُ المصححة عَجَباً عَجَاباً! كل من هبَّ ودَبَّ يسرُحُ فيها ويمرُحُ، وكأننا في مصححةٍ للمجانين لا للمُدمنين!

كانت على حق، فالأمر بات غير مُحتمل، لكن (أزوريت) لم تبال كثيراً بما يقع، و(باسينت) اعتبرت ما يقع من الطرائف، كما أنها مشغولة! المرضى أخذوا راحتهم تماماً في كل الأمور التي لم يجروا على صنعها في بدايات قدومهم هنا!

وفي ليلة ذات بدرٍ مُكتمل، خرج (راهب) باحثاً عن الغزاة، فأبصرَ واحداً منهم خارجاً من غرفة (صغير) صانع اللعب ليتمشى في الممر!

كان الغازي قويّ البنية، ممشوق القَد، وقد ارتدى سُرّة جلدية سوداء فوق قميص كحلي، وبنطال "جيز" رمادياً!

ولأنه يشارك (هدهد) الحارس غرفة نومه باختياره وبتشجيع من (باسينت) شخصياً لأسباب مجهولة، راقب ذلك الكائن المقتنع بغشاء بشريّ وسيم وبنية أرضية مأكرة، فوجد يده اليمنى كفاً مسخية زرقاء ذات مخالب سوداء مُروعة!

حمل في اليد الأخرى ثمرة قرع، فتفكر (راهب) ملياً، لا بُد أن لثمار القرع قوة ما، مصدر طاقة مثلاً!

تبع الكائن - الذي ظهر على حقيقته - حتى توقف عندما ولج ذلك الكائن المزعوم المكتبة..

ثم عاد (راهب) إلى غرفته وهو يرتجف فرقا.. إن (شاهر) هو حتماً كائن فضائي مُدمر.. تلك حقيقة لا مجال لدخضها!

12

- "سَيَقْتُلْنِي الْبُيُوعُ! سَيَقْتُلْنِي!"

يستيقظ الجميع، ويخرجون من عُرفهم وآثار النعاس في حَذَقَاتِ أعينهم، والتأوُّبُ عِلاَءُ أفواههم.. وَهَرَعُ مدام (باسينت) لرؤية ما هنالك، فيقع بصرها على (زعدة) تنشجُ صارخةً وفرائصها ترتعدُ:

- الغول! الغول!

تصدرُ أكثر الأصوات ساخرةً وأحياناً مرعبةً كي يزيدوا من هلعِها، في حين يشتمُّها البعضُ مطالبين (باسينت) بنقلها إلى قبوِّ إن وجد كي يتمكنوا من التَّوَمِّ بِسَلامٍ..

بدت السيطرةُ على البنتِ الرعيدةِ شِبْهَ مستحيلَةٍ، فاضطرت (باسينت) لأخذها كي تنامَ في عُرفِها..

- "إلى غرفة ماما!"

يصيح (بلجة) ساخرًا، لكن (زغدة) هُداً أخيراً لأنها مُتيقنةٌ من أن الوحيدة التي بإمكانها قَهْرُ وحوش كوايسها هي مدام (باسينت) حتمًا!

ولكن، مَنْ يقهر الوحوش عندما تصيرُ وحيدةً مُجددًا؟

الحق يقال إن (باسينت) قد تَمادتُ قليلًا في أمر (زغدة) لاحقًا، فقد اختارت لها غرفةً بعيدةً كل البُعدِ عن غرفتها كي لا ترعجها بصياحها المُستمرَّ كُلَّ ليلةٍ..

ثم صارت تتساءل: أئمة غرفةً عازلةً للصوت؟ عندما أخبرتها (وجيهة) أن تلك الغرفة موجودةٌ حقًا، نُقلت الفتاة المسكينة إليها!

قد يكون قرارًا سليمًا وقد لا يكون، المهم أنه أراح الجميع وزاد من عذاب (زغدة) البائسة، فصارت تركضُ خارجةً من الغرفة كل ليلة لتضمُّ إلى ركب المخبولين الذين يجوبون ممرات المصححة بدُماهم الميكانيكية، وتماثمهم السَّحرية، وأسلحتهم غير الفعالة ضد الكائنات الفضائية!

كانت تجربة الحب الوحيدة في حياتها - إذا ما كانت كذلك - قد جاءتها من طرفٍ واحدٍ، فقد تعلَّق (ثُولول) بها، كانت فتاة ذات قوام شبيهٍ ناضجٍ رغم الهُزال الملحوظ في وجنتيها، ذات شعرٍ تعقده على

شكل صَفيرة ظريفة دوماً، لها تَمَشَّ خفيفٌ جَذَابٌ على أُرنيةِ أنفِها، وهي نظيفةٌ على الدَّوام، تستحمُّ ثلاثَ أو أربعَ مراتٍ يومياً، وفي أيام تَظَلُّ مُستَلْقِيَةً ساعاتَ طَوَالٍ في بانيو مليءٍ بالماء الساخن، فكانت رانحتها تَحْلُبُ الألبابَ طَوَالِ الوقتِ..

كان حُبًّا من طرفٍ واحدٍ بكل تأكيد، فالتقى بشعٍ بثأليه القابلة للتقشُّح في أية لحظة، كما أنه غدا كُبُيعٍ آخر من تلك التي ملأت كوابيسها، وعندما يدنو منها مُحاولاً التودُّد لها تُسَارِعُ بالهروب نافرةً منه وهي تَتَفَّ مُرتجفةً:

- كأن كوابيس النهار تنقصني أيضاً!

كانت تلك كقبلة رمتها على فؤاد الفتى، لكنها لم تكثر بتاتاً لما فعلته، إلى أن سمعت بأنه قد مَرَّقَ ثأليه كلها بسكين، فتملَّكها نَدَمٌ عميقٌ، وبكته مُدَّةٌ لا بأس بها قُبيلُ تناسيها لما حَصَلَ..

كان البعيع الذي تراه مارداً بشعاً مُسَوِّداً مُكْتَرِ العضلات، تراه دائماً واقفاً أمامها في الظلام الدامس دون أن يصنع شيئاً، وعندما تبصرُ في عينيه الضيقتين بريقاً كبيراً القَطْط في الظلام تباشرُ الصُّراخ المذعور وتُهرع خارجاً.. وذات ليلة، خرجت صارخة، فرأت (تبريس) قريبة من بابها، استنجدت بها، لكن الفتاة المخبولة يَمُتُ وَجْهها للشطر الآخر، وسارت مرددةً بهمس:

- لا أريد إثارة حفيظة واحدٍ من الأسياد! الأسياد أنقذوني من الإدمان، وهكذا أَرُدُّهم الجميل؟!

فاشْتَدَّ رُغْبُهَا لِسَمَاعِ ذَلِكَ، وَنَامَتْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ عَلَى الْأَرِيكَةِ فِي
الْوَبِي السِّفْلِيِّ الْعَتِيقِ، وَعِنْدَ اسْتِيقَاضِهَا خَفَّتْ إِلَى غُرْفَةِ (تَبْرِيسِ)
وطلبت الإِذْنَ بِالدَّخُولِ، فَأَذِنَتْ لَهَا..

وَلَمَّا جَالَسَتْهَا انْخَرَطَتْ بِالْبُكَاءِ الْحَارِّ، فَرَفَعَتْ (تَبْرِيسِ) يَدَهَا
بَصْرَامَةً هَامِسَةً بِلَهْجَةٍ قَاسِيَةٍ:

- لَا بُكَاءَ عِنْدِي.. تَرِيدِينَ الْخِلَاصَ؟ اِقْبِلِي بِالسَّيِّدِ الْعَظِيمِ زَوْجًا
لَكَ!

- أَتَزُوجُ غَوْلًا؟!

- أَفْضَلَ مِنْ عَذَابِكَ.. ثُمَّ إِنَّهُ لَنْ يَدْعَكَ لِغَيْرِهِ.. أَنْسَيْتِ مَا حَدَّثَ
لِلْمَسْكِينِ (تُولُولِ)؟

- أَهْوَ مِنْ تَسَبُّبٍ فِي..

قَاطَعَتْهَا مُسْتَهِينَةً:

- أَنْتِ غِرَّةٌ سَادِجَةٌ لَا تَفْكِرِينَ فِي صَالِحِكَ! أَتَعْلَمِينَ مَا يَعْنِيهِ
زَوَاجُكَ بِأَحَدِ أَسْيَادِ الْعَالَمِ السِّفْلِيِّ؟ الدُّنْيَا كُلُّهَا سَتَخْضَعُ لَكَ عِنْدَ
قَدَمَيْكَ! وَافْقِي يَا بِلَهَاءَ، وَلَا تُفَوِّتِي فُرْصَةَ الْعُمَرِ!

- لَا!!

وتركض هاربة كأن الشيطان في أعقابها، حيث تختبئ في غرفتها
وهي لا تكاد تتوقف عن الارتعاد، حتى لتكاد تقضي لحبها بالسكته
القلبية!

وفي النهاية لم تحتمل أكثر من ذلك..

دخلت الحمام، وملأت البانيو بالماء، ثم تجردت من ثيابها وغطست
داخله محاولة إغراق نفسها!

بالطبع فشلت المحاولة، وخرجت من الماء وهي تشهق بدعوى، فقد
بدا لها الانتحار رعباً ما بعده رعب..

ارتدت ثيابها، وخرجت هائمة على وجهها، ومن الغرفة، ومن
المصحة.. سارت بغير هدى على العشب الأخضر والرياح تورجج
صفيرتها..

- "ما باللك؟"

تلفتت شاردة الذهن، فوقع بصرها على (شاهر) المبتسم بدهشة..
كانت قد داست على ساقه بغير قصد، فأخفت ثغرها بكفيها
هامسة:

- آسفة!

- لا عليك.. إلى أين؟ أول مرة أراك بها تخرجين.. خيراً؟

- لا شيء، أحاول فقط تناسي تعاسي..

ثم واصلت طريقها والفتى يُطاردها بعينين تقولان الكثير..

وفي تلك الليلة، بينما كانت تمسّطُ شعرها أمام المراة استعدادًا لتصفيره، سَمِعَتْ طرفًا على الباب.. نهضت وفتحته لتجدَ على عَتبة (شاهر) واقفًا ويده مصحفٌ صغيرٌ..

- "أُسمحين لي بالدخول؟"

- "تفضل.."

دخل متأملًا الغرفة قبل أن يقولُ باسمًا:

- غرفة ذاتُ ذوقٍ جميلٍ..

- شكرًا..

- أُسمحين لي بقضاء الليلة هنا؟

حدقت به صامتةً، فهي تدرك أنه من طراز نبيل لا يسعى للمواضيع المنحرفة، كما أنها بحاجة للرُفقة هذه الأيام..

- "بكل تأكيد!"

جلس أرضًا مُوَلِّيًا ظهره للجدار، وبابتسامةٍ لطيفةٍ غمغم:

- تصرفي وكأنني غير موجودٍ معك..

- هذا صعبٌ نوعًا، لكنني سأحاول..

هكذا رَقَدَتْ في سريرها ليثرثرا قليلاً، وقد فاجأها بسردٍ بالغِ
الطَّرَافَةِ، حيثُ حكى لها عن فتى عرفه عندما كان يذهبُ للسُّوقِ،
كان يَهْوَى الثَّشَلْ، لكنه تاب عندما أمسكت به الشرطة وصنعت معه
ما يلزمُ، فانقلب إنسانًا مُستقيمًا، وصار يبيع السمك على قارعة
الطريق.. لكنه ذات مرة استعاد نشاطه الأولي عندما زاره شرطي من
الذين أَدَّبُوهُ، وعندما غادر الرجل السوق كانت محفظته قد صارت
في جيب الفتى المنتقم..

جعلتها تلك الحكاية تبتسم بسمَةً مُجاملة، فحكى لها حكايات
أخرى زادت من بسمتها، ثم صارت تضحكُ، فتبسم قائلاً:

- ضحككتِ جميلة، لا أذكر أن رأيتكِ مرةً تضحكين!

تورَدَ وجهُها لكلامه، فوارته بالملاءة متممةً:

- تصبحُ على خير!

نامت تاركةً إياه يفتح المصحف ويبدأ بالتلاوة..

لم ينم (شاهر) ألَبَتَ في تلك الليلة، ظلَّ جالسًا بذات الوضعية يتلو
سورًا من القرآن الكريم حتى مطلع الفجر..

وعندما تسلل خيطٌ من النور إلى غرفة (زغدة)، نهض مُتثاقلاً
وخرجَ بخطى حَذِرَةٍ مكتومة، تاركًا إياها تنعمُ للمرة الأولى في حياتها
بنوم عميقٍ لذيدٍ، دونما غُولٍ أو بُعيعٍ..

13

السُّرْعُوبُ هو ابن عرس إذا ما كنتم تتساءلون!

وسرعوبنا لا يملك طباع هذا الحيوان الذي قد تجده مُتَسَلِّلاً
لداخل قُنِّ الدجاج كالثعالب، لكنه يزعم بعلمه لُغته، كما يزعم
بعلمه لُغة الحيوانات الأخرى!

لذا تراه جالساً القرفصاء بالساعات أمام مستعمرة للنمل، أو
ملتصقاً بالجدار حيث يُخاطبُ برصاً مُلتصقاً هنالك!

أحياناً يُجالسُ القِطَطَ الضالة والكلاب المُشردة، والعجيب حقاً
بالأمر أن الحيوانات التي كان يجالسُها لم يحدث أن نفرت منه أو
حاولت الهرب!

فهل يتقن (سرعوب) منطق الحيوان كما كان سيدنا (سليمان)
عليه السلام؟

فَصَّلْ (سرعوب) معاشرة الحيوانات على البشر، فهي - بحسب مزاعمه - كانت صادقة، تقولُ الذي بخاطرها ولا تعرفُ النفاقَ أو الرياء أبداً!

لكنه في مرةٍ من المرات ناقَضَ ذلك القول، وسيأتي ذِكْرُ ذلك فيما بعد..

المهمُّ أنه قَضَى غَالِبَ الأوقات في الإسْطِبل، حيثُ عَقَدَ صَدَاقَةً مَتِينَةً مع "عداء الصحراء" حصان (جروح) الأثير..

كانت علاقته بشاهر طيبةً لأن الحصان "أخبره" أن ذلك الفتى نَقِيُّ السريرة، لا يعرف الإيذاء، على عكس الأمير الجميل الذي يُعَشَّشُ الأذى بين أركان نفسيته المُعَقَّدة!

كما أنه اعترف ذات مرة بتعلقه الشديد بالفتاة (جروح)، فقال له:

- ألقم فمي بعض السكاكر وسأطْلُعْكَ على سرٍّ..

فنفذ (سرعوب) مَطْلِبَه..

قَضَمَ العداء مُرَبَّعَ السُّكَّرِ قُبِيلَ استرساله:

- الفتاة لطيفة جداً، ولو كنتُ بشراً لأحببْتُها كما أحبُّ فرساً

أصيلة ذات قوائمٍ رشيقةٍ!

ضحك (سرعوب) قائلاً باندهاشٍ:

- تحبُّ بشرية؟ كم أنت غرٌّ ساذجٌ يا صديقي!

البشر مخلوقات كاذبة مُناقضة، وعالمكم يبعدُ كل البعد عن عالمنا
المتبدِّل المملوء مؤامرات وترهات وإدمان و..

- حسبك.. فإن عالم الحيوان ليس بغريبٍ عن عالم بني البشر!

- ماذا تقول؟

- سأحكى لك حكاية عن عالمنا.. حكاية حقيقية.. وأنت ستكون

الحَكَم.. اتفقنا؟

- اتفقنا..

- قيل لنا عبر حكاوي الأجداد المتناقلة، إن الغابة عاشت دهرًا

من الرخاء بعد ابتعاد الإنسان عنها فترةً من الزمن..

ولطالما اعتبرت الحيوانات الإنسان أكبر مشكلة تُصادفُ الغابة،

فهو يَقْطَعُ الأشجار، ويرمي بالنفايات، ويلوِّثُ النهر، ويقتُلُ من أجل

اللحم والفراء والدهن والزيت.. إلخ، مما جعل حياة الحيوانات

جحيماً لا يمكن احتمالُه..

وأخيراً، كَفَّ الإنسان عن ولوج الغابة فترةً من الزمن، عَقِبَ

ظُهور كل تلك القوانين التي تحمي الحيوان والشجر من الانقراض،

فسَعِدَت الحيوانات بنيل حُرِّيَتِها واستقلالِها أخيراً، وأقيم احتفالٌ

صاخبٌ رَفِصَتْ فيه الأرانب إلى جانب الثعالب!

ثم أعلنت نتائج الانتخابات في الحفل نفسه، فالحيوانات لا تُضَيِّعُ الوقت كما تصنعون أنتم معشر البشر، لكن أمرًا مُشابهًا لما يحدث معكم قد حصل معهم، فقد فاز الأسد بانتخابات سيادة الغابة كالعادة بنسبة 99,9% !

هَلَّتْ الحيوانات جميعها ما عدا حيوانًا واحدًا.. التمساح!

أعلنها صراحةً، أمام الحيوانات والطيور والحشرات والأسد نفسه، دون خشية من أحد، فقال بغضب:

- هذا ليس عدلًا!

تبادلت الحيوانات نظرات الاندهاش، وزأر الأسد مُتَسَائِلًا بغضب:

- ماذا تقصد؟

- أنت تفهم مقصدي جيدًا، في كل مرة لَعِينَةٍ نُجْرِي بِهَا انتخاباتٍ تَفُورُ أَنْتَ بِنِسْبَةٍ غَيْرِ مَعْقُولَةٍ!

- وماذا في ذلك؟

- ماذا في ذلك؟ إِنَّكَ مَلِكُ الغابة مُذْ رَسَا فُلُكُ سَيِّدِنَا (نوح) عَقِبَ الطوفان الأعظم، وَلَا أَظُنُّ أَنَّ جَدُودَكَ قَدْ أَخَذُوا الْمُبَايَعَةَ مِنْ جَدُودِنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَهُمْ دَاخِلُهُ وَسَطَ الْأَمْوَاجِ الْمُتَلَاظِمَةِ!

- صُنْ لِسَانَكَ وَإِلَّا اجْتَنَّبْتَهُ مِنْ خَلْقِكَ!

- صرُّهم مثل أولاد آدم، تنهبون الحكم وتأمروننا بالصمت!

زأر الأسد بهيجان، فأسرع الفيل يقول محاولاً تهدئة النفوس:

- أرجو ألا يتفاقم الوضع أكثر يا إخوان، فنحن أمة مُتكَاتِفَةٌ

داخل هذه الغاب رغم الصراعات وكل شيء، لكن فكرة التصارع على السلطة وحدها تُثيرُ الفزع، لنحاول تجنب ذلك ولنستمر..

- نستمرُّ في ماذا؟ في الهراء الذي امتدَّ عشرات السنين؟ كان

الأسد وما زال مَلِكُ الغابة، فماذا صنع للغابة غير التمطّي والتأوُّب؟

إن اللبؤات الأربع اللواتي تزوجهنَّ هُنَّ من يأتين له بالفرائس حبًّا بالله!

عاوَدَ الأسد الزنبر المفزع صائحًا بثورة:

- قد تماديت أكثر من اللازم أيها الزاحفُ الحقيق، اسحب ما قُلْتُهُ

حالًا وإلا أمرتهم بتعليقك من ذيلك حتى يجذِّك صائدو التماسيح!

فَهَقَّ التماسيحُ قائلاً باستهزاء:

- هل سمعتم ذلك؟ لقد عَقَدَ ملك الغابة المُبْجِلُ اتفاقيات من وراء

ظهورنا، ومع مَنْ؟ مع صائدي التماسيح من البشر!

انطلقت همهمات غاضبة من جانب التماسيح، فمدَّ القردُ فمه

الممطوط في أذن الأسد هامسًا داخله:

- ما كان عليك الإدلاء بتصريح خطير كهذا التصريح أمامهم يا مولاي!

- إليك عني يا وَجْهَ القِرْدِ! أنا مَلِكُ الغابة! أقولُ ما أشاءُ وفي الوقت الذي أريدُه!

هَتَفَ التمساحُ بانتصار:

- حتى كلامه صار ككلام البشر! لقد نادى القِرْدُ بوجهِ القِرْدِ! لم يَبْقَ إلا أن يُنادي الكلبَ بابن الكلب!

اربدْ وجهُ الأسد، فشهر مخالبه وكشف عن أنيابه قائلاً بوحشية:

- أنت تدنو من فماتي كثيرًا جدًّا يا صاحب الحراشف الصُدنة!

- أترون ما أعنيه؟

- قَدْ بَلَغَ السَّيْلُ الزُّبَى!

- والآن صار يستشهد بشعر البشر!

لكن الأسد بقي يُهدِّدُ بالكلام دون أن يهجم أو يصنع شيئاً، وأخيراً، لاحظ التمساح ذلك، فضحك بسخرية شديدة هاتفاً:

- انظروا! إنه يُهدِّدني تهديدات جوفاء دون أن يُحرِّك ساكنًا!

أتدرون لماذا؟ لأنه لا يستطيع هزيمة كائنٍ قويِّ الفكِّ والحراشف مثلي!

هَلَلْتُ جُمُوعَ التَّماسيحِ لهذا، فاحتدَّ النمرُ ومعه الفهدُ والضَّبُعُ
وحقَّ الذنبُ - وقد كانوا يعتبرون أنفسهم حُرَّاسَ الغابة وجُنْدَهَا
البواسل، وعوى الذنب قائلاً:

- أَشْتُمُّ رائحةَ تمردٍ!

زأر النمر مصححاً:

- بل هي رائحةُ الخيانة!

وواصلَ التَّمساحُ مُحاولاته السَّلمية مع الفيل، لكن دونما
جدوى..

وفي النهاية، رحل التمساح مع عَشيرته إلى النهر، تاركاً الاحتفال
خلفَ ظهره مكرراً بصراصة:

- الأيامُ بيننا يا سيدَ الغابةِ المزعومِ!

ولم يجرؤ صِنْفُ حيوانٍ على التَّصدي له..

أيامٍ مرت عانت الحيوانات خلالها الأمرين..

فقد أعلنت التماسيحُ تمردَها، واحتلت النهر الذي كان مصدر
الماء الوحيد في الغابة، فلم يجرؤ حيوان على الدُّنُو من حافته للشرب
أو الاغتسال، حتى أفراس النهر صارت تعيشُ خارجَه!

أما عن الشُّجعان الذين حاولوا القتال، فقد راحوا ضحية فُكوك التماسيح!

وقد عقد الأسد مؤتمر غابة طارئاً، حضرته الحيوانات كافة، وبالطبع كان الفيل حاضراً بصفته مستشاراً والقرد بصفته سفيراً..

أظهرت الحيوانات استياءها لما حَدَثَ، وتمت دراسة حالات الجفاف والجرب التي أصابت صغارها نتيجة لقلّة الاغتسال والشُّرب، وفي النهاية أعلن الأسد بيأسٍ عن استعداده للتفاوض مع التماسيح، فقد كانوا يلعبون اللُّعبة في ملعبهم، والاقتراب منهم دون الهلاك أمر مُستحيلٌ تقريباً..

تمّت الموافقة بالإجماع على هذا القرار، وكالعادة انتدب الثعلب حمل رسالة الملك إلى التماسيح، فهو يمتاز بالفطنة والذكاء والمكر كما نعلم جميعاً..

إلا أن مفاجأة سيئة وقاسية نوعاً كانت بانتظاره حين بَلَغَ حافة النهر حاملاً رسالة إمكانية التفاوض، فقد خَرَجَ له زعيمُ التماسيح المُتمرّد بلحمه وحراشفه وأنيابه! وقبل أن ينطق الثعلب بكلمة واحدة تلقّفه الزعيم بين فكيه والتهمة!

ولما بَلَغَ الخبرُ ملكَ الغابة، زار حتى كلّت حنجرته، وبيرة كاهدير صرّخ:

- هي الحرب إذن!

نَفَقَتْ حيواناتٌ كثيرة، ولولا معونات الماء من الغابة المجاورة
لَهَلَكَتْ حيواناتُ الغابةِ جميعها!

وفي النهاية، استدعى الأسدُ القردَ، فذهب القردُ إليه مُستبشراً، إذ
ظَنَّ بأنه سيتنازل أخيراً عن الملك للتماسيح عملاً بنصيحته..

لكن الأسد قال بخشونة وغلظة للقرد عندما قابله:

- اسمع، أمهلُك ثلاثة أيام لإبرام صفقةٍ مع التماسيح الأوباش..
فإما أن تجدَ طريقةً للتفاوض كي تُنهيَ هذه الحربَ الشعواءَ أو
أنتَهمك حتى العظم والتخاع!

وتشاءب معلنا نهاية الاجتماع!

سار القردُ حزيناً كاسفَ البال على غير عادته..

حيثُ، حيواناتٌ عديدةٌ ولم يردِّ التحية أو يُلقِ دُعاباته المُسلية ككلَّ
يومٍ، فقد ابتدأ العدُّ التنازلي لانتهاى حياته في هذه الغابة..

كيف يمكن له إبرام اتفاقية صلح مع التماسيح؟ لقد هَلَكَ الثعلبُ
مَبْعُوثُ الأسدِ الرسميُّ قبل أن يعرض الاتفاقية، فكيف يصنعون إذا ما
اقترب منهم عارضاً الصلح؟ يا لها من مُصيبة!

وبينما هو سائرٌ يفكرُ في حَلٍّ لتلك المُعضلة، سَمِعَ صوتَ نَعيقٍ
خَشِنٍ يقولُ:

- "ما أجمل قطعة الفضة التي تُخصني!"

نَظَرَ القرد إلى أعلى قبل إظهاره التأفف والسُخْط، فقد كان ذلك العَقِيقُ - والعقيق لمن يجهله هو غراب أبقع طويل الذيل-، أكثر الطيور نبذاً وكذباً ولُصُوصيةً!

كان مُتَشَبِّهاً بقطعة بارزة تَبْرُقُ بِمِنْقَارِهِ، فقال القرد لنفسه:

- على الأرجح قد قام بسرقتها من طِفْلِ نَعْسِ الحَظِّ!

فما إن قال تلك الكلمات حتى برقت عيناه بشدة..

لماذا لا يستعين بالعقيق للتفاوض؟ لقد جرب الرسميات ولم تُفِدهُ بشيءٍ حتى الآن، فلماذا لا يعمل بصورةٍ غيرٍ رَسميةٍ؟

والعقيق لَصٌّ وكذابٌ ونذيرٌ شَوْمٌ أيضاً، فلماذا لا يُرسله إلى التماسيح؟ غَلَّه يَنجح في مُهمَّته بعد فشَلِ مُحاولات الصِّلحِ الرسمية ذاتِ الإجراءاتِ المُعتادة!

نادى القرد بأعلى صوته مُخاطباً العقيق:

- يا عقيق، انزل قليلاً لأُحادثَكَ في أمرٍ يهْمُنَا جميعاً..

- أنا لا يهْمُنِي أحدٌ، لا يهْمُنِي سوى نفسي!

إنه أَناني أيضاً! لكن لا بأس..

كان الجميع على علم بمدى هيام العقق بقطع الزجاج والخرز
والفضة بالأخص، فقال القرد بحُبّ:

- لا بأس، يبدو أن قطعة الفضة التي بحوزتي لن تكون من نصيب
أحدٍ غيري!

فما إن سمع العقق لفظة "فضة" حتى هبّط من فوق الشجرة
لأسفل بسرعةٍ صائحا:

- أقلتِ قطعة فضة؟

- أجل، ولا أظنّك تحاول الحصول عليها بغير مُقابلٍ..

- ما الذي تُريده مُقابلها؟

- إنني أشكّل وقدّا لإرساله إلى التماسيح!

- وما حكاية التماسيح أيضًا؟

- ألا تتابع أخبار الغابة أيها الأحق؟

- لا شأن لي بالسياسة!

شرّح له القرد الأمر جُملةً وتَفصيلًا، فقال العقق بعد أن أخذ
وقته في التفكير:

- تبدو لي مُشكلةٌ عويصة..

- هي كذلك..

- ومُقابل الانضمام للوفد أريدُ على الأقل عشر قطع فضية!

- لكن هذا كثير!

- وقِطعة من مرآة وبعض الخرز أيضًا..

- ماذا عن مصلحة الغابة؟ ماذا عن الواجب الوطني؟

- مصلحة تفوق كُل مصلحة!

- لا بأس أيها الطَّمَاع، لك ما أردت!

ثم قال لنفسه بنبرة خفيفة وهو يُجدُّ السَّيرَ والعقَّع يُحلِّقُ فوقه:

- الطَّمَاعُ التَّعَسُّ! إنه لا يعلم أنه وقد سائرَ إلى حتِّفه!

مرًّا أثناء رحلتهم بالمستقع، فسمعا صوتَ ثقيي يُثيرُ الغثيانَ..

همسَ القرد لنفسه متميمًا بازدياء:

- هذا صوتُ العلجوم!

والعلجوم - لمن يجهله - هو ذَكَرُ الضَّفَدع، وقد كان العلجوم

في حكايتنا هذه جالسًا على صخرة متوسطة الحجم، وقد التفَّ حولَه

عددٌ من صغار الضفادع، ينصتون لحكاياته التي تدور بأسرها عن

الشعوذة والساحرات الشريرات..

قال للصَّغار بصوته المتحشرج:

- في الماضي الجميل كانت الحكايات أغلبها تدور عن الضفادع،
مثل حكاية الأميرة والضفدع المسحور، والضفدع الذي احتمل
عقرباً على ظهره لعبور النهر..

وقد كان لجدي العلجوم الأكبر شرفُ الجلوس على الكتف
الأيسر لإحدى الساحرات التي أُحرقت على عمودٍ بتهمة ممارسة
السحر! كما أن العفاريت تفضل دوماً التحول إلى علجوم!

قال العقعق باستهانة للقرود:

- أرى أن نواصل طريقنا بدلاً من إضاعة الوقت في الاستماع
لخرافات هذا المخرف!

لكن القرود رأى غير ذلك، فلا ضيرَ من أن ينضمَّ للوفد حيوان
يؤمنُ بالسحر والخرافة، فلربما ثمة فائدة من ذلك، ولكن كيف السبيلُ
إلى إقناعه؟

حيًا القرودُ العلجوم، وبعد عرض المسألة عليه ردَّ العلجوم وحنكه
ينفتح :

- إذا أردت انضمامي للوفد فهناك شرطان لحُدُوث ذلك..

- ألا وهما؟

- الأول أن أصير أنا مُستشار ملك الغابة وليس الفيل!

- والثاني؟

- أن يخرج هذا العقق من الوفد حالاً!

احتدَّ العققُ صائحاً:

- وما سألَكَ بي يا صاحب الحنك المُتفخ كأنه ورَمَ؟

هَتَفَ العلجوم بغضب:

- لي كل الشأن، فانتَ وأمثالُك تسيئون لأمجادنا مع السحرة
حين تدَّعون أنكم من رافقَهم في طُقوسِهم واحتفالاتِهم، أو عندما
تزعمون أن العفاريت لا تتشكَّل إلا على طَلَتِكم البهية!
- لأنَّها الحقيقة!

- بل إن كل ذلك مجرد كذبٍ وتزييفٍ للتاريخ!

- كُفَّ أنتَ عن تزييفه بترهاتك!

هتَفَ القردُ مُتدخلًا بينهما:

- كُفِّي! حالُ الغاية هو ما يهمني الآن لا الصراعات الجانبية
الشخصية.. أيها العلجوم، إنني أوافق على شرطك الأول!
أراد العلجوم قول شيء ما بحق، لكنه في النهاية غمغمَ باستسلام:
- وهو كذلك، هلمَّا بنا..

أثناء سير الثلاثة باتجاه النهر، توقَّف العلجوم عن الوثب، وبصوته
اللزج المقيت تساءل حائرًا:

- ماذا لو لم تنجح المفاوضات؟ أأعود خالي الوفاض للمستقع؟

كف العقق عندئذ عن الطيران، وبحدة قال للقرد:

- لا يهمني نجاح الاجتماع أو فشله، أريد حقي كاملاً!

قال القرد لهما بسخط:

- لا تقلقا، ولكن أرجو أن تُعبرا جُلَّ اهتمامكما للاجتماع..

ثم قال في نفسه بضيق شديد:

- يا لطمعكما وجشعكما البالغين!

أحس أن وجود لص كاذب ودجال مؤمن بالخرافات لا يكفي لإنجاح هذا الوفد السائر نحو مصير لا يعلمه إلا الله، وبينما كان يفكر في ذلك الأمر، تناهى إلى مسامعه صوت يقول بحدة:

- أرجو أن تظهر هذا الأحمق الصواب من الخطأ يا أبا منجل!

تحرك القرد إلى مصدر الصوت بين الأشجار، فأبصر أمراً بدا مثيراً للاهتمام..

إذ أبصر ظربانين يقتتلان بينهما "أبو منجل" يقف بهدوء واتزان - ولن يجهل أبا منجل، هو طائر مائي طويل القائمتين والمنتقار - وقد تساءل الظربان الأول الذي سمعه القرد يتحدث بداية:

- يا أبا منجل، من أكثرنا تهدياً ولباقة؟ أنا أم صاحبي هذا؟

فتح أبو منجل منقاره الشَّيْءَ بالحقنة الشرجية كما لو كان
يتشاءب، ثم غمغم بتحفظ:

- أنت الأكثرُ تهذيبًا، وصاحبك الأكثرُ لُباقةً..

- وكيف يكون ذلك؟

- عندما جئتماي أقرأتني أنت السلام وصاحبك لم يفعل، ولما
عرضت القضية تراجعَ صاحبك للوراء كي لا تخنقني رائحته الكريهة،
في حين لم تكثرث أنت لذلك، وهأنت تخنقني برائحتك الكريهة!
في تلك اللحظة، خرجت بطة بريّة من بين الأعشاب الطويلة
مُولولة:

- يا أبا منجل، صغيري يرفضُ تعلّم العوم في الماء..

- أخبريه أن طعامه ينتظره في الماء..

- يريدني أن أصطاده له بنفسه..

- أرسلني له من يُخبره أنك قد قضيت بين أنياب ومخالب ثعلب،

ثم راقبيه كيف سيتمكن من إعالة نفسه بنفسه، وعندئذ أفرحيه
بعودتك!

هَبَطَ من بين الأشجار سنجابٌ مذعورٌ قال بصوت ملهوف:

- ولدي لَسَعَه عَقْرَبٌ سامٌّ، أدركني يا أبا منجل!

- اجثُ حَالًا عن عُشبة "أقونيطن"، ثم امضغها وضعها مكان
اللسعة، فهي تتشربُ السَّمَّ حتى ولو كان لأفعى!
بدا القرد مُنْهَرًا بذلك الطائر الجامع ما بين الفطنة والحكمة
والعلم، فقال مُخاطبًا نفسه:

- هذا هو ما يحتاجُه وفدنا البائسُ بالضبط.. بارقة أمل!
وعندما عَرَضَ القردُ المشكلة على أبي منجل، وافق الأخير على
الانضمام للوفد دون شروط أو حتى مُقابل!
قبل أن يصل الوفد إلى نَهْرِ التماسيح، طلب القرد من الحيوانات
الثلاثة المُرافقة له توخي الحذر وعدم الخوض في تفاصيل عَقيمة لا
تُهم..

قال لهم والتوترُ بادٍ عليه من قِمة رأسه وحتى أخصى قدميه:
- لا تحاولوا استفزازهم وإلا التهمونا، وتذكروا المهمة المُلقاة
على عواتقنا..

قال العقق بحدة:

- تذكر أنتِ الفضة وقِطعة المرأة والخرز..

أسرع العليجوم بهتف:

- لا تنسِ المنصب الذي وعدتني به، لا أقل من منصب المستشار!

في حين ظلَّ أبو منجل على صمته ووقاره، فقال القرد لهما محتدًا:
- ستحصلان على ما تريدانه من طلبات، لكن أرجوكم، ركّزا
في موضوعنا الآن..

وانطلقوا باتجاه النهر، والقرد يدعو ربه طيلة الطريق ألا تُهاجم
التماسيحُ الوفدَ وتلتهمه..

فما إن صاروا على مسافةٍ شبرٍ من ضفةِ النهر، حتى انشقت
الأرض عن عشرةٍ تماسيح على الأقل أحاطوا بالوفد إحاطة السوارِ
بالمعصم، وصعق العقعق قبل محاولته الإفلات بالتحليق، لولا أن سارعَ
أحد التماسيح بإطباق فكيه على ذيله!

تبدى الذعرُ في وجوه القرد والعقعق والعلجوم، لكن أبا منجل
ظلّ دُض على صمته ووقاره كأن الأمر لا يعنيه!

صاح القرد بأعلى صوته:

- نحن وفد من ملك الغابة، وقد أتينا لعقد هُدنةٍ يا سادة..

ردَّ عليه أحد التماسيح بغلظة:

- سبِّ كافٍ لانتهاكم دوما انتظاراً!

- أرجوكم أن تتمهلوا ولو قليلاً، دعونا نعرض ما لدينا على

قائدكم العظيم..

ارتفع في تلك اللحظة صوت عميق آتٍ من ناحية النهر يقولُ
بحدة:

- فليقترب وفدُ الملكِ المزعوم..

أزاح التماسيح الطريق للوفد، فتقدموا يقودهم التماسيح الممسك
بالعقق كي لا يفلت، وعند حافة الماء كان زعيم التماسيح يريخُ فكَّه
الطويل والعريض على اليابسة، في حين بقيَ جسْمُه بأكمله في الماء..

وصاحَ القردُ مُجدِّداً ما إن أبصر الزعيمَ المتمرد:

- السلامُ على ملكِ التماسيح المَبجل!

- اصمُتْ أنتَ ودعني أتمعنُ في وفدِكَ هذا.. ما شاء الله! عقق
وعلجوم وأبو منجل؟ يا له من وفدٍ!

قال القردُ كالمُتَّحِب:

- لم تتركْ لي الخيارَ يا سيدي مُذِ التهمتِ الثعلبَ مبعوثَ الملكِ
الرسمي!

صاح العقق وهو لا يكف عن محاولات الإفلات اليائسة:

- التهموا المبعوث السابق؟ بأيّ مُصيبةٍ ورطتْنَا عليك ألفُ لعنةٍ؟!

وانفخَ حَنَكُ العلجوم وهو يقولُ بعصبية:

- لذلك لم يكن السحرة يثقون بالقروود إلا مذبوحة في طقوسهم
السحرية!

تأملهم زعيم التماسيح بسخرية جمّة، ثم تمتم باسمًا:

- اسمعني ما لديك أيها الوفد!

- سيدي إن..

- اخرس أنت أيها القرد الكريه، أريدُ سماعَ هذا الوفد لأرى
الحكمة من انتقائكُم له، ومن الأفضل أن تكون هنالك حكمة ما وإلا
التهمتكم جميعًا!

أنت يا طائر الشؤم والخراب.. لم انضممت لوفد الملك المزعوم؟
كفّ العقق عن الخفقان بجناحيه، وباستسلام قال:

- في الواقع يا سيد هذه الغابة إن سبب انضمامي للوفد المائل
أمامك هو لرؤيتك عن كثب! للاستزادة من حكمتك ولرؤية ماهية
القوة الحقيقية لديك!

- وبعد؟

- أتوجد أسباب أهم من التي ذكرتها لك يا مولاي؟ أرجو أن
تقبلني جندياً من جنودك المخلصين! اعتبرني رسولك إلى سائر
الحيوانات ريثما تتم بناء مملكتك الجديدة!

- وكم تريد مقابل انضمامك لنا؟ قطعة فضة؟ خرزاً ملوناً؟ كم
الكمية التي تُناسبك؟ تكلم ولا تخجل!

- لا أبغي سوى رضاك عليّ يا مولاي!

- كلامٌ جميلٌ ومُنمّقٌ!

وتشاء قبل أن يقول لتابعه:

- التَّهْمَةُ!

وقبل نُطْقِ العَقَقِ بشيء كان قد غاب بين فكِّي التماسيحِ الْمُسكِ

به!

تبدى الرعب في سحنتي القرد والعلجوم، وبمِلل قال زعيم

التماسيح:

- أكرهُ الْمُتَمَلِّقَ الطامعَ، والأكثر من ذلك كراهيتي العميقة

للكاذبِ الخائن!

ماذا عنك أيها العلجوم؟ أأنتَ كاذبٌ خائنٌ أيضًا؟

عجل العلجوم بالقول مُتلهفًا:

- بل أنا مُثلك يا مولاي، أكرهُ الكاذبَ الخائنَ، أَقْسَمُ لك!

- لماذا انضمامتَ إذن لهذا الوفدِ السَّخيفِ؟

تنفّسَ العلجومُ بعُمقٍ حتى بدا حنكه كالبالون، ومن ثمّ أجاب

بوجل:

- يا مولاي، أتيتُك لنبوءةٍ ذَكَرَها جدي الأكبر لي!

- وهل كان ساحرًا؟

- تقريبًا! فقد كان الحيوان المفضل لساحرة، ومكانه الدائم كان على كتفها اليسرى!

- ونعم الجد! وعم كانت تلك النبوءة المزعومة تدور؟

- قال لي قبل أن يموت: "إن الأسد لن يدوم ملكًا فترة طويلة، لأن فارسًا أخضر ذا حراشف متينة سيتمكن من دحره، وبذلك سيصير ملكًا أزليًا للغابة، وفي عهده ستشهد الحيوانات رخاء لم تنل مثله قط في عهد الأسد الظالم الجائر!"

- إذن فقد كان جدك الأكبر منجمًا!

- يمكنك أن تقول ذلك يا مولاي!

- إذن فالتهموه!

غاب العليجوم في في أحد التماسيح وهو يؤلول، وقال زعيم التماسيح بتؤدة وهو يتأمل وقفة طائر أبي منجل المحيرة:

- مع أنني أكره الاستشهاد بأقوال البشر كما يصنع الأسد، فإني أعترف بمدى صدق حكمهم، ومن تلك الحكم أستشهد بهذه: "كذب المنجمون ولو صدقوا!"

وأنت يا صاحب المنقار المضحك؟ فيم انضمامك لهذا السيرك الطريف؟

بقي أبو منجل على صَمَتِهِ، فتساءل زعيم التماسيح بغِلْظَةٍ:

- هل أنتَ أخرسُ يا هذا؟

أخيراً نطق أبو منجل، فقال بمدوئه المُثير:

- افتحْ فَمَكَ يا سيدَ التماسيح..

- ماذا قُلْتَ؟!

وحدّجه بنظرةٍ غاضبةٍ وقد بدا كأنه سيأمر أتباعه بالتهامه هو الآخر، لولا أن صمتَ بُرْهَةً مُفَكِّراً، ثم قام بتنفيذِ مَطْلَبِ الطائر!

تأمل أبو منجل فاةَ التَّمْساحِ المَقْغُورَ بعنايةٍ وتدقيقٍ، ومن ثَمَّ قال بثقةٍ:

- منذ متى وأنتَ تعاني تلكَ الآلامَ؟

- عن أيِّ آلامٍ تتحدثُ يا هذا؟

- هَلُمُّ وكُفِّ عن المُكابرة! أنتَ مريضٌ يا سيدي، وأنا ما انضممت لهذا الوفدِ إلا لمُساعدتِكَ على الشفاء!

- أنتَ تكذبُ! كيفَ علمتَ بأني مريضٌ؟

- مُذْ سَمِعْتُ خَبرَ التَّهامِكِ للثعلبِ! كنتُ أعلمُ بأنك ستمرضُ بعدها! كما أن منظرَكَ لا يخفى على طبيبٍ مثلي..

تأمله زعيم التماسيح ملياً، ثم خرجت من مقلتيه دموعٌ حقيقية، لا
دموعَ تماسيحٍ كاذبة!

قال وهو لا يزال ينوحُ بأسى:

- أشعر بمغصٍ رهيبٍ، رهيبٍ كالكابوسٍ يا دكتور!

- لا بأسَ عليك..

- إذا تمكنتَ من شفائي فسأوافق بكلِّ طيبٍ خاطرٍ على التفاوضِ
مَعَكَ!

- لا تتحدثِ كثيراً فأنتَ مريضٍ الآن..

دنا القردُ من أبي منجلٍ، وهَمَسَ له مُتلهفاً:

- دعنا نُرغمه على قبولِ الهدنةِ ومن ثمَّ عالجِه!

التفت الطائرُ إليه هامساً هو الآخر بحزم:

- لا! هو الآن مريضٍ وسأنفذُ واجبي تجاهه بصفتي طبيباً، ولا

شأنٌ لذلك بصراعاتنا ونزاعاتنا!

ثم التفتَ إلى زعيم التماسيح قائلاً له بنبرةٍ مطمئنة:

- افتح فمَكَ وَقُلْ آه!

وبعد شفاء زعيم التماسيح، وافق على الهدنة مباشرة، فعاد القرد
منتصراً إلى ملك الغابة حاملاً معه البشري السارة، فسرد له الحكاية
كاملة، لكنه لم يكن أميناً تماماً في سردِها..

هكذا، أقيم احتفالٌ ضخمٌ نال القرد الماكِرُ خلاله شرفَ ثيلٍ
منصب مستشار الملك الأول، والطريف في الأمر أن الأسد قد أمر
بعمل نُصين تذكاريين للعقّوق والعُجوم باعتبارهما بطلين قضيا أثناء
قيامهما بالواجب الوطني المقدس!

أمّا أبو منجل، فقد عاد لِمُزاولة طَبِّهِ وحِكْمَتِهِ دون أن يعرف
حيواناً واحداً ما قدّمه للغابة من خدمات.. وبقيت الحقيقة مدفونةً
حتى يومنا هذا!

14

ارتدت "جيزاً" أزرق يُلاثم قميصها السماوي، شعرها طويل لكنه مقصوص يصلح للفتيان والبنات على حدّ السواء..

هكذا كانت (شبابه) وستظلّ، وقد ظنت أن اسمها مجرد تنويع على "شباب"، لكن مدام (باسينت) قصدت بها أداة النفخ الموسيقية التي كانت الفتاة تُثَقِّنُ العزفَ بها..

تبدت (شبابه) منذ اللحظة الأولى فتاة مُستهترة، فخلّفت ذلك الانطباع لدى الكل، وقد تبادت كل التمادي في الظهور بمظهر فتى، حتى أنّها كانت تستعملُ حُثام الذكور! وذات مرة قاطعت استحمامهم بدخولها عليهم قابضةً بشكيراً وهي تغغم ببساطة مُتناهية:

- اتركوا لي قليلاً من الصابون!

أتت مدام (باسينت) على صوت التهليل والتصفير، فوق بصرها على أشنع منظر رآته في حياتها المهنية بأسرها، وربما في حياتها الشخصية كلها..

كانت البنت عارية تماماً كما ولدتها أمها! تُراشق الفتية العُراة كذلك بالماء والصابون! فلطمت المرأة صدرها، وهرعت كالمنخولة لتلقفها بالبشكير وتخرجها مُجرجرة إياها من شعرها وهي تصيح مُلتاعة:

- يا للفضيحة! أين الحياء يا بنت المجنونة؟ تفو!

بصقت عليها وهي تواصلُ عصر جذور شعرها ولطمها على خديها ومؤخر عُنقها، لكن الفتاة ظلت تضحك حتى توقفت (باسينت) من إصابتها بالحبل..

حبستها في غرفتها وأغلقت الغرفة بالمفتاح حتى تتأدّب، وبعد يوم أخرجتها مُعتقدة أن البنت قد تأدّبت.. ولكن وفي نفس الليلة تفاجأ بها ترقّص بقميص النوم مع (داهوت) في غرفته على أنغام صاحبة منبثة من مُسجله!

كانت (شبابة) "غلامة" بكل ما تحمل الكلمة من معاني، لدرجة أنما كانت تنادي (داهوت) دائماً بالأمير المخنث! وتشبه تآليل

(ثولول) بمريض الإيدز المحتضراً! أجل! لسانها كان الأسلط وشخصيتها كانت الأقوى - أو الأوقع إذا ما صحَّ التعبير -، بعض الفتية أعجبوا بجرأتها وسائر الفتيات نبذوها لسوء أخلاقها..

ثم هدأت طباعها قليلاً واستقرت، وإن لم تكفَّ عن ارتداء ثياب الفتيان، لكنها تمكَّنت من مُهادنة (ناردين) لأنها أحبَّت لطفها وخلوها من خَبَلِ البنات السخيف والمُعْتاد، ولم تترك فُرصةً لم تسخر بها من نادي "الآنسات الخافيات" ومخاوف (زغدة) وشرِّه (قبرة) غير الطبيعي.. لكنها احترمت كثيراً علاقة (ضارية) المتينة بلؤلؤة، فقد وهَّبت الأولى حياتها وسعادتها كلها من أجل الثانية، أخت وصديقة مريضة طيلة الوقت لا تُبارحُ الفراش..

حاولت (ناردين) بلطفها المعهود تعليم الفتاة الحشنة طباع الفتيات، لكن (شبابة) أخرجت لسانها كمن بقيء قائلةً بازدراء:

- إهنُّ فضيحة! ينتحبن بمجرد ظهور برص على الجدار، ولا يكفُّنَ عن النيمة والتَّنقيق كاللدجاج!

أفهمتها (ناردين) بصبر أن تلك الأمور ليست جُلَّ وظائف الأنثى، فتبسمت قائلةً باستهزاء:

- بالطبع! إنما تكنس وتطبخ وترقُد في السرير خاضعة لغرائز الرجل البهيمية!

احمرّ وجه (ناردين) مدركة أن صديقتها الجديدة ما هي إلا عضوة
في جمعية حقوق المرأة، لكنها لم تفقد الأمل فيها تمامًا..

وفي حفل ما قبل زواج (أزوريت)، اضطرت (شبابة) لارتداء
تنورة حلبيية ذات كشاكش على الأكمام استجابةً لتضرّعات
العروس المُقبلة، ولما وقفت أمام المرأة تتأملُ نفسها بعد أن فرغت
(ناردين) من تزيينها ووضع مساحيق التجميل لها رأت شيئاً عجباً..

- "واو.. أنت فاتنةٌ حقًا يا فتاة!"

قالتها (ناردين) مُبهرةً.. حقًا كانت (شبابة) فاتنة، تَبْرُجُها المُتقن
جعل منها أنثى حقيقية، لم تكن ضاجةً الأنوثة من ناحية الصدر أو
القوام، لكن وجهها بدا لمسة فنية من لمسات الجمال المُتقن، أنفها
متناسق وعيناها تبدوان كمياه البحر الشّفافّة، وقد وضعت لهما
(ناردين) كُحلًا، وصبغت لها شفتيها بطلاءٍ ورديٍّ باهتٍ مُتألّي..

صالت في الحفل وجالت مُتفقدةً ذاتها أمام رفاق المصحّة، فلمَحَتْ
انبهارًا ودهشةً في العيون، وتمكنت بزاويةٍ بصريها من رؤية الأمير
الجميل يُسقطُ كوبَ العصير على ملابسه والذهول يملأ ملامح
وجهه، فتبسّمت..

15

أصغر مدمن سابق ومريض حاليًا بالمصحة، أسمته (صغير) متأخرًا عندما اكتشفت ولعه بالتصغير وهو يصلح أو يُفكك الأجهزة القديمة، ولولا صغيره في كل مكان حتى في الحمام لأسمته "عبقريًا"!

فقد أصلح لباسين المذيع رغم قدمه مؤخرًا عليها مبلعًا من المال، فابتاعت له بعض اللعب والدُمى التي يجبها عرفانًا منها بجميله.. أرادت كسب ذلك العبقري الذي يوفرُ عليها عناء حمل الأجهزة المعطلة وأخذها إلى دكان تصليح صاحبه الجشع، فقد أظهر (صغير) براعة مثيرة للتساؤل بشأن مُستقبله..

- "لو أن أهله تنبهوا له لأدخلوه الجامعة كي يتخرج مهندس إلكترونيات بدل الإدمان الذي أضاع مستقبله!"

كانت تُردّد ذلك بحسرة وهي تُراقب النابغة الصغير نوعاً يفكك
لعبه ويركبها باهتمام ذكي، ذات مرة رآته يفكّك ساعة الحائط
فقالت له غير مبالية:

- أعد تجميعها بعد أن تفرغ!

فأوما برأسه مُصفرًا..

تاريخه مع إدمان (R.D.6) غامض، ثمة شك بأن والدته كانت
مدمنة، فقلدها في إدمانها ليسقط بالخطور.. كلامه قليل وتصفيّره
كثير، يصفر أحياناً غير معروفة ابتدعها عقله، والبنات يقصدنه
لإصلاح أغراضهنّ من مسجلات ودمى، أما الشبان فيطلبون منه
جعل أسلحتهم المزيفة التي يلهون بها أحياناً حقيقية أو شبه حقيقية!

ذات مرة، انصاع لتوسّلات (بلجة)، فزاد من قوة الزنبرك في
مُسدسه، وصنع له سهمًا خشبياً بدل طلقة الشافطة المطاطية، وعندما
خرجوا لتجربته صوّب (صغير) السلاح الجديد نحو جذع شجرة
وضغط الزناد بعد إحكام التصويب..

انطلق السهم لينغرز في الجذع، فتهلّل وجهه (بلجة) مُتناولاً
السلاح الخطر بحذر من قبضة (صغير) قائلاً له:

- أنت عبقرى يا بني!

لم يُبال (صغير) بكلامه، كما لم يُبال بعواقب اختراعاته الوحيدة،
كانت شخصيته غير مبالية، واهتماماته مُتعلقة بتركيب الأشياء
اليديوية والميكانيكية فحسب..

انقلبت حياته رأساً على عقبٍ لدى ابتياع (أزوريت) له دمية بالحجم الطبيعي في عيد ميلاده..

وفي غرفته الجديدة المحتشدة ألعاباً بفكك الدمية، وكما يصنع الجراح مع مريضه ابتداءً (صغير) عملية مُعقدة من الفكّ والوصلِ مُحوِّلاً لعبته الجديدة إلى فوضى حقيقية.. كان يطمح لشيء مجهول، شيء حقيقي يفاخر به..

كان يضع التروس الجديدة من ساعات قديمة وأخرى جديدة بين أضلع الدمية، ثم زوَّدها بمولداتٍ وأسلاكٍ سياراته التي يتم التحكُّم بها عبر جهاز تحكم عن بُعد..

اشتغل شهراً كاملاً كي ينجز تحفته الجديدة والعجيبة، وقرَّر في ليلة من الليالي تجربتها..

أخرج جهاز تحكمه الجديد المزوَّد بسبع بطاريات من الحجم الكبير متأملاً دُميته، ولكي يُخفِّف من التوتر المعتمل في نفسه ابتداءً التصغير مُشغلاً الجهاز..

وهنا فُضت الدمية ببطء، اعتدلت فوق السرير ثم نهضت.. تأملها بسرور مندهشاً مُحركاً عصا التحريك الضئيلة، فبدأت الدمية العجيبة بالمشي وكأنها بشرية!

تصاعَدَ صوتُ تصفيره المتحمس وهو يُراقِبُ ثني جذعها، جلوسها ووقوفها، كما لو كانت إنسانًا آليًا يابانيًا من المستقبل!
بدا (صغير) فخورًا كأب يُراقِبُ طفله يخطو خطواته الأولى،
فهمسَ مُحاولًا ألا يُجنَّ من شدة الانفعال:

- (صغير) لا، بل (صفر) ! سيكون اسمك (صفر) !

كانت البداية سرية بشأن اختراعه، فلم يكشف به أحدًا..
كان يقضي جُلَّ وقته مُعزِّلًا داخل الغرفة برفقة دُميته، يُحرِّكُها ثم
يُفكِّكُها مُحاولًا تطويرها وكأنه يسعى لجعلها بشرية أكثر..
وذات مرة، كان يُجالسُ الدمية مُطلقًا العنان لتصفيره، فخطرت
له فكرة مُسلية..

جلب جهاز التسجيل الذي يتسع لأشرطة الكاسيت المنمنمة،
وظل طيلة اليوم يصفر بشفتيه أبرز الألحان التي تروق له، وبعد أن
فرغ قام بتفكيك المُسجل، وابتدأ عملية فكِّ رأس الدمية كي يُركَّبَ
الجهاز داخله..

في نفس اليوم فرغ من عمله، وبإضافة زُرٍّ جديد لجهاز التحكم
عن بُعد، صارت الدمية تُطلقُ صفيْرًا مُسجِّلًا جعله يتوانب كالقروء
فوق سريره صارخًا:

- فعلتها! فعلتها!

ثم خطرت له في تلك اللحظة فكرة محبولة أخرى، فزار (شاهر) على غير العادة طالباً منه الذهاب معه إلى غرفته، دُهِشَ الأخير لتلك الدعوة غير المسبوقَةِ، لكنه نفذَها عن طيب خاطر..

ومعاً وقفَا قبالة الدمية، و(صغير) يهمس مسيطراً على انفعالاته:

- سمعتُ أنك رسامٌ بارع..

- لستُ بتلك البراعة..

- أريد منك تحويلها إلى نسخة طَبَّقَ الأصل مني.. الوجه! عيناها! أنفها! وحتى شعرها!

- لكن لماذا؟

- افعلْ وسأظلُ مدينًا لك مدى العمر!

تفكّر (شاهر) هنيهة، ثم نطقَ قائلاً:

- أفعلُها مُقابلَ خدمة.. أريدُك أن تصنع لي يدًا مسخيةً من المطاط!

- ماذا؟ لماذا؟

- أنا بحاجة إليها لأمرٍ ضروريٍّ يخصُّني.. اصنعها وسأنفدَ الواجب عليَّ من الاتفاق..

- وهو كذلك..

كادت الدمية تصيَّه بجنون العظمة، وقلَّت مُجالسائه مع رفاقه في
غرفة الطعام، وقلما يغادر غرفته وهو مستحمٌ، وصار يطرد من يجيئه
طالبًا منه إصلاح شيء، لكنه كان يخرج على مضضٍ لإصلاح جهاز
ما بطلب رقيقٍ من (أزوريت) أو آخر حازمٍ من (باسينت) ..

وعند عودته، يرفع يده بإشارة تحية للدمية التي بدت تُشبهه فعلًا،
حتى إنه قام يلباسها ثيابه! قائلاً لها بسرور:

- أرجو ألا أكون متأخرًا على عزيزي (صفرد)!

ظل الحال هكذا حتى مقدم مجيء الذي هدأ به قليلًا وفترت
حماسته بعض الشيء، فخبأ (صفر) دميته في صندوق عريض، وقبل
إقفاله غمغم بشفقة طابعًا قُبلةً على جبهتها:

- سامحي أرجوك يا (صفرد)!

وفيما بعد نسي أمر الصندوق الذي وضعه أسفل سريره ..

لم يتذكره إلا بعد مرور شهر تقريبًا، فاستخرج الصندوق فجزع
وكأنه ينبش تابوتًا بداخله شخص مدفونٌ وهو على قيد الحياة!

كانت الدمية مُغبرةً، فاغرورقت عيناه بالدموع وهو يهمس
ملنعا:

- سامحي يا (صفرد) .. سامحي يا صديقي!

ولإصلاح الغلظة الرهيبة التي اقترَفها بحق دميته، قرر أن يجعل
للدمية حياة خاصة بها، بلا جهاز تحكم عن بُعد!

هكذا باشرَ العمل أيامًا امتدت أسابيع، كانت مُهمّة صعبة
تأرجحت ما بين الفشل والنجاح، وظل على تلكم الحال شبه المينوس
منها مدةً طويلة..

ثم تناسى الموضوع فترةً وطَدَّ خلالها علاقته بوجيهة، حيث كانت
تتملك في غرفتها تلفازًا ذا صورة مُشوشة الإرسال سارع بإصلاحه
لها، فتبسمت قائلة لما تبدت لها الصورة الجديدة حسنة الإرسال على
الشاشة:

- هذا فتي ينفعنا أخيرًا مثل (شاهر)!

فهي لم تكن تستغني عن خدمات (شاهر)، وبالتالي أدرك (صفيّر)
أنها مسرورة منه ما دامت قد شبّهته بشاهر..

وذاثَ ليلة، دخل غرفته بعد مشاركته الجميع الطعام، فقد بدأ
يتحول إلى كائن اجتماعي، حتى أنه خرج للمزرعة كثيرًا، وزار
الإسطبل وأطعم الحصان، وساعد (شاهر) و(هدهد) قليلًا وشاركهما
طعام الغداء..

بدا متعجبًا من مسألة تشاركهما غرفة الحارس، لماذا (شاهر) دون
غيره؟ ومع من؟ مع (هدهد) القاسي صاحب الطّباع الحَشَنَة؟

حتى أثناء الغداء بدا (هدهد) مُبَسِّطًا، كان يقهقه لمزحات (شاهر)
، فأدرك (صغير) أنهما أصبحا صديقين..

بالطبع كان يسمح لشاهر بدخول غرف المصحة والخروج منها
وقتما يشاء، فهل كان يياته في غرفة الحارس اختيارًا منه هو؟

للمرة الأولى يفكر (صغير) بغير تصفير، وبغير أنانية وبغير الأمور
المتعلقة بالعباهة المبتكرة، أو حتى دميته (صفرد)..

دلف غرفته مهمومًا، فوجد كل شيء على حاله.. كل شيء على
حاله! لكن.. أين الدمية؟

تلفت ذاهلًا ليجدها جالسة على المقعد أمام المرأة! فتلون وجهه
وذاكرته تؤكد له قيامه بتمديدتها على سريره قبيل الخروج، فصاح:

- هذا مستحيل! ماذا تصنع هناك؟

بدا ذاهلًا، غاضبًا، ثم تلاشى الدهول والغضب ليحل محلهما
خوفٌ شديدٌ.. لقد غضب لأنه افترض أن أحدًا دخل غرفته في غيابه
وقام بتحريك الدمية كي يُعابِثه..

لكن ماذا لو أن الدمية تحركت من تلقاء نفسها؟ هذا مستحيل..
فقد حاول مرارًا تنفيذ ذلك الحلم لكنه فشل..

قرر نسيان الأمر، فلا بُدَّ أنما مُزحةٌ ثقيلة من (داهوت) أو
(بلجة).. لا شك في ذلك..

لكنها كانت البداية فقط.. فبعد يوم من تلك الحادثة، اعترضت
(غصون) سبيله والغضبُ بادٍ في مُحياها الجميل..

تأملها منتظراً بمللٍ طلبها منه إصلاح شيء ما، لكنها باعته بصفعةٍ
قويةٍ على وجهه!

- "يا وغد، يا صعلوك!"

تحسَّسَ خدَّه بدهشةٍ عارمةٍ، فصرخت في وجهه وأطرافها ترتعدُ
غضباً:

- وأنا التي حسبك مُهذباً! ماذا كنتَ تصنعُ في غرفتي أيها
المنحرف في الليلة الماضية؟!

- أنا لم..

- اخرس! هل أخبرت أحداً بما رأيته؟

- لكنني لم..

نفخت الهواء بصبرٍ متمالكةٍ نفسها، ثم همست بشبه رجاءٍ وتؤدة:

- اسمع، أنا آسفةٌ لأني صفعتك، لكن.. لا تخبر أحداً أرجوك..
اتفقنا؟

كانت الدهشة تغزو تقاسيم (صغير)، وظلَّ محتفظاً بدهشته تلك
حتى بلوغه عُمره..

هناك، وجد (صفر) في مكانه، فاحتقن وجهه وهو يخطو باتجاه
الدمية قائلاً بحدة:

- تتسلى بي يا بن الملعونة؟

ثم صفع الدمية صفعةً قويةً قبل إرقادها على بطنها عازماً أن يزع
أسلاكها ويريح نفسه..

لكنه لم يفعل.. شعورٌ بالوهن خالجه وهو يتأملُ العمل الذي لطالما
افتخر به، فهل يُدمرُه بتلك البساطة بسبب مُزحةٍ سَخيفةٍ أعدّها
واحد من إخوة الإدمان؟

فقرر أن يترثَّ ويراقبَ الدمية..

مرت الأيام و(صفر) مواظب على الدروس والانضمام للبقية
على مائدة الطعام، ولم يحدث أن تغير شيء..

لم يُزل فكرة أن دميته تجول بمفردها بعيدة عنه، أراد التأكد من
حقيقة ذلك، لكن الدمية اللعينة خيبت آماله، ومع مرور مزيد من
الأيام ابتداءً يقتنع بأن الأمر لا يعدو كونه مجرد دُعابةٍ سَمِجةٍ..

إلى أن أتى يوم كان يجالس به (شاهر) في الإسطل، وقد عكف
الأخير على تنظيف الحصان وهو يصغي لثرثرة (صفر) باسمًا، عندما
توقف بغتة عن العمل رافعاً رأسه..

نظر (صفرد) بدوره إلى بوابة الإسطبل المفتوحة على مصراعيها،
فأبصر (ضارية) واقفة هناك والغضب يتأججُ في ملامحها!

- "أهلاً!"

قالها (شاهر) بوْدُ، لكنها تجاهلته مُخاطبةً (صفير) بقولها:

- ماذا كنتَ تفعلُ في غرفتيها؟

- غرفة مَنْ؟

- غرفة مَنْ؟ الآن فقط أدركتُ أنك جبان! لقد كان أنت!

والتصغير كان من شفتيك!

- أنا..

- أيها الوغدا!

وخرجتُ ووجهها مُحترقٌ من شِدَّةِ الغضبِ، فتأملَ (شاهر)
صاحبه متسائلاً:

- ما الحكاية؟

عصَّ (صفير) شفته السفلى قبل أن ينطق بمرارة:

- فعلها الحقير مُجدِّداً.. لكنني سأدمِّره هذه المرة!

وخرج راكضاً بسرعة قاصداً غرفته.. فما إن ولجها حتى اكتشف
اختفاء (صفرد)!

ناداه باسمه، وكأنه سيستجيب وهو يبحثُ عنه في كل ركنٍ
وزاويةٍ من الغرفة، وبعدها خرَجَ يُهرُولُ كالجئون حتى التقى بوجهة
التي سارت حاملة بعض الثياب المطوية، فاستوقفها متسائلاً بلهفة:

- أرايتِ (صفرد)؟

- مَنْ؟

- دميقي!

انبعث صوت طقطقة من حلقتها مدمدمة بازدياء:

- اخجلُ من نفسك! في العشرين من عمرك وتلهو بالدمى

كالبنات الصغيرات؟

تَرَكَهَا مُواصِلاً هَرولته وذَهْنه مُحْتَشِدٌ بِخِیالات لا حَصَرَ لها: "ماذا
كُنْتَ تَصْنَعُ في غُرْفَتِي؟" "ماذا كُنْتَ تَصْنَعُ داخلَ غُرْفَتِها؟" "لِمَ فعلتَ
ذلك؟" "لِمَ صنعتَ ذلك؟" "أنتَ يا (صفير)؟ أنتَ.."

توقَّفَ هُنيئةً قبل أن يَهْمِسَ لِنَفْسِهِ مُرتَجِفاً:

- يَجِبُ أن أجده قَبْلَ أن يورطَنِي في مُصيبةٍ جديدةٍ!

16

(ضارية) البنت القوية ذات الملامح القاسية طفيفة الأنوثة التي أتت بعد (لؤلؤة) ، والتي أخذت على عاتقها رعاية (لؤلؤة) طريحة الفراش، لا تخرج ولا يدخل عليها سوى فئة قليلة من البنات والمرضات..

لا أحد تفهّم سرّ الصداقة العجيبة والمتينة التي توثقت بين الاثنتين، وحدث ذات مرة أن لمّح (داهوت) لبلجة ولؤلؤل باستهزاء جامع أن تعلق الفتاتين بعضهما ببعض لا يخلو من ريبة، سألاه عما يقصده فغمغم مُتهكماً:

- أخشى تعلقهما ببعض إلى حدّ الزواج!

تبسّمًا مُندهشين.. الواقع أن تلك الفكرة قد راودت الأغلبية من قاطني المصحّة، حتى أن (أزوريت) سألت (ضارية) بابتسامة مُخرجة لما جالستها:

- كيف (لؤلؤة)؟

- تتحسنّ..

- ألا يمرُّ يومٌ دون أن تُريها؟

- إنّها صديقتي الوحيدة..

- ألسْتُ صديقتك كذلك؟

- لا ذت (ضارية) بالصمت..

- "ألا يروقُ لك فتى مُعين؟"

سألتها (أزوريت) باهتمام جليّ، ردّت عليها (ضارية) بخشونة لا تناسبُ أنثى:

- لا..

- ولمَ يا (ضارية)؟

- لأنهم أوباش حقى..

- أيشمل تعميمك زوجي؟

هزّت رأسها قائلةً بلا مُبالاة:

- قلت رأيي وأرجو أن تحترمي..
- إذا ظلّ هذا رأيك فقد لا تتمكّني من الزواج..
- رسمت بسمّة خجولاً على شفّتها الغليظتين مُغمّمة:
- هذا آخر ما يشغل بالي!
- من المفترض أن يكون أول ما يشغل بالك ككل فتاةٍ طبعيةٍ..
- إذن أنا لستُ طبعية!
- لم أقل هذا وإنما..
- قاطعتها الفتاةُ الحشنةُ بضجرٍ:
- أنا من أقول ذلك عن نفسي ولا أُلقي بالآ لأحد!
- اكفهرُ وجه (أزوريت) من وقاحة الفتاة، لكنها بدت باسمّة مُتماسكة وهي تتساءل بلُطف:
- وعندما تتزوج (لؤلؤة)؟ أنتِ لن ترعيها مدى العمر؟
- تلوّن وجه (ضارية) وهي تَهْتَفُ بسُخط:
- (لؤلؤة) لن تتزوج أبداً ما دامت تُحتَضِر.. أليس كذلك؟
- و(لؤلؤة) كانت تُرْحَبُ بصدّاقة (ضارية) الأخوية لها مذ سقطت أسيرة الفراش اللعين..

حقًا لا يوجد الكثير مما يُقال عن (ضارية)، كانت كالقديسة
بالنسبة للؤلؤة، تسهرُ على رعايتها وتحميها وإطعامها ومسامرتها
كي لا تضجر، أحيانًا تحملها وتضعها على مقعد في الشرفة كي
تستنشق الهواء المنعش، وتُجالسها ساعات طوال، ثم تُفارقها لجلب
وجبات الطعام..

وعند حلول الليل تنام معها في نفس السرير، وأحيانًا تغني لها حتى
تنام..

كانت (ضارية) قديسة..

لكن (لؤلؤة) اعترفت في قرارة نفسها أنها لا تستحق حتى
شفقتها..

17

ذات مرة، أَرْجَحَهَا قَلِيلًا قَبْلَ أَنْ يُوقِفَهَا، فَهَتَفَتْ مُعْتَرِضَةً:

- لِمَ تَوَقَّفْتَ؟

- (ظلال) أنا..

- أَنْتَ مَاذَا؟

- أَنَا أَحْبُكَ!

قَالَهَا وَوَجْهُهُ يَتَعَرَّقُ بِكثَافَةٍ، حَتَّى زَالَتْ كُلُّ الْمَسَاحِقِ الَّتِي وَضَعَهَا عَلَى نُدْبَتِهِ الْقَبِيحَةِ، فَتَلَفَّتْ بِصَمْتٍ.. لَمْ تَخْبِرْهُ أَنَّهُمْ جَمِيعًا هُنَا مَجْرَدِ مَرْضَى فِي طَوْرِ النِّقَاحَةِ، وَلَمْ تَقْرَأْ مِنْهُ وَمَنْ نُدْبَتِهِ رَغْمَ الْإِغْرَاءِ الْوَاقِعِ فِي نَفْسِهَا تِلْكَمُ اللَّحْظَاتِ، الْحَقِيقَةُ أَنَّ الْأَمْرَ أَسْعَدَهَا قَلِيلًا فَفَرَّرَتْ أَنَّ تَتَسَلَّى بِعَوَاطِفِهِ..

هكذا ردت عليه هامةً وعيناها مُسبلتان:

- استغرق منك الأمرُ مُدَّةً طويلةً.. وأسفاه!

- ويلي! على ماذا؟

- قلبي ملَّكٌ لغيرك.. آسفةٌ يا (بلجة)!

ثم فُرت من ناظره مُهتنةً نفسها على النجاح الساحق الذي حققته، غير آبهةٍ - أو عالمةٍ - أنها صدمته صدمةً لم يستشعر لها مثيلاً..

كان الغرور صفةً رئيسيةً من صفات (ظلال) الحسناء، وربما كان لها بعضُ الحقِّ في غرورها، فهي هيفاء القَدِّ، ذاتُ شعْرٍ مُتموِّجٍ وأنفٍ دقيقٍ وشفَتين أكثر دقَّةً، كانت ترنو لكل بعينين غامضتين تبعثانِ بسحر مشوق، وحديثها ذكي لا يخلو من دهاء الإناثِ الحاذقات..

لم تكن كذلك يوم أتت أول مرة، بل إن قلبها تعلقَ نوعاً ببلجة بداية، مرضى الإدمان الذين ما زالوا بضعفهم قبل تماثلهم نوعاً للشقاء..

إلى جانب غرورها كانت (ظلال) غيوراً، ولأنها كذلك فقد قررت تحويل غُرفتها إلى أَجمل غُرفةٍ في المصحَّة، بعدما رأت التنسيق الدقيق والبارع لغُرفة غريميتها (ذهب)..

الواقع أن لها ذوقاً سيئاً مخالفاً لمخيلتها، فقد كانت الغرفة التي في
مخيلتها أجمل من تلك التي جهزتها بنفسها، أي أنها لا تملك ذوقاً في
المخيلة فحسب، بل ذوقها قابل للتنفيذ على أرض الواقع..

وعندما تلقت عرض (ذهب) الخفي بالانضمام للنادي السخيف
لم تتردد، كانت تكرهها، لكنها كذلك تُكنُّ لها إعجاباً خفياً،
بتصرفاتها القريبة من تصرفات الأرستقراطيات، فقررت الالتصاق بها
والتعلم أكثر..

عَلِمَهَا الغُرُورُ احتقار الآخرين، وبخاصة (قبرة) التي كانت تنهشها
بلسانها نَهْشاً كلما رأتها تأكلُ كبقرةٍ جائعة، مَنْظَرُهَا وشفتاها
ملطَّختان بالكاكاو بدا مُبْتَذِلاً ومُثِيراً للقرفِ لأقصى حدٍّ..

وهناك (حلزون).. يا له من اسم! ويا له من مظهر! وكأن
مُنْغَصَاتٍ فَتَى مُعَاكِ تَنْقُصُهَا، ماذا عن (تُولُول) المقرف؟

وأخيراً (بلجة).. الفتى صاحب الثدبة القبيحة.. رباها كيف
تتخلص الفتاة من العلقَة الثَّتْنَةِ؟ منظره بالقرب منها كفيلٌ بإصابتها
بالصداع وأعراض القيء..

ثم تنظرُ متأمِّلةً، فتجد بعضهم غير منفيرين إلى تلك الدرجة،
فهناك (داهوت) الجميل، يتصرف كالأمراء تماماً، هندامه أنيقٌ
نظيفٌ، ومظهره رائعٌ حين يمتطي الجواد..

و(شاهر) قويّ لا يخلو من وسامة، أحياناً تسرح في منظره الأسر وهو منهمكٌ بتنظيف الحصان ويؤثر الآخرين على نفسه ويساعدُهم لتجاوز همومهم..

وبين الأمير الجميل والعامل القوي تسرح بما التّخيلات العجيبة، فترى نفسها أميرةً مخطوبةً للأمير، لكنها تعيشُ حكاية حُبّ حتى التّخاع مع سائسه!

أظهرت (ظلال) تفوقاً ملحوظاً في اللغة الفرنسية، أرادت تعلمها بشدة، فهي لغة مدام بوفاري التي استعارت روايتها من مكتبة (حلزون) المقعد، لم تكن قارئة بطبعها لكنها أحبت تغذية مُخيلتها ببعض التفاصيل التي تُحبّها، وعندما تُطالعُ كانت تتخيّل بأكثر مما تقرأ، مُتخيلةً نفسها مدام (بوفاري) بكل الحبّ والجمال والخيانة..

تدرجياً وجدت نفسها تحلم بالشّائين، لكل واحد صفاته الخاصة الأسرة، لو كان الأمر بيدها لصنعت كمدام (بوفاري) تماماً، تتزوج (داهوت) وتبدأ علاقةً كالحلم مع (شاهر)!

يا له من طموح يُراوِد فتاةً في الثالثة والعشرين من عُمرها!

لكن طموحها الخيالي لم يتوقّف عند حد، فهذا هو الذي تُفكّرُ بأمرٍ جديدٍ وغريب.. ماذا عن زوج (أزوريت) الطيب؟

رأته مرة واحدة واقفاً يحدثُ زوجته، كان وسيماً أشيب
الفؤدين، يتمتع ببنية سليمة ودماء الرجولة الحارة تتدفق في عروقه
كما صور لها خيالها الجامح، كما أنه تحدثت بارعاً ومرحاً، لا يهرف
بما لا يعرف كديدن الأغبياء من مرضى المصححة..

ولما راودت ذهنها صورة خاطفة سريعة للممرضة الرقيقة،
تبسّمت هامسةً لنفسها باستخفاف:

- لتجد لنفسها رجلاً آخر فهي لا تستحقه!

هكذا وبكل بساطة، كانت تُطلق الأحكام جزافاً دون مراعاة
لمشاعر أحد وبأكبر قدر من الاستخفاف، كانت فكرتها المتكونة حول
العالم أنه يتألف من الأثرياء الذين يحتفلون طيلة الوقت.. وألا شواغر
لفقير أو محتاج، قد كانت تزدريهم حقاً، وأشنع كواييسها أن يحلّ
بها ما يحلّ بهم..

18

إذا كانت (ظلال) مُتَكَبِّرةً ومغرورةً في العلن فغصون مثلها لكن في السرّ.. كانت حاذقة لا تُجاهرُ بمشاعرها الحقيقية، تمنحُ مَنْ تَكْرَهُ أعذبَ بسمة، وتمدُّ يَدَ العون لمن تُريدُ تحطيمَهم راسمةً خُطَّةَ ذات أبعادٍ مُستقبليةٍ مضمونة النتائج!

عندما انضمت لنادي (ذهب) وضعت في رأسها فكرةً مُعينةً لم تحذِ عنها بتاتاً، أرادت جعلها خاضعةً لإرادتها هي، وكم من مرة أشارت عليها - بلُطفٍ - أن يغيرا مِنْ هذا أو يفعلا ذاك، فكانت (ذهب) تستجيبُ بحماسةٍ مُنقطعة النظر لأفكارِ العُضوةِ الأملعية، غير مدركةٍ أنها في قرارةِ نفسِها تسخرُ منها..

كانت لغصون فتنةٌ خاصة، فهي إلى جانب جمالها مُغريةٌ لأقصى حدٍّ، وقد كانت أجراً الفتيات في الملابس، لكنها أكثرهنَّ لبافةً بالتصرف ظاهرياً..

كانت ترمقُ الفتيان بعيني الرغبة، تحلم بكل واحد منهم، مُتخيلةً أسلوبه الخاص مع الإناث في المُعاشرة، حتى (حلزون) المسكين تخيلته يحاول مُغازلة أنثى وهو على مقعده الكئيب!

في غرفتها وفي أكثر الليالي الباردة تقفُ بغير احتشامٍ أمام المراة مُتخيلةً نفسها أكثر إثارةً، راودتها أشدُّ الأفكار عجبًا بشأن الحِمْل، فكانت تتخيلُ بطنها مُكوَّرًا من أثره، وعلى عكس أكثرهنَّ وجدت ذلك أكثر جمالًا وأشدَّ إغراءً بالنسبة لجسد أنثى!

خرجت ذات يومٍ من غرفة (ذهب) بعد اجتماعٍ خاصٍّ بالنادي، يمكن للكل معرفة ذلك من قدميها الحافيتين، فوجدت نفسها مُتضايقَةً بعض الشيء، فكرت.. لِمَ لا تخرج قليلًا لتتنسَّم الهواء؟

كانت تمُتُّ المزرعة مَقَتًا غريبًا، لم تحب جو الطبيعة الذي بدا أقرب للمنفى بالنسبة لها.. لماذا لا يختلطون بالناس؟ لماذا لا يمضون مزيدًا من الوقت مع الأصحاء؟

والجميع في ملهاةٍ عن تلك الأفكار، لا يحسبون حسابًا لأي شيء، إنهم أغبياء حَمَقى، ألا تُراودهم ذات الأفكار؟ ألا يخشون على مُستقبلهم من الضياع مُجددًا؟

ذكرياتها مع الإدمان مُؤلمة، والدمعُ انغمست به كي تناسي عذاباتها مع والدها المُدمن أيضًا، ذاك الوالد الذي لم يكفَّ ليلةً واحدة عن دخول غرفة ابنته والاعتداء عليها، حتى دفعها هي

الأخرى في هوة الإدمان الجهنمية، مُستخدمة أسلوب النعامة في دفن
الرأس داخل الحفرة هرباً من الخوف والخطر المحدث المروع..

ظلت تُفكّر وتفكّر حتى مالت الشمس الحمراء في رحلة الغروب
الأزلية، وعندئذ وجدت السكينة طريقاً لفؤادها، وبسمة واجهة قالت
لنفسها:

- لا بأس، أعرف كيف أتدبّر أمري..

ولأنها تعلم، سقطت أول ما سقطت مع (داهوت)!

استسلمت له في حفل (أزوريت)، ثم صارت تُسلم نفسها له
أغلب الليالي مُحاولَةً إقناع نفسها أنه يُحبّها..

ظلت العلاقة سرّية، حتى استيقظت ذات ليلة لتجد شخصاً عجيّباً
يُراقبهما مُستتراً بالعتمة مُطلقاً صفيراً مألوفاً!

- "(داهوت).. استيقظ!"

تجاهلها الأمير الجميل مُتقلّباً في فراشه، فالتفت صوب ذلك
الشخص صائحةً به بنبرة مُختنقة:

- "مَنْ هناك؟ أهو أنت يا.."

لكنه لاذ بالفرار قَبْلَ أن تقول أو تصنع شيئاً، فعاودت وَضَعَ
رأسها على الوسادة مُجدّداً، وأفكارها المُشتتة تتلاطم بين ثنايا عقلها
دوغمًا هواده..

19

- "أريد الانضمام إلى نادي الآنسات الخافيات!"

كان منظر (قبرة) مُثيراً للشفقة، فهي مُمتلئة ذات شفتين مُلطختين بالخلوى طوال الوقت، و(وجيهة) تصفها بالحيوان القذر لكثرة الفتات وبقع الزيت على مريولتها..

اعتقد الجميع أنها شرهة بطبيعة الحال، لكن الفتاة وجدت في الطعام حلاً لكل مشكلة مُستعصية تُمرُّ بها، منذ الصغر كانت تأكلُ بنهم إذا خافت أو فرحت، وعندما فاجأت الدورة الشهريةُ جسدها الممتلئ التهمت نصف درزينة من ألواح الشوكولاتة بجنون، وكأنها حسبت أن موثها آت، كانت مصابة باكتئاب لا علاج له..

عندما حضرت للمصحة كانت كالغصن الهش، غيلة تمامًا وشاحبة، فما إن تماثلت للشفاء حتى تحولت إلى حيوانٍ يُهم أكل، فأنقلبت إلى ما يُشبه برميلاً متقللاً!

الفتيات يسخرن منها، لكن (ناردين) قالت لها ذات مرة إنها صديقتها وبأنها تُحبها، ووجدت (قبرة) نفسها مُتعلقة بصديقتها إلى حدّ الاختناق! حقًا كانت (قبرة) مُتعبة، هكذا تفكرت (ناردين)، لكن طيبة قلبها تشفع لكل تصرفاتها المقرّرة..

لم تحتفظ (قبرة) بسرٍّ واحد بين تجاويف رأسها، أسرت بكل صغيرة وكبيرة لناردين، ولعل أخطر سرٍّ لها كاشفتها بميلها الشديد تجاه (شاهر)!

بالطبع تضايقت (ناردين) من الأمر رغم مدى تفاهته، فقبرة ليست نداءً لها أو لغيرها، ومع مرور الوقت ابتدأت بالإشفاق عليها أكثر، حتى أنها ذات مرة أخذت تُمشطُ لها شعرها الحشن أمام المرأة هامسةً بأذنها بابتسامة:

- حتى تعجبي (شاهر) أكثر!

فتسود وجنتا الفتاة خجلاً، فتزدادُ شفقةً (ناردين) عليها وتعلقها بها..

في الدروس تحاول (قبرة) الجلوس قريبةً من (ناردين) كي تُعشّ منها، وفي المساء تعاورُها الأخيرة في حلّ الواجبات، بدت الفتاة ذات

استيعاب بطيء ومتعثرة في التعلم، وبدت حياتها مُندرة بالعواقب السيئة وكثرة المشكلات..

لكن (قبرة) لا تدري عما يدور حقيقة في العالم، ولو سألتها عن أقصى طموحاتها ل قالت بشوق وهي تلعق شفيتها السفلى بلسانها من بقايا القشدة:

- أريد الانضمام إلى نادي الأنسات الخفيات!

لعلها كانت أجراً خطوة قامت بها الفتاة التي هوى الأكل، فقد دنت بخجل من (ذهب) وبتردد همست:

- إذا نفذت الشرط..

تأملتها (ذهب) مستخفة، وباستهزاء قالت لها:

- ماذا؟

- إذا نفذت شرط الانضمام للنادي فهل..؟

- طبعاً طبعاً!

وتبسمت مفكرة.. سيكون ذلك مسلياً في الواقع، وغمرت لصديقتها..

ركضت (قبرة) والبشرُ بادٍ في وجهها، ففقهت (ظلال) قائلة:

- عسى ألا تسحق شاباً بقدمها الثقيلة كفيل!

- من قال إنما ستجد من يوافق على مطلبها السخيف؟ هي
منبوذة تماماً من جميع الفتيّة!

- ربما على سبيل التسلية يوافق أحدهم..

- تصير كارثة حقّة، ونصير مُلزَمات بضمّها!

- يا له من كابوس! مستحيل أن نفعل!

لم يساورهن شكٌ بحياة أمل الفتاة المنتظرة، حتى وإن كان الأمر لا
يعدو مجرد طُرفة، لن يقوم بها أحد لأن الفتية قد غضوا الطرف عن
(قبرة) منذ الوهلة الأولى..

ولكن في اليوم التالي، وبينما كانت فتيات النادي الثلاث
جالساتٍ يُثرثرن، فوجئن بقبرة تدخل مُتهللةً ويدّها تشدُّ (شاهر)
شخصياً من ذراعه!

احتقن وجه (ذهب)، وبدهشة تساءلت (غصون) كالماخوذة:

- ما هذا؟

ابتسم (شاهر) مُداعباً مؤخر عنقه بأنامله، في حين صاحت (قبرة)
بشوقٍ طفولي:

- وافق (شاهر) على الخضوع! وسأنضمُّ للنادي أخيراً!

تساءل (شاهر) وهو لا يكفُّ عن الابتسام:

- ما المطلوبُ مني؟

- فقط تمدّد هنا..

وصنّع كما طلبتُ، فوضعتُ قدمها المكتورة على صدره بشبه
الندفاع، حتى أنه شهق ضاحكاً، مما دفعها للقول بعجلة ووجهها يكاد
ينفجر من شدة احمراره:

- باسم عضوات النادي الجميلات أعلنك حارساً لي!

- وأنا سعيدٌ بهذا الشرف!

كان يهيمُ بالنهوض عندما هتفت (غصون) فجأة:

- هذا لن يكون..

تأملها الجميع مندهشين، فصاحت بلهجة المنتصر مخاطبةً
(ذهب):

- ألا ترين؟ لا يحقُّ لها استخدام القسم مع حارس استخدمته

إحدانا سابقاً، عليها إيجاد شخصٍ جديد!

اكفهر وجه (قبرة) مُتسائلةً في حيرة:

- ماذا تعنين؟

أسرعت (ظلال) تقول باشمزازٍ شامتة:

- (ذهب) اختارت (شاهر) حارساً لها من قبل، لذا يجبُ عليك
إيجاد شخصٍ آخر غيره!

ونظرت إلى (ذهب) متبسمةً بظفر.. لكن هالها أن تجدها صامتة
ووجهها مُطرقٌ بذلٍ وانكسارٍ..

خَيَلَ إليها فهم اللعبة أخيراً، في حين، غمغم (شاهر) رافعاً كفاً
مهدنةً:

- لحظة يا بنات.. أنا لم أخضع إلا لمطلب (قبرة).. لم تقصدي
إحداً كن من قبل!

20

نظرت (لؤلؤة) عبر نافذتها، فرأت عصفورًا مُلوّنًا يتشبّث بمخاليه
الدقيقة فوق عُصن شجرة مُطلقًا لعقيرته المبدعة العنان..

همست بافتتان:

- سيكون يومًا رائعًا!

سعلت قليلًا، فدلقت عليها (ضارية) قانلة لها بقلق:

- أرى أن النوبة داهمتك مجددًا..

تأملتها (لؤلؤة) بأسى، ثم قالت لها باسمّة:

- لي عندك رجاء..

- أي شيء..

- أريدُ رؤية (شاهر)!

تبدت حيرةٌ عارمةٌ على سحنتها، فكتمت (لؤلؤة) فمها براحة
يدها كي تمنع مزيداً من السُّعال..

ساد الصَّمْتُ دقيقةً، ثم قالت (ضارية) لها بخنان:

- وهو كذلك أيتها الملاك..

- بل أنتِ الملاك! اقتربي كي أقبلكِ..

دنت (ضارية) مُقربةً وجنتها من الفتاة الضعيفة، فلثمتها الأخيرة
هامسةً:

- ولا تدعي أحداً يراه يدخل..

- وهو كذلك..

غابت (ضارية) مدةً تبدت كالدهر، وحاولت (لؤلؤة) الترسية عن
نفسها بمراقبة النافذة، وهي تتناول مُشطاً خشبياً ابتدأت تمشط به
شعرها الطويل الناعم مُدندنةً بدلال..

عاودها السُّعالُ المحموم، فتماسكت قَدْرَ استطاعتها قائلةً بضيقٍ
صَدْرٍ وقد احمرَّ وجهُها احتقاناً:

- ليس بعداً! ليس بعداً!

نظرتُ عبرَ نافذتها، فرأت العُصفور قد طار وُغصن الشجرة
يتروّج من هبوب الرياح الباردة، لقد تغير الجوُّ بسرعةٍ مُخيفة..
همست بأسى:

- ليس بعد! ليس..

وهنا، سمعت صوتَ طرقاتٍ منتظمةٍ قبل أن يدخل (شاهر)..

الجزء الثالث

1

- "مَنْ كَانَ مِنْكُمْ بِلَا خَطِيئَةٍ فَلْيَرْجُمْهَا بِحَجَرٍ!"

يوم الجمعة بارد الطقس نسيباً..

والمسجد الواقع وسط بلدة "خرم الحنطة" كان الملاذ في وقت الصلاة لكل ساع لها أو للدفع.. عدد المصلين ينخفض مع مرور الشهور والسنين، فالتجار خرجوا بتجارهم للخارج، حيث العاصمة والمدن الأخرى، فالرزق في البلدة بات شحيحاً، والنفوس باتت تخشى المستقبل أكثر من الله، فحتى المطفف والعشاش والنصاب صار المستقبل يمثل هاجساً لهم في بلدة نائية لا مستقبل لها..

داخل المسجد يستطيع الغريب أخذ فكرة عامة عن تعداد السكان ومدى تمسكهم بالتعاليم الدينية، فإذا عَقَدَت مُقَارَنَةً ما بين عدد المنازل وعدد المصلين الذين يؤمُّون المسجد لوجدت شحاً ملحوظاً، لا

وجود لمساجد أخرى قريبة، والمسافة بين البلدة وأقرب مدينة يربو عن المائة كيلومتر..

أصبحت الخطبة مُكرَّرةً بشكل ملحوظٍ ومُضجِرٍ، فالإمام لم يعد يهتم بكتابة خطبةٍ جديدةٍ، كان يبحث في المسودات عن خطبة مؤرخة بتاريخٍ قديمٍ، يستعملها بقلبٍ مُطمئنٍّ لأن الناس تسمع من أذنٍ وتخرج ما تسمع من الأذن الأخرى، ولم يكثر لذلك قط، فما دام احترامه قائماً وعدد من المصلين موجودن في المسجد فلا ضير مما يحدث..

في رمضان يحضرُ قاطنو البلدة في المسجد بنفس الكيفية تقريباً، لا مظاهر فرحة بقدوم الشهر الفضيل، لا فوانيس رمضانية بيد الأطفال في الطُرقات، لا بهجة ولا سرور، بل ازدياد مفجع في أسعار السلع التموينية، وتهديدات صارمة من الآباء تجاه الأبناء إذا لم يهتموا القرآن الكريم قبل نهاية رمضان، أو أهملوا العشاء والتراويح جماعةً في المسجد، كل تلك الصرامة ظاهرية بالطبع، إذ سرعان ما يتناسى الآباء كل وصاياهم، وينشغل الأبناء باللهو التام الذي أبعدهم كل البعد عن دينهم قبل دراستهم..

أمام البيوت ذات الجدران المتصدعة تجد الثفايات مُتراكمةً كالنلال حيث اتخذت المهررةً ملاعبها، والرائحة لا تُطاق طبعاً، لكن الأهالي اعتادوها كما اعتادوا رائحة المجاري العظنة، وفي فناء كل دار

تقريبًا لا بُدَّ من عترة أو تيس ليزيد الرائحة سوءًا، وإمعانًا في القُدارة لا بأس من قن دجاج فوق السطح أو بيت للحمام..

في المدرسة القريبة تجد كتابات غايّة بالبذاءة على الجدران، كلها وصف لأعضاء النساء المثيرة أو الرجال الحساسة، ولكن ما يثير الاستغراب حقًا هو عدم إزالتها طيلة الوقت، رغم أنها جُدران مَقَرَّ لتخريج أجيال! لا مُدرّس ينطق، ولا حتى فَرَّاش، حتى النسوة يمررن من أمام الجدار ويظالعهن بلا مبالاة!

لم تكن السوق رحبة وافرة البضاعة، وقبلما أن تجد النسوة يتسوقن داخله من كثرة الفتية الذين يترصدون أية فرصة كالذئاب الشَّبَقَة، يتركون أفواههم مفعورة كلما وقعت أبصارهم على كعب، ويلهثون بانتشاء إذا ما لاح كاحلٌ من بين ثنایا عباءة أو فستان، في حين تظهر الشرطة في فُرصٍ نادرة جدًّا، فعدهم شحيح ورواتبهم غير مشجعة، لكن رئيس المخفر شخص من المُعتدِّين بأنفسهم كثيرًا إلى درجة الخيلاء والزهو، وكثيرًا ما كان يخرج فقط لاستعراض بذلته الرسمية الأنيقة والنظيفة، والتي تحرص زوجته صغيرة السنَّ على نظافتها وإلا حطم رأسها بكعب مسدسه الأسود اللامع.. كانت فيما مضى طالبةً مجتهدة تحبُّ القراءة والأزهار، ثم مقتت ذلك كله عقب ارتباطها برئيس المخفر الذي يكبرها بعشرين سنةً على الأقل، فأتم الزواج عملية غَسْلٍ دماغها لتصبح بعدها مُواطبةً على إعداد طعامه،

وتنظيف وكي لبسه، وغسل كاحليه بالماء الساخن والملح، والاستلقاء
في فراشه لإرضاء حوائجه إلى حدّ الهوس!

أما عن المستشفى فحدث ولا حرج.. مجرد مستوصف صغير
يُشرف عليه طبيبٌ هزيلٌ خشنُ الذقن سميك النظارات، أتى للبلدة
قبل سبع سنوات ابتعاداً عن ضوضاء المُدن وتحضرها الزائف، لكن
لحسن الحظ أن كفاءته معقولة، كما أنه رجل صموت نظراته مفعمة
بالحزن طيلة الوقت..

في المساء، تجتمع الهرة عند مُستودع النفايات لتبادل الشكاوي
حول بخل أهل البلدة - أم تراه الفقير؟ - ، فالجوع دفع الحيوانات إلى
التهام بعضها البعض، ومن عجائب ما وقع في البلدة أن الهرة
تكاثر ذات مرة على كلب حتى أتت على عظامه قبل لحمه!

وقد قال المؤذن مرتجفاً لما وقع بصره على المشهد الرهيب:

- لا بد أن القيامة دانية.. هذه من علامات قيام الساعة لا ريب!

وعندما أبصر (مشهراوي) الحلاق ذلك المشهد تقلص وجهه
بأقصى آيات الاشتزاز، فحمل سطلاً وقذف ما به من ماء قذرٍ على
المخلوقات ذات الفرو المتسخ والمخالب الحادة صائحاً:

- هش! هش! عليكم لعنة الله!

ولما فرغ من مهمة التنظيف تلك عاد إلى زبونه (جعفر) الجزار،
حيث كان يعكف على حلاقة ذقنه ذي الشوك بالموسى عندما
استوقفه مشهد الهرة المُشردة آكلة لحوم الكلاب الضالة..

- "لم يبقَ إلا أن نأكل نحن البشر لحم بعضنا البعض.."

- "معقولة، كل شيء ممكن في آخر الزمان.."

ثم نسيا تلك السيرة لما أتى ذكر (راجح) على لسان (مشهراوي)
الخلاقي:

- البغل ابن ال...! يفكر بالزواج مرةً رابعة!

- الله لا يشبعه! ألا يكفيه أن زوجه الثالثة كانت من بنات
الهُوى؟

- عينه على البنات الصغيرات، زوجه الأولى هَرَمَةً، والثانية
ولجت سن الكهولة، والثالثة لم تعد تملأ عينه..

- يا بخته! عنده مال يسد عين الشمس، فليصنع ما شاء في دنياه،
مَنْ يُوقِفُهُ؟ حتى أولاده لا يستطيعون فعل شيء له..

- زير النساء السكير! مَنْ يُصدِّقُ أنه كل عام يسافر للحج؟

- وحده الله العالم بسرائر النفوس..

والمُضحك في الأمر فعلاً أن الأول كان معاقراً للخمر هو الآخر،
أما الثاني فمن رُواد ملهى ليلي في العاصمة، حيث يعاشر راقصة في
التاسعة عشرة من عُمرها!

يُمرُّ من أمام الدكان الحاج (جسار) البقال، يُسلمُ عليهما فيردان
التحية بأحسن منها، ومن ثم يأكلانه بالستتهما:

- المنحط المطفف بالميزان! الله لا يشبعه فلوس لا دنيا ولا آخرة!

طبعاً لا يسمعهما الرجل وهو يشقُّ طريقه للمسجد بنعلين مُمزقين
علامة البخل، وعصا أبنوسية جاءت هدية من ابن عمه في العيد الكبير
لما زارهم قبل سنوات..

في الطريق يقع بصره لا عرضياً على شباك دار آل (مسعود) ،
فيلمح ابنتهم (دعة) وقد مرت مرتدية قميص نوم سيقطنُ مخيلته إلى
يوم يبعثون، فيشع فؤاده أهراً بنور الشغف الحيوي، وتصر أغلى
أمنياته الارتباط بذلك الكائن الفاتن غزالي الخطوات بدري الملامح،
الذي أنساه - أو جعله يتناسى - العجز الذي كان يعانيه وزوجه..

ولكن إلى أين كانت وجهته بحق الله؟ أجل.. كان ذاهباً إلى
المسجد ليصلي الظهر..

- "مَنْ كَانَ مِنْكُمْ بِلَا خَطِيئَةٍ فَلْيَرْجُمْهَا بِحَجَرٍ!"

خطيب الجمعة وإمام مسجد البلدة الشيخ (جبران) رجل ممتلي
مركزاً وبدناً، يرتدي بشتاً بنيّاً، ويطلق لحية جبارة جعلته شبيهاً
بالمسلمين الأوائل في يشرب..

لا أحد يُسأل ذاته عن جوهر الرجل ومعدنه، الجميع بلا استثناء
كانوا يحترمونه ويهابونه ويشاورونه في كل صغيرة وكبيرة، سواء
أكان الأمر متعلقاً بزيمة أو حتى باستشارة طبية..

لكن نجم الرجل خَفَتْ في الآونة الأخيرة مع توالي الانتكاسات على البلدة، من ناحية الرزق طبعاً، فلم يتوان بعضهم عن لعن الرجل وشتمه في السرّ، على الأقل لم يجاهر أحد بعد بكراهيته للرجل..

كان يحمل جسده الضخم، ويسير مُسَبِّحاً بِحُيَّاتٍ من العقيق، مسبحته من ديار المسجد الحرام، كذلك السواك الذي لا يُفَارِقُ جيبه العلوي والذي ينظف به أسنانه على الدوام، مُتَزَوِّجٌ لكن بلا أبناء، وقلما يظهر اشتزازاً للظروف القاسية التي أصابت البلدة، حتى أنه لم يأمر في خطبة من خطبه الناس بإماطة الأذى عن الطريق رغم مظاهره التي صارت كعلامة تجارية للبلدة، وبالطبع لم يأمر بإزالة العبارات البذيئة من على جدران المدرسة، فصارت معلماً سياحياً هي الأخرى..

الأجهزة الكهربائية في المسجد كلها مُعْطَلَةٌ، حتى مُكَبِّرُ الصوت، لذا كان يجبُ على المؤذن صعود سلم المئذنة ورفع الأذان بعقيقته المبحوحة على الطريقة القديمة، إلا أن حادثاً أصابَ البائس في أحد الأيام، فقد زَلَّتْ قدمه وسقط فَكُسِرَتْ ساقه، وعقب تعافيه ورجوعه أمره الشيخ بأخذ حَيْطَتِهِ وحذره لدى ارتقائه الدرجات الحَظِرَةَ..

- "لكن يا شيخ ساقِي لم تتعافَ تماماً، أخشى أن.."

رَدُّ عليه الشيخ (جبران) عابساً:

- إذن فاترك عملك هذا لآخر يستطيع القيام به، لا يكلفُ الله

نفساً إلا وسعها.. ما فاندُئِكَ إذا لم تتمكن من رفع الأذان؟

حتى الصبيان كفوا عن الهرب من أمامه كلما مرَّ كما كانوا
يصنعون سابقًا، يشتمهم ويعايرهم بذويهم الذين لم يحسنوا تأديبهم،
فيردون عليه بإشارات بذيئة من ألسنتهم وأيديهم، وعندئذ يرميهم
بالخصى وكأنه يرمي الشياطين في المزدلفة، فيتدافعون هربًا ضاحكين
سخرية واستهزاء..

- "أولاد الكلاب! إن شاء الله تصيرون حطبًا لجهنم وبنس
المصير!"

ويواصل طريقه حتى يبلغ دكان (مشهراوي) الحلاق، فيحييه،
فيرد الرجل التحية بأحسن منها وهو يصيح ملوِّحًا بالمقص في يده:

- زارتنا البركة يا شيخ.. شعر أم ذقن؟

يرد عليه الشيخ بعصبية مفرطة:

- شعر طبعًا، ماذا كنت تتوقع؟

- أما زحك يا شيخ فحسب!

- سامحك الله..

ثم يجلس على كرسي الخلاقة منتظرًا بنفاد صبر، ومن دون خلع
البشت الثمين كأنما يخشى عليه من السرقة..

- "الأوضاع صارت جحيماً يا شيخ.."

- "إن الله مع الصابرين..(أيوب) صبر.."

- "وصبر (أيوب) ما كان ليجاري صبرنا!"

- "أستغفر الله العظيم.."

- "والله حائق علينا.."

- "نحمده في السراء والضراء.."

يقولها الشيخ ممتعضاً، لكن (مشهراوي) لا يصمت، فيتحول كعادته إلى مدياع يلوك سِيرَ الناس ويُدنّسها، لكن بمكرٍ ودهاءٍ، تارةً يوافقُه الشيخ وتارةً يُعارضُه..

لكن هذا لا يمنعه من شتمه في سرّة كأرذل شيطان..

- "يا شيخ منك السموحة، ولكن أداني هذه الأيام.. أنت تعلم..

وزوجتي النكدة.."

- "مفهوم مفهوم.."

كان الشيخ على درايةٍ بطبِّ الأعشاب، يُشاورُه الناس بشأن داء السُّكري وآلام المفاصل، فيجأونهم دوماً بطب الأعشاب.. في النهاية يحترمونَه على علمه لعونه لهم في أزماقم مع نساينهم ليلاً، حيث يوصي بأعشاب مفعولها قوي حسب زعمه، والناس هنا بُسطاء يصدقون أي أمل في زيادة الأداء، فالتناسل متعتهم الوحيدة، والشيخ لا يُقصرُ في بعث الأمل في نفوسهم المريضة..

حتى النساء يزرنه لأجل تلك الغاية، والواقع أن البلدة تحولت إلى
بلدة مهووسة جنسياً، لدرجة أن الفتية المقبلين على الزواج زاروا
الشيخ للاستزادة من علمه الغزير في هذا الصدد!

وعقب مداواتهم بما يملك كان يودعهم ولسان حاله يقول
مُتهكماً:

- بهائم عاجزة.. مجرد بهائم!

ثم يعكف على حساب ماله الوفير قبل نومه في فراشه قريير العين،
فلا يصحو إلا قبل أذان الفجر بنصف ساعة..

كان فخوراً بالمسجد رغم قدمه وسقفه الآيل للسقوط، يرمقه
بنظرات الاعتزاز، وكأنه معلّم تاريخي شهيدٌ موقعةً من المواقع التي
غيرت وجه التاريخ، ولا يسمح للقمامة بالاقتراب منه كما فعلت مع
كل الديار، ولا يسمح لوغدٍ صغيرٍ واحدٍ برسم أو كتابة حرفٍ واحدٍ
على جدار من جدرانه، بيت الله مُقدسٌ ما دام نظيفاً، وبالطبع ما دام
هو إمامه..

في خاطرة من خواطره التي تورق منامه يقول الشيخ:

- أنا رجلُ الله، وعبده المطيع، مهمتي جعل النظام قائماً لا مسيئاً
كما صنع رئيس المخفر الجاهل الويش، ولن أسمح أبداً بتدنيس حرمة
بيت الله.. أبداً!

وبعدها، ينام منفرج الأسارير، وقد تأكَّد له قيامُه بأداء واجبه كاملاً مُكَمِّلاً اليوم، فلا تتنابه أضغاثُ أحلامٍ تُكَلِّرُ عليه وتعكر له صفوه..

لكن في الآونة الأخيرة عانى الشيخ كابوساً مروَّعاً قضَّ مناماته فترة لا بأس بها من الزمن، حيث أبصر نفسه يركض في ظلامٍ دامسٍ مُربِعٍ، وتناهى إلى مسامعه أصوات عواء ذئاب مُتربصة به، وشاهدَ بفزعٍ عارمٍ عيوها متألقة في الظلام كيراعات النار، كان هذا قبل أن يثب عليه أحد الذئاب لافتراسه، وحش مروع ضخيم الجثة بلون عتمة الليل، حدقتاه مختلفان، إذ هما بلون الدم الذي سال من شدقيه..

- "بسم الله الرحمن الرحيم! قل أعوذ برب الفلق.."

قلَّت ساعات نومه، أصابه أرق مبين من جراء ذلك الكابوس المخيف، حتى إنه غاب مرات عن الصلاة مع الجماعة بحجة المرض، كان يشعر بنفسيته تتهاوى كآبة، وبأن الله يُعاقِبُه لشأن ما.. لكن لماذا؟ ماذا صنع؟

2

كانت ليلة باردة من ليالي فصل الشتاء القاسي..

في الخارج تصاعد عويل الزمهرير، وكأنه نفخ بوق مَلَك الموت شخصيًا، أما عن الداخل - داخل المسجد - فقد وقف صَفٌّ نصف مكتمل وراء الشيخ (جبران) لأداء فريضة الفجر..

على يمين الشيخ وقف (مشهراوي) الحلاق وبجواره ابنه (سعد)، يجاوره (راجح) المزواج، ثم (سائد) طبيب البلدة، و(جعفر) الجزار ملتصق به، ثم المؤذن، فالبقال (جسار) وولده البكر، ثم رئيس المخفر، وأخيرًا شابٌ وسيم يجاوره صبي جميل غزير الشعر الأشقر في العاشرة من عمره..

كان الفتى (سعد) مُجرّد بلطجيٍّ وغدٍ يَهْوَى مُطاردةَ النساءِ ومُشاحنةَ الكبارِ، لكن لوالده سيطرةٌ شَبّةٌ مُحكمةٌ على عنقه، لذا

كثيراً ما كان يضطجبه رغماً عنه للمسجد بغية طرد بعض الشياطين
من رأسه..

أما الطبيب فقد كان يتوقع الشكاوى عقب الصلاة، فبحبرته
الطويلة كان يدرك أن التذمر الحقيقي هُؤلاء يبدأ عقب الصلاة،
وعندئذ ينصحهم بمراجعتهم في أقرب وقت ممكن قبل فوات الأوان،
ولم يحدث أن صدق أحدهم تشخيصاته ما إذا كانت بسيطة، ونتيجة
لهذا صار غالبية أهل البلدة من اغتضرين! أما الطبيب فكان متألماً
(راجع) يرى قُدودُ النسوة مجردات من الثياب أثناء الصلاة في
مُخيلته المريضة، ورئيس المخفر يضع يده على سلاحه الشاكن في
الجراب كلما ركعوا وسجدوا، وكأنما يتأكد وجوده هناك، صورة
ذلك السلاح البراق الجميل لا تُفارق مُخيلته أبداً...

(مشهراوي)، يحلم بتطليق زوجته، و(جعفر) يحلم بقتلها، و(جسار)
البحال يتخيل نفسه أغنى من (هارون الرشيد)، تحيط به حسناوات
القيان، ويسهر على راحته عبيد ملاح غلمان...
والأسوأ أن هذا كله يتم بقيادة شيخ لا يكفُ ذهنه عن تصور
عضة ذئب شرس حالك كعتمة الليل في كل شبر من جسده وكأنه
هونس، وفي النهاية تلا يفكر مُشَتَّب ومُخيلة محمومة...

— (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين
كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجهم من الظلمات إلى...)

لم ينتبه واحدٌ من المصلين لذلك الخطأ سوى الفتى النحيل الوسيم الذي تلا مصححاً:

- (والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجهم من النور إلى الظلمات..)

انتبه الشيخ (جبران) للخطأ غير المقصود، ثم تنبه - هلعاً - إلى أنها المرة الأولى في حياته المهنية بأسرها، فتمتم بنبرة مغيبة وبصر زائغ بذات الخطأ مُتَشَبِّهاً به! وكأنما يُصِرُّ على أنها الآية الصحيحة! فعاود الشاب التصحيح بإصرارٍ، مما دفع الشيخ إلى الركوع على الفور مُكَبِّراً بغیظٍ مكبوتٍ ومن دون أن ينهي الآية الكريمة!

- "الله أكبر.. سمع الله لمن حمده!"

لن ينسى ذلك الصوت للأبد.. أصابه مجرد سماعه بغمامة الكآبة التي لا تزول بسهولة، في قرارة نفسه كان مدركاً أن الشاب قام بما يتحتم عليه فعله من صواب، لكن الغیظ اشتعل كجذوة النار في مخزنٍ للقش، بين ثنايا جوفه وقلبه وأحشائه، وشعر بالدهشة والذهول للكرهية التي أصابته من جرّاء ذلك، كانت كراهية بلغت مدى تمنى الهلاك لذلك الشاب البريء!

ومن دون أن يشعر زاد من سرعته في أداء الفريضة بُغيةً إلقاء نظرة على وجه ذلك الشاب الذي استحقَّ بُغْضه غير المبرر.. مَنْ كان بحقَّ الله؟ أهو غريبٌ أم ماذا؟ كيف لا يتذكّر ملاحظته؟

- "السلام عليكم ورحمة الله.. السلام عليكم ورحمة الله.."

وانظر هُيهةً قبل وثوبه للوراء والنظر بشوقٍ، فوقع بصره على وجه رجولي لشابٍ حَسَنِ التقاسيم والتكوين، لكنه لا يهتمُ بقص شعره وحلاقة ذقنه كما يبدو عليه..

كان يرتدي سُرَّةً بسيطةً، وقد قدلت خُصلاتٍ من شعره الأسود الناعم على عينيه العسليتين، فتفكَّرَ الشيخُ - مغتاضًا - في أثر تلك الخُصلات وتلكم العينين على أفكار بنات الناس، وتفكَّرَ بغمٍّ وشروود في حكايته البائسة مع صلته ذات الزبيبة التي يخفيها بالعمامة على الدوام..

كانت دهشته في تزايدٍ من مدى خُبثِ أفكاره وقسوتها، فاستغفرَ ربَّه العظيم بلسانه وقلبه بلا كَلَلٍ، وإن لم يتمكن من زحزحة بصره عن الشاب الذي بدا سارحًا في شيء لا يعلمُ سواه إلا الله ..

هُضْ أول من هُض (جسار)، فسار بخطواتٍ متعجِّلة صوب الباب مغادرًا..

وعندما فتحه، لفحتهم جميعًا ريحٌ باردة بعثت القشعريرة في أوصالهم وكأنه تيار كهربائي، فضم الفتى سُرته الجلدية بقوة، وقال عبارة أثارت استغراب بعضهم:

- يا له من ظلامٍ غريب!

ثم شقَّ طريقه للخارج.. وكانت تلك آخر مرة يرونها بها! إذ ارتفعت صرخته المروعة بطريقة انخلعت لها قلوبهم، فوثبوا على أقدامهم، ومن ثم تدافعوا نحو الباب وأولهم (جسار) الذي ردَّد برعب لا يوصف:

- ما كان هذا؟

في حين ردَّد المؤذن أدعية محمومةً ويده على موضع قلبه، وسارع الشاب الوسيم بفتح الباب على مصراعيه، ثم لم يلبث أن فترت حماسته..

لم يكن الظلام غريباً، كان مُخيفاً كربع قصص يوم القيامة وعذاب القبر، في الأحوال المعتادة كان بإمكان أي امرئ رؤية البيوت على ضوء مصابيح الزيت وهو خارج، وحتى وإن انطفأت لا يزال بإمكانه تمييزها..

لكن الظلام هذه المرة كان دامساً بقوة لا توصف، وكأنهم ينظرون للخارج من مناظر العميان! والذي زاد الأمر سوءاً هو صوت الصراخ الأليم لشخصٍ يتعذب عذاب الويل، صراخٌ ضحيةٍ تخللته أصواتٌ ضاحكةٌ كريهةٌ لمعذبيه!

ارتجف بدن المؤذن وهو يصيح وعيناه جاحظتان:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم! أسمعتم؟ هذه أصواتهم!

- أصواتهم؟

- أصوات الشياطين!

- تعقل يا رجل! منذ متى تسمع أصوات الشياطين كي تألفها

أذنك؟

فوجئوا أكثر بالشاب يحاول الاندفاع خارجًا، فوضع أكثرهم
أياديهم على كتفيه لمنع صائحين:

- إلى أين يا بُني؟

- ألم تسمعوا؟ يجب أن ننقذه!

- ننقذ من يا بني؟ لقد انتهى الفتى!

وهنا صاح (جسار) هلعًا:

- ماذا نصنع إذن؟

كان يسأل عن موقفهم وعمًا يواجهونه بالطبع، فلم يكن يكثر
كثيرًا الحياة ولده، وبالتأكيد كانوا يعلمون ذلك لكنهم تجاهلوا
الأمر..

أبعد الشاب أياديهم عنه بحدة وصوته يرتفع بذات الحدة:

- نخرج من هنا طبعًا، معًا..

- هل جُئت يا بني؟ نحن نجهل ما يقبع بالخارج بانتظار خطوة

حقاء كهذه..

وتمتم الشيخ (جبران) متهمًا رغم دقة الموقف وخطورته:

- يا له من متهورٍ طائشٍ!

تجاهله الفتى قائلاً للبقية:

- ماذا تقترحون إذن؟ البقاء حتى مطلع الفجر؟

- يا لها من فكرة سديدة!

- فعلًا! رُبَّ رميةٍ من غير رامٍ! فلنجلس ولننتظر شروق الشمس!

أشار الشاب للخارج صائحًا بنبرة ذاهلة:

- وماذا عن البائس الذي..

قاطعه الشيخ دون أن يملك إخفاء مقته:

- ماذا عنه؟ ألم تدرك بعد أنه انتهى؟ والآن أغلقوا الباب

بسرعة..

تكاثروا على الباب حتى أغلقوه، ثم تراجعوا للوراء مُتجاورين،

فلحق بهم الشاب متجهماً يتبعه الصبي الأشقر..

المؤذن يردد أدعيةً لا حصر لها، وجسمه ينتفض بين الفينة والفينة،

ثم يسارع بسحب مصحف صغير والقراءة منه.. التوثر قد غزا بعض

الوجوه، والخوف واضح على أكثرها، والشاب الوسيم لا يُظهر توترًا

أو خوفًا، بل يُراقب الوجوه ببصرٍ خاوٍ..

(سعد) البلطجي ينظر من خلال فجوات الخزارف عبر نافذة المسجد، قبل غمغمته الراحفة قليلاً:

- لا أتبين شيئاً، العتمة أحلك من قلب كافر!

- رُحماك يا الله!

- ما الذي يحدثُ بحقِّ الله؟ أهى القيامة؟

- "لا بُدَّ أنها كذلك!"

كذا صاح المؤذنُ وقد كفَّ عن التلاوة.. بدا وكأن عقله قد كفَّ
عن التفكير كذلك، فقد أطلق صرخةً قصيرةً قبل استرساله برُعبٍ لا
يُمكن وصفه:

- أتت الساعة أخيراً، والحاطي سيحاكمُ على أفعاله!

قال (جعفر) ببرودٍ مُدهشٍ:

- وماذا في ذلك؟ نحن قوم مسلمون، ولم نفعل ما يستوجب
الخوف..

رَمَقَهُ الشَّيْخُ (جبران) بأقصى نظراته، في حين أعطى الطبيبُ (سائد)
ظهره أحدَ الجدرانِ وهو يتمتمُ مُرتجفاً:

- القيامة؟

وكانه لم يكن يؤمنُ بوجودها..

قلته: إلا أن الشاب قال بزملة: يا شيخ، والله لا أقول بك ما تقول! (مستمع)
- لا أظن..

صوب الشيخ نظرات قاسية صوبه وهو يقول بصرامة: يا كافر -

- ماذا؟ ألا تؤمن بالقيامة؟ أنت مسيحي؟ لربما ملأ هذا الشيخ -

- لا لست كذلك... لكن القيامة لا تحدث فجأة. أين العلامات

الكبرى؟

"أشكركم يا شيخ" -

- ربما حدثت ونحن في هذه البلدة الملعونة، لا ندرى عن وقوعها شيئاً!

ما هذا الهراء الذي تقولونه؟ أين الأعور الدجال وأجوج

وماجوج؟ أين المهدي المنتظر وسيدنا (عيسى) عليه السلام؟

احتقن وجه الشيخ بشدة، ثم نطق قائلاً بغلظة:

- أتعذف أيها الشاب؟

نظر إليه الشاب قائلاً بدهشة: وفي ذلك؟ يا شيخ -

- أتعذف؟ أئمة خطأ فيما قلته يا شيخ؟

وقبل أن يرُد الشيخ (جبران) ردًا غليظًا آخر، فوجئ الجميع

بأصوات طرقات قوية تصاعدت على باب المسجد...

...

أخيراً فَقَدْ المؤذن أعصابه تماماً، فقهقه قائلاً بمرح:

- لقد أتوا أخيراً!

- مَنْ أتى؟ ولماذا؟

- مخلوقات الظلام! ستأخذ أرواحنا إلى جهنم ونس المصير!

- ما هذا الذي تَهْرِفُ به؟

أخيراً نطق (جعفر) الجزار، فتساءل بنبرة خافتة:

- هل نفتح؟

رَمَقَهُ الجميع بنظرات مُستكثرة، فانكمش على نفسه متأملاً التطريز
شبه المتناسق في بساط المسجد، فبدأ مظهره مُضحكاً خصوصاً وأن
جشته بحجم جثة الثور..

فجأة، وفي لحظة تبدت لهم غادرة، اندفع المؤذن صوب الباب،
فارتفعت أصواتهم الهلعة بآن واحد:

- "لا تفتح الباب!"

لكنه تجاهلهم وفتح الباب على مصراعيه وقال زائغ البصر ولُعباه
تحرر من فيه المغفور:

- يا أهلاً وسهلاً! شرفتم بيت الله!

تراجعوا جميعهم مغطين وجوههم بأياديهم، وقد توقَّعوا الشرَّ بأبشع صوره، إلا أن شيئاً لم يحدث، وظل المؤذن واقفاً يُردِّد عبارته تلك من دون استجابة ما..

كفُّوا عن هَلْعِهِمْ قليلاً، واقربوا أكثر محاولين لملمة أشلاء شجاعتهم، وقد غمغم (جسار) البقال بنبرة ضيق واضحة:

- ربما كانت مجرد دُعاية سَمِجَةٍ..

بدا الأمر منطقياً للبعض أكثر، لكن للأسف، لم ينعموا بالارتياح لذلك الرأي لأكثر من نصف ثانية..

ففي نصف الثانية التالي، فوجئوا - بأعين غير مصدقة، ووجوه شاحبة - بقبضة ماردة زرقاء تقبض على وسط المؤذن الذي كان يمد ذراعيه في الهواء وكأنما يستقبل ضيفاً، فاعتصره واعتصره حتى جعل الدم يتفجَّر من محجريه ومنخريه وأذنيه!

ثم سمعوا - والرعب يُشوِّء وجوههم - صوت عظام الرجل تتحطم، ومن ثم سحبت تلك القبضة العملاقة المفزعة إلى جوف الظلمات..

- "لا!"

قالها الحاجُّ (راجح)، الذي انكفأ على الأرض مُغطياً رأسه بذراعيه، وفي جنون صرخ رئيس المخفر وهو يُشهرُ سلاحه للمرة الأولى في تاريخ حياته المهنية:

- أوصدوا الباب! أوصدوه!"

لم يجرؤ أحد سوى الشاب على تنفيذ الأمر، ثم عاودوا التقهقر حتى التصقوا بالجهة المقابلة، والغريب أن رئيس المخفر لم يجد الجراحة في نفسه لإطلاق النار على تلك القبضة المسخية العملاقة، وبدعّر يستحيل وصفه صرخ (راجع) ودموع الفرع تنهمر من مقلتيه الغائرتين:

- إنها القيامة حقًا، وتلك المخلوقات هي شياطينها!

ورغم دقة الموقف تساءل الشاب بعصبية:

- وما علاقة الشياطين بالقيامة؟

- يا إلهي! ارحمنا يا إلهي!

جلس الشاب أرضًا وهو يهمس بصوت شبه مسموع:

- ليست مزحة إذن..

- ماذا كنت تتوقع؟ تلك الذراع وتلك القبضة كانتا لعفريت من

الجان الأزرق!

- ولماذا تماجمنا العفاريت إذن؟

- وما أدراي عليك اللعنة؟

كانت عصبيتهم قد ازدادت عددًا من الدرجات، ما رأوه كان حقيقة وليس وهمًا، دم المؤذن الطازج على بساط المسجد عند مقدمة الباب يؤكد ذلك..

- "ربما نحن نعاقب على خطايانا فعلاً.."

التفتوا جميعهم إلى الشيخ (جبران) الذي أظهر وجوماً جعلهم
مشدوهين، وبحدةٍ شديدةٍ صاح (جعفر) وسبابته مُصَوَّبَةٌ باتجاهه:

- أنت تقول ذلك يا شيخ؟

- ما رأيناه كان الهول.. وأي هول؟ أي هول ذاك الذي تبعث
منه قبضةٌ عفريتيةٌ عملاقةٌ من قَلْبِ الظلمات؟ إن ثمة حكمة فيما
حدث، خصوصاً أن (عابد) كان..

ثم استسلم للصمت، فألح عليه (جعفر) بخشونة:

- ماذا؟ (عابد) كان ماذا؟

سكت الشيخ (جبران)، وإن أفصح صمته واتساع بصره عن
مكتون من الأسرار والحبايا المخيفة في عقله وقلبه..

3

- "يُؤذَنُ للصلاة وهو سكران؟"

سدد الشيخ (جبران) نظراته إلى رئيس المخفر المستنكر قبل أن يومئ برأسه إيجاباً، فاتسعت عيناه الأخير أكثر قبل أن يردف:

- وَأَنْتَ كُنْتَ تَعْلَمُ؟

- وماذا عساي أفعل؟ قد حاولت مراراً نصحه لكن للأسف..

- للأسف؟ مؤذن بيت الله رجلٌ سكيرٌ؟ كيف لم تطرده؟

- وأين أجد مؤذناً غيره؟ لا يوجد من يحلُّ محله..

قال الشاب مستكراً:

- ماذا عنك أنت؟

عاود الشيخ رمقه بنظرات الكره وشفته تتمتجان بغیظٍ مكبوتٍ:

- الأمر ليس بتلك السهولة التي تتصورها يا فتى!
- حقًا؟ أتدري إذن؟ أنا لم أعد أستغرب موضوع عقابنا على خطايانا!

- ومن أنت بحق جهنم؟
تبسم الشاب مستغربًا وهو يردُّ:
- أتسألني حقًا أم ماذا؟
- بل أسألك، أنا لم أتشرف بحضرتك بعد.. مَنْ أنت؟ من هذا يا جماعة؟

كذا تساءل الشيخ وهو ينظر في وجوه القوم، فردَّ عليه الشاب
بعبوس:

- مجرد عابر سبيل غريب سمع الأذان فلبَّى النداء، واسمي هو
(شاهر)..

صمت الشيخ مُتعضِّبًا، في حين قال (مشهراوي) مُرعِبًا:
- لا أظنُّ هذا وقت التعارف يا رجال، علينا أن نجد حلًّا لمشكلتنا
الرهيبية..

تمشَّى (جعفر) كالمتريض وهو يهتفُ:
- ننتظر مطلع الفجر كما خططنا من قبل..

في حين أخذ الطبيب (سائد) يردّد بهمسٍ سمعه الجميع:

- أوهام.. مجرد أوهام ابتدعتها عقولنا!

- يا لتلك الأوهام التي تصيبنا جماعة! يا لتلك الأوهام التي

خلّفت لنا بقعة الدم الهائلة تلك!

كذا قال الشيخ مُتهكِّمًا، وتابع بمقلتيه الشاب وهو يتخذ لنفسه زاوية حيث أخذ يُراقبُ من إحدى نوافذ المسجد..

عجبًا! لقد شعر الشيخ بكراهيته له في ترايد.. لماذا؟ لماذا يشعر بالملقّ كلما أدار رأسه جهته أو سمع حرفًا من حروف كلماته؟

وعاود النظر إليه، فوجده شابًا وسيماً حسنَ التكوين.. أما عنه فيمتاز بصلعة قبيحة، وبدنٍ مُترهلٍ، واحترام بدأ يتقوَّضُ من أهل بلدة المنكر هذه.. أتراه السبب إذن؟

لكن أفكاره اختلفت تمامًا لما حوّل بصره جهة الصبي الأشقر الجميل، كان يشعر براحةٍ وإعجاب كلما نظر إليه، ولم يحاول معرفة كُنْهِ الصبي رغم أنه يراه للمرة الأولى في حياته - أو أنه رآه من قبل ونسيه-، لكنه لم يستطع كَبِّحَ جهاج الراحة النفسية التي يستشعرها كلما وقع بصره على وجه الصبي المليح..

هل هو شقيقُ الغريب؟ ثمة مسحةٌ تشابه بينهما، لكنه لن يسأل، حتمًا لن يفعل..

- "أنا لا أستطيعُ الوقوفَ مكتوف اليدين هكذا.."

سمعه الجميع وهو يطرق الجدار بقيضته عدة مرات، فتحول انتباههم الكامل نحوه، في حين هتف (سعد) ساخرًا:

- وماذا تريد أن تفعل يا فارس الزمان؟

بدا وكأن (شاهر) قد تجاهل سخريته عندما أجاب مخاطبًا إياه بجديّة:

- ماذا لو أشرقت الشمس وبقي الحال على ما هو عليه؟ ثم إنكم قد نسيتم أمرًا مهمًا وخطيرًا، ماذا يحدث لأهاليكم الآن؟ ماذا يحدث لزوجاتكم وأولادكم الآن؟ هل يُهاجمون من قبل مخلوقات الظلام تلك أم ماذا؟

هوى كلامه على رؤوسهم كحربات الصواعق، حقًا ما يقوله، هل أهالي البلدة بخير أم يتعرضون لكوارث مروعة مماثلة؟ لكن (جعفر) قال متهمًا وكأن الأمر لا يعنيه بتاتًا:

- أراهن بدكاني أننا وحدنا من يتعرض لهذا العقاب المخيف.. نحن المسؤولون كل المسؤولية أمام الله وأمام نبيه عن كل تجاوزاتنا التي حدثت، فنحن لم نحرك إصبعًا لتغييرها..

ورمق رئيس المخفر بنظرات تتقاطرُ اشتمزازًا، فعبس الأخير صائحًا:

- ماذا؟ أنتهمني بتجاوزاتك المزعومة؟ هل جُننت يا ابن...

صاح (جسار) وقد انتابه الذعر:

- نحن في بيت الله!

صمّت رئيس المخفر بغتةً قبيل تبسمه مُستهينًا، ثم حدّق في السقف قائلاً:

- الواقع أنكم حَفَنَ من الأوباش الذين أخذهم العِزَّةُ بالإثم، وما دمنّا "في الهوا سوا" كما يقولون، دعوني أذكركم أن التجاوزات التي تحدثون عنها مُتعلّقة بكم كلكم، وربنا أمر بالستر..

هتف (جعفر) مُتحدّياً:

- لا، أفصح أرجوك! لا تدع الفضول يقتلنا!

- أنت بالذات تحرس! تحاول إيهام الجميع أنك وليٌّ من أولياء الله الصالحين، بينما أنت مُجرّدُ شيطانٍ إنسي يعيثُ في الأرض فسادًا..

احتدّ الشيخ قائلاً بنبرة غضب:

- يا سيدي لا تتهم الناس جُزأفاً، كما أن ربنا أمر بالستر كما تفضلت أنت، واحترموا بيت الله الذي نحن فيه..

لكن رئيس المخفر تجاهله وهو يواصل حديثه مُخاطبًا (جعفر):

- لا تدفعني إلى التُطق يا (جعفر)، فأنت كغيرك من أهالي هذه البلدة الملعونة، مجرد نصابٍ ووغدٍ أيضًا!

وهنا صرخ (جعفر) كالشمسوس:

- لا انطق.. أتحننا بذُررك الزائفة! كيف صار وغد جبان مثلك
مسؤولاً عن أمن بلدتنا؟

- طظ فيك وفي بلدتك يا ابن..

- "كفى!"

رَدَدَ الصدى صيحةَ الشيخ فصمنا من فورهما..

- "لن أسمع أبداً بالتفوه بمثل تلك السفالات في مسجدي.. هل
جُنتما؟ أأصابكما مَسٌّ أم ماذا؟ نحن قوم مسلمون لا همج تربوا في
الشوارع ومستودعات القمامة!"

صمنا والكره بادٍ عليهما كلُّ اتجاه الآخر، فتنفَسَ (مشهراوي)
الصعداء قبل أن يقول:

- هداكما الله..

ابتسم (جعفر) بسمّة مُستخفّة أثارت حفيظة رئيس المخفر، فلَوَحَ
الأخير بإصبعٍ سبّابته تجاهه وهو يقولُ بغيظٍ من بين أسنانه:

- إذن، فاعلموا أن الوغد كان يبيعكم في الآونة الأخيرة لحوم
الكلاب الضالة كي تلتهموها على موائدكم أنتم وأولادكم!

اتسعت عيونهم أشد اتساع وهم يحملقون في سحنة (جعفر)،
الذي فقد ثقته بنفسه دفعة واحدة وقد اصفرت سحنته تماماً..

ثم بوغثوا جميعاً بسماع أصوات الطرقات الرهيبة تتصاعدُ مجدداً
على باب المسجد، فتبادلوا نظرات ملؤها الرُعبُ والفرعُ الشديدان..

قال رئيس المخفر معاوداً استخراج سلاحه الأسود اللامع من
جرابه:

- إياكم وفتح الباب..

- ماذا تحسبنا؟ مخابيل؟

كانت أبصارهم مُتجهة صوب الباب، ما عدا بصر (مشهراوي)
الذي أغمدته في مُقلتي صديق عمره (جعفر)، وبسُخطٍ هَتَفَ به:

- لا بُدَّ وأنهم قد أتوا من أجلك!

رَمَقَهُ (جعفر) بعينين زائغتين من قُرْطِ الرُعب، ثم صاح:

- صدقته يا (مشهراوي)؟ صدقت اللنيم المُخادع؟

- ولمَ لا؟ أنت أكبر وغدٍ عرفته في حياتي!

- ماذا تقول يا (مشهراوي)؟

صارت الطرقات أقسى وأخشن، فقال (مشهراوي) بتهكُّمٍ رغم
ذلك:

- عِقَابُ اللَّهِ آتٍ يا (جعفر)، فكنْ مستعداً!

- الله يأخذكم إلى سعيره!

وتراجع كالنور الهائج استعدادًا لمهاجمة أحدهم، فصوب رئيس
المخفر سلاحه إليه قائلاً بصرامة:

- إياك.. اذهب وافتح الباب!

- ماذا يا وغد؟

- كما سمعت!

حولوا جميعهم أبصارهم إلى رئيس المخفر، وبنبرة متلعثمة تساءل
(جسار):

- ماذا تنوي أن تفعل؟

- أنوي معاقبة المجرم على أفعاله.. ألا تبتغون النجاة؟ كيف ننجو
إذا دافعنا عن مجرم كهذا المجرم؟

وهنا قال (شاهر) بصرامة مُماثلة:

- كما ندافع عمَّن تستر على أفعاله!

- ماذا تقولُ يا فتى؟

- أقولُ إنك كنت تعلم طيلة الوقت بجرائم (جعفر)، فلماذا لم
تُلقي القبض عليه إذن؟

- لم أكن متأكدًا، كان علي ضبطه مُتلبسًا..

فهيته (جعفر) قائلاً بمقت:

- أم أنك كنت تنتظر اللحظة المناسبة لابتزازي؟

- بإمكانك قول أي شيء الآن، لكنك لن تضعني في دائرة الشبهة أبداً، أنا أنظف وأشرف من أي صعلوك في هذه البلدة، أنا مُنفذ القانون هنا، لذا آمرك بالتقدم نحو ذلك الباب وتقبل مصيرك كرجل وإلا..

ورفع سلاحه في رسالة جلية المعنى، فارتعشت شفتا الرجل الضخم قليلاً وهو يتمتم:

- أفضل أن تطلق النار عليّ..

انفتحت أبدانهم عقب سماع دوي الطلقة، فأنشده (جعفر) وهو ينيش جسده ملهوفاً بحثاً عنها، لكنه لم يجدها لحسن حظه..

- "لن أكرر الأمر.. الطلقة التالية ستكون في كرشك.. تحرك!"

اقشعر (جعفر) وهو يسير بقدمين زلقتين، فقال (شاهر) غاضباً:

- قد يكون مُدائناً يا سيدي في عرفك، لكنني أرفض أسلوبك هذا..

انحرف مسار السلاح ليصير مواجهها للفتى..

- "أتبغي فتح الباب عوضاً عنه؟"

صمت (شاهر) وهو يتنفس بعمق، ثم ردّ بحزم:

- أجل!

كان لكلامه أثرٌ وَقَعَ الصاعقة عليهم، إلا أنه تجاهلهم جميعاً وهو يتجه صوب الباب..

- "لا تنهوا يا فتى.."

ورمقه (جعفر) بنظرات غارقة في العرفان والامتنان، لكن (شاهر) تجاهله وتجاهلهم مُسارعاً بفتح الباب قبل أن ينال منه الخوف أو التردد..

حدّق شاردًا في الظلمة المخيفة، وبشرود أكبر غمغم:

- توقفت الطرقات..

وأضاف:

- لا أحد على الباب!

فوجئوا - وفوجئ هو أكثر - بشيء عملاق داكن يثب عليه ويوقعه أرضاً، وسمع صراخهم الجنوني يكاد يصبم أذنيه، لكنه لم يكثرث لذلك فقد غاب عن الوعي..

4

عندما أفاق (شاهر) من غيبوبته، وجد الصبي جالساً عند رأسه وهو يمسحُ له جبهته برفقٍ..

- "ماذا حدث؟"

ونمض ببطء مُتحسناً صدغَه، فوجد الرجال يرتجفون وبعضهم ينتحبُ!

- "ماذا حدث؟ أين (جعفر)؟"

تطوع (راجح) بالإجابة، إذ قال وهو لا يكف عن النهية:

- انتهى! افترسه الوحش الأسود واحتمل جثته بأيابه خارجاً!

- رُحماك يا إلهي!

قال (مشهراوي) كالأبله مُحدثاً بالسقف:

- كان يشبه الكلب، لكن أنيابه مثل أنياب الأسد! لم يفترس سوى (جعفر) و(جعفر) وحده..

إذن فنحن نُعاقب على خطايانا فعلاً!

بدا (شاهر) غير مقتنع بذلك الكلام، لكنه قرر الاحتفاظ بأفكاره لنفسه، وبوجه عابس تساءل:

- كم الساعة الآن؟

ونظر باتجاه ساعة المسجد المعلقة، فوجدها تشير إلى لسابعة صباحاً..

ابتسم بسمّة مريّة، وبتجهم قال:

- يبدو ألا منجاة لنا من الظلمات يا سادة!

قال رئيس المخفر ببرودة مداعباً فوهة سلاحه:

- ربما كان هذا ظنك، لكن رجل القانون يفكر بطريقة مخالفة تماماً.. لقد علقنا في المسجد لغاية لا يعلمها سوى الله، وأظن أن تلك الغاية قد بدأت بالاتضاح أخيراً..

تساءل (مشهراوي) مرتجفاً:

- ماذا تعني؟

تأمل وجوههم وقد بدا منتفخ الأوداج، ويعزم قال:

- يبدو أنها لحظة الحقيقة يا قوم، نحن عالقون هنا إلى أن ينتهي هذا الكابوس، والكابوس قد حضر لأجلنا نحن، ونحن فقط من يقدر على إخمائه..

- كيف؟

- بذات الطريقة التي أقمنا بها (جعفر).. لن نتمكن من الخروج إلا إذا أدنا كل مجرم جاء إلى هنا مدعياً الإيمان والثقة! كلنا أتينا للصلاة، لكن هذا لا يمنع من وجود منافقين بيننا، ويبدو أن الظلمات لن ترحل والنور لن يبرز إلا لو تبيّن الطالح من الصالح!

تدخل الشيخ (جيران) قائلاً بنبوة حادة:

- حذارٍ من التجديف..

- أنا لا أجدفُ يا شيخ، أنا أبسط لكم الحقائق..

- وأنا لن أسمع بالمزيد، سنظل ننتظر إلى أن يُفرج الله علينا كرمنا..

هرش رئيس المخفر ذقنه بسلاحه قائلاً باستهزاء:

- لقد استلم القانون من هنا يا شيخ! آسف لكن الواجب

ينادي، وقد اعتدتُ تلبية نداءه!

- ماذا تعني؟

قال (شاهر) بحزم:

- المعنى واضح يا شيخ، سيادة رئيس المخفر المحترم ينوي استجوابنا وتسليمنا للعدالة الإلهية على طريقة محاكم التفتيش!

- أنوي تسليم المجرم فحسب، وهذه ليست خطيئة أبدًا..

- يلوح لي أنك تبحث عن منجاتك أنت فحسب..

- أنا لا أقلق من شيء ما دمتُ مُحققًا، ثم إن سمعتي عَظيمة، لم يحدث أن قبلتُ رشوة من أحد، وقد قمتُ بواجبي تجاه أهل البلدة خير قيام..

- تبدو واثقًا بنفسك!

- وذلك هو سرُّ نجاحي.. إذن.. من منكم يرغب بالبداية؟

صمتوا كأن على رؤوسهم الطير، فتبسم الرجل وهو يدق بسلاحه الجدار الذي وراءه، وبتهكم قال:

- هذه الجلسة منعقدة بأمر من رئيس مخفر بلدة "خرم الحنطة"، حيث سنبدأ باستجواب..

ورفع سلاحه صوبهم، ثم مرره ببطء فيما بينهم هامسًا:

- ب ب ب ب ب... بك أنت!

- أنا؟

قالها (جسار) البقال ويداه تنقران صدره بذعرٍ، فصيح رئيس
المخفر كلامه ونبرته بلهجة رسمية وكأنه على وشك افتتاح مَحْضَرٍ:
- السيد (جسار النخل)، بقال بلدتنا، الرجل الذي سمعنا اتهامات
كثيرة بحقه..

- اتهامات؟

- يُقالُ إنك من المطففين.. فما ردُّك على هذا الاتهام؟

- كذب طبعاً.. لا يوجد دليل واحد!

- لسنا بصدد أدلةٍ ها هنا، بل سنعرض الاتهامات و..

- وماذا؟!

- وبابُ المسجد سيُكونُ الحَكَمَ!

نظر له الشيخ (جبران) متسائلاً:

- ماذا تعني؟

- عندما كشفنا أمر (جعفر) الجزار تصاعدَ صوتُ طُرقاتٍ تُلْكُم

المخلوقات على الباب.. إذن كل ما علينا فعله هو استعراض

الاتهامات بخصوص كل شخص هنا، وإذا تصاعد صوت الطرقات

فمعنى ذلك أنه قد أُدين!

قال (شاهر):

- لحظة واحدة، نحن لم نعلم بما اقترفه مؤذن المسجد إلا عقب أن

صرعته قبضة المسخ ذاك..

كان رئيس المخفر يتذكر ذلك، وقد خشي أن يذكره واحد آخر لعدم إيجاده التفسير المناسب لما حصل، لذا قال بضيق وخشونة بأن واحد:

- لست مُطالبًا بتفسير أمور خارقة للعادة، لكن أعتقد أنه إنذار رباني بأن نسارع بالاعتراف، فالعقاب سيزل بنا شتنا أم أئينا، ومنجاتنا تكمن بالاعتراف..

عاود (شاهر) التساؤل لكن بصلابة هذه المرة:

- وهل ستعترف بخطاياك أيضًا أم ستظل تهددنا بسلاحك حتى تتأكد هلاكنا جميعًا؟

- كفّ عن استفزازي أيها الشاب، فلصبري حدودًا!

ثم ولى اهتمامه شطر البقال البائس الذي ما زال مرتجفًا من قِمة رأسه وحتى أخمص قدميه، فشدد من لهجته عليه لما خاطبه بقوله:

- والآن.. هل تعترف بالتهمة المنسوبة إليك؟

- أي تهمة؟

- تهم غشك للزبائن، بيع البضاعة الفاسدة والتلاعب بمكاييل الميزان و..

- أنا تاجر أمين!

تبدت بسمه استهزاء على ثغر رئيس المخفر، وبرودة تحتم متأملًا
وجوه البقية:

- تاجر أمين؟ يبدو أن الليلة ستكون طويلة حقًا..

كان (شاهر) يتابع ما يحدث وقد انبعث من أعماقه رفض تام،
عندما شعر بأحد يجذب له كم قميصه لأسفل.. نظر مستغربًا فوجد
الصبي الخائف يحاول أن يسترعي انتباهه، فسأله برفق:

- هل من خطب أيها الرجل الصغير؟

أشار الصبي إلى زاوية من زوايا المسجد من ورائهم، فأبصر
(شاهر) رجلًا يجلس في الزاوية حتى التصق بها كالحرباء، حتى وجهه
ملتصق هنالك، كان الرجل غريبًا عنهم، يرتدي جلبابًا وطاقية،
ويتمسح بجدران المسجد وكأنه يتبركُ بها!

أخيرًا تنبه القوم إلى ما استرعى انتباه (شاهر)، فحدقوا ذاهلين
وأحدهم يهتف برُعب:

- مَنْ هذا؟ وكيف دخل إلى هنا؟

قال (شاهر) وهو يقترب منه بحذر:

- دعونا نسأله..

صاح (مشهراوي) بفزع:

- لا تقترب منه.. لا بُدَّ أنه.. بسم الله الرحمن الرحيم!

وهنا نهَضَ ذلك الرجل فجأة، فَمَضَ بسرعة انخلعت لها قلوبُهم،
ثم التفت ورمَقَهم بنظراتٍ طويلةٍ مُتَّهمةٍ، حتى توقف بصره عند..

- "لماذا يتأملُك هكذا يا (جسار)؟ هل تعرفه؟"

بدا (جسار) وكأن السكّنة القلبية قد نالت منه، كما أن علاماتِ
الرعب المَين قد رسمت أقسى تعابيرها على سحتته المُجعدة..

فتح الرجل الغريب فمه المشقق أخيراً، وبأنين المُعذِّبين قال مخاطباً
(جسار):

- تذكرتني يا (جسار)؟ تذكرت صاحبك (صابر) من قرية النبع؟

- لا !

وسقط (جسار) على مؤخرته وأطرافه هَتَرَ وترجف كأن تياراً
كهريئاً سرى بها، في حين، رفع الرجل المُخيف جلباه لفوق كاشفاً عن
أشنع ساقين يمكن رؤيتهما، وهو ينتحبُ صارخاً:

- تذكرتني يا (جسار)؟ تذكرت صاحبك المشلول الذي أودع
عندك ماله أمانة؟ أتذكر خيانتك للأمانة؟

وفي تلك اللحظة سمعوا كلهم صوت الطرقات المروع..

ورغم الخوف الذي شعر به رئيس المخفر، فإنه تمالك نفسه، وبدأ
رابط الجأش لما استدار نحوهم صائحًا بقوله:

- نحن نقوم بالصواب إذن.. إنها علامة من الله كنا بانتظارها
مُطولًا!

وبانفعال التفت إلى (جسار) صائحًا به:

- اعترف يا (جسار)، اعترف بما ارتكبته بحق صاحبك هذا! يبدو
أن خطاياك أكبر من مجرد التلاعب بمكيال الميزان وبيع أطعمة انتهى
تاريخ صلاحيتها!

كان الموقف غريبًا وعصبيًا، لم يملك معه أحد النطق بحرف واحد..

لكن (جسار) نطق، فصرخ وسبأته تشير إلى الرجل:

- هذه خُدعة! أنا لا أعرف هذا الرجل.. لا أعرفه!

- الإنكار لن يفيدك.. اعترف!

صارت الطرقات أشد وأقوى، فازدادت عصبية رئيس المخفر
وقسوته عندما صاح مُهددًا بسلاحه:

- افتح الباب، عليك اللعنة!

- لا!

- افتحه وإلا أطلقت النار عليك.. افتحه ما دمتَ بريئًا!

- لا!

- إذن لست بـبريءٍ كما تحاول إيهامنا يا وغدا!

ونظر باتجاه القوم صائحا بهم:

- احمِلوه وارموه خارجا!

- هل جُننت يا سيدي؟

نظر رئيس المخفر إلى (شاهر) وصرخ بوجهه:

- كلمة أخرى وأُلقيك أنت بدلًا منه! تريدون النجاة؟ إذن لا

تقفوا في وجه العدالة، دعوا العدالة تأخذ مجراها!

بدا التردد على الوجوه، فأطلق الرجل طلقةً في الهواء صائحا

بثورة:

- الآن!

كان هذا أكثر من كافٍ، فانقضوا كلهم - عدا (شاهر) والصبي -

على (جسار) الذي أخذ يصرخ كمن مسَّهُ جانٌّ، فجروه حتى الباب

والفتى (سعد) يسارع بفتحه، في حين قاومهم (جسار) بعنف وهو

ينعتهم ألفاظ شائنة، لكنهم لم يفلتوه..

وما هي إلا ثوانٍ معدودات حتى انبثقت ذراع أخبوطية هائلة

أرجوانية! فأحاطت بوسطه، ثم جرَّته خارجا وهو يصرخ أشنع صراخ

حتى غاص في أمعاء الظلمات، وبالطبع لم تمسَّ واحداً منهم بأذى!

- "رُفعت الجلسة!" -

قالها رئيس المخفر بمذيانٍ مُراقبًا شبح الرجل الغريب، الذي كان يتلاشى رويدًا حتى اختفى عن الوجود كأن لم يكن..

نظر له (شاهر) قائلًا بقسوة:

- لماذا لم تطلق النار؟

أجاب رئيس المخفر دون النظر إليه:

- كفافك مكابرةً، لقد رأيت المخلوق الذي خطفه، لم يكن طبيعيًا
بتاتًا..

- ربما لو كَفَفْتَ عن إرهابنا بتفريغ الرصاص في السقف..

- قلت كفافك مكابرة! جيل مُزعجٌ يحسب أنه عليم بكل شيء!

سكت (شاهر)، لكن (مشهراوي) لم يفعل، بل صاح بوجه
مُحتقن:

- الفتى مُحقّق، أنت لن تخسر شيئًا لو حاولت! أطلق النار على أية
مصيبة تلج عبر هذا الباب في المرة القادمة وإلا قضينا جميعًا!

- في رأيي أننا في حكم الموتى ما لم ننفذ مشيئة الله، أليس كذلك
يا شيخ؟

رمقه الشيخ (جبران) بنظرة صامته دون رد، فتولى (راجع) دفة الكلام نيابة عنه:

- وفي رأيي أنك نصبت نفسك مفتيًا وقاضيًا علينا، وأنت لا تملك الحق في..

- بل أملكه، أنا رجل القانون الوحيد بينكم..

تتم (شاهر) بشيء من التهكم:

- والوحيد الذي يملك سلاحًا!

- أتود تجربته يا فتى؟ هذا ما حسبته! اصمت إذن ودعني أقم بعلمي..

دور من الآن؟

تبادلوا نظرات مُفعمة بالتوتر، فتبسم رئيس المخفر مُتلذذًا كأنها لعبة مُسلية يستمتع بممارستها..

- "لا تبغون النطق؟ لا بأس، سأختار أنا إذن.."

ترددت الأدعية في رؤوسهم، ترددت وترددت حتى سمعوا اسم..

- "الحاج (راجع).. هلم اعترف بخطاياك!"

لم يحاول (راجع) إخفاء خوفه وهو يقول مهموماً:

- لم أرتكب ما يستوجب الخوفَ والله الحمد..

- أحقاً؟ أكنت أميناً في تجارتك يا حاج؟

- الحمد لله..

- لم تخن الأمانة يوماً؟

- مستحيل، إني أخاف الله رب العالمين!

- تخافُ الله؟!

ردّد رئيس المخفر عبارته مُستهيناً، ومن ثم سأل القوم:

- هل ما يقوله صحيح؟

- وكيف لنا أن نعلم؟

- أنا أسألكم عن أي شيء، عن أي معصية ارتكبها (راجع)

وشهدها أحدكم..

- لم يحدث أن صنع امرأً قبيحاً، (راجع) رجل وقور ومشهود له

بالكرم والأمانة، يكفي أنه زار بيت الله بعدد شعيرات الرأس..

انفجر الرجل ضاحكاً حتى دمعت عيناه، وسَعَلَ بشدةٍ وهو

يصيح:

- ساعحكم الله! حقاً إنكم لحفنة من المنافقين!

كنتم تلوكون سمعة الرجل في كل مناسبة أما الآن..

قال (مشهراوي) ساخطاً:

- كْنَا نُردِّدُ إشاعات لننا جميعنا نصيينا منها..

- كلام لا بأس به، إذن فجسار نقي السريرة معتنق لمذهب

مكارم الأخلاق، ورجل عارف ربه ودينه، أليس كذلك؟

- بلى..

بدا (جسار) مُسترخياً، مُنبسطاً الأسارير إلى أقصى حَدِّ الآن، لقد

ثبتت براءته أمام الله وأمام القوم فمن أسعد منه؟

أو إنه كان كذلك قبل ظهور تلك الفتاة من العدم!

أول من أبصرها (مشهراوي)، الذي تراجع للوراء مُتمتماً

كالمصعوق:

- بسم الله الرحمن الرحيم! ربنا عافنا وعاف عنا!

كانت الفتاة صغيرة السن، لكن قوامها ناضج وكأنه لامرأة،

مليحة الوجه ممتلئة المفاثن، تعلو مسحة من الحزن والكآبة سحنتها،

كما أنها تفرد شعرها الكستنائي الطويل والناعم على عينيها اليسرى..

كانت ترتدي قميص نوم أبيض يكشف عن ركبتيها وكثفيها،

مشكلته الوحيدة أنه ملطخ بالدم موضع البطن!

استعاذوا بالله من الشياطين حتى كَلَّتْ ألسنتهم، أما رئيس المخفر
فقد رَسَمَ بِسْمَةِ مُحَنَكَةٍ عَلَى شَفْتَيْهِ مَتَسَانِلًا بِمَكْرٍ:

- إذن.. من تكون هذه يا حاج؟

- لا أعرفها! لا أعرفها!

- كلِّكم تكررُون ذات الكلام، وفي النهاية..

مَنْ هذه الحلوة يا حاج؟ فتاة أسأت إليها؟ لطخت سمعتها؟ قتلتها؟

تكلمت الفتاة.. بصوتٍ حزين، ودموعٌ خالطها كحلها الأسود
هطلت من مقلتها المكشوفتين للعيان صاحت:

- طفلي.. أين طفلي؟

ارتعشت أطراف (راجح) وهو يصرخ:

- اغربي عنا يا شيطانة!

قال رئيس المخفر محتلاً:

- صه.. دع الفتاة تتكلم!

وواصلت الفتاة الانتحاب وهي تصرخ مُقْتَرَبَةً بِقَدَمَيْنِ حَافِيَتَيْنِ:

- طفلي الذي أجهضته بالقوة يا مجرم.. أين طفلي؟ أين هو؟

- طفل مُجَهَّضٌ إذن! أهو غير شرعي يا حاج؟ آه! أسمع

أصوات الطرقات؟ تبدو لي كأصوات مطرقة القاضي!

صرخ (راجح) كاجنون:

- كذب! كذب! أنا لا أعرف هذه الفتاة.. لا أعرفها!

وبتوثر قال (شاهر) مخاطبًا رئيسَ المخفر:

- يبدو صادقًا يا سيدي، أرى أن..

- صه أنتَ أيضًا! هل تأثرت بسهولة؟ ألم تسمع الاتهام؟ ألم تسمع

صوت الطرقات المروع؟ لقد أدين هذا الرجل ولا رجعة في حكم
أصدرَ بقضاء رباني!

هل ستعترف يا (راجح)؟ أم ستكابِرُ وتماطلُ كما صنع المرحوم

(جسار) ومن قبله المرحوم (جعفر)؟

لم يستسلم (راجح)، بل صرخ مهددًا بقبضته:

- يا فجار! أنتم قلتم إن سمعتي عطِرة.. أتصدقون وهما؟ أتصدقون

شيطانة متكررة؟ إنما تابعة لإبليس اللعين! جنية أرسلها لتدميرنا جميعًا!

- الجواب بلا.. لا بأس.. أتودُّ فتح الباب أم نجركَ إليه جرًّا؟

- إليكم عني!

وتراجع والشراسة بادية على ملامحه، فهتف رئيس المخفر ظافرًا:

- دليل إدانة جديد! ليت أحدكم يعترف! ليت أحدكم يثبت رجولته ويجرؤ على الاعتراف! كلكم أوباش تخفون من المصائب ما يكفي للء آبار!

- "أين طفلي؟ هذا الرجل قتل طفلي!"

- من كانت يا (راجح)؟ زوجة طلقته أم عشيقه نبذتها؟

- هي كاذبة! كاذبة!

- تريث يا سيدي أرجوك!

وبازدياد صوت الطرقات على الباب ساد المهرج والمرج..

5

تحوّل فم (مشهراوي) إلى مدفع لإطلاق القبيّ، أما الباقيون فقد
ظلت أبصارهم مُعلّقةً بالباب المفتوح الذي أرجحته الرياح..

لم يكن (راجح) بينهم، وبالطبع تلاشت الفتاة بعدما أدت مهمّتها
التي ظهرت لأجلها..

ربت (سعد) على ظهر أبيه متسائلاً بقلبي:

- أبتاه.. أأنت بخير؟

- بخير؟ أي خير وأي.. ألم تكن تشاهد؟ ألم ترَ ما أصاب عمّك

الحاج المسكين؟

وتفوّة برُعب هائل وهو يمسح فمه:

- أكانت تلك المخلوقات المشوّهة.. أطفالاً؟

ردُّ رئيس المخفر متجهماً:

- بدوا لي كذلك، لولا مخالبتهم المروعة ووحشيتهم..

- أعوذ بالله من غضب الله! لكنهم لم يمسه بسوء، فقط جرّوه

خارجاً، ماذا تراهم يصنعون به؟

- ينفذون عقاب الله به طبعاً.. لن يلعبوا معه الغميضة مثلاً!

- على ماذا؟ ما الذنب الذي اقترفه الرجل؟

- ألم تفهم بعد؟ تلك المخلوقات كانت أطفاله! يعلم الله كم من

النساء عرف ذلك الرجل! يعلم الله كم تزوج منهن أو عاشر بالحرام!

يعلم الله كم من الأطفال أجبر نساءه على إجهاضهم مخافة الفضيحة!

- أعوذ بالله من غضب الله! كيف تبدو واثقا هكذا؟ نحن لا نرى

إلا كوابيس وعفاريت وأشباح!

- الأمر كله بعضه مُرتبط ببعض.. الأشباح هي الضحايا

والشهود نحن، أما ما يأتي عبر هذا الباب فتمثل بالعقاب.. ويبدو

وأنجزاء من جنس العمل!

في قرارة نفسه آمن (شاهر) أن الرجل لم ينطق إلا بالصدق، ما

رآه يؤكد ذلك، يبدو أن الظلام قد حلّ على البلدة ولن يغادرها إلا

إذا اعترفوا جميعهم بخطاياهم، وتقبلوا العقاب المروع على ما اقترفوه

من ذُنُوب..

لكن لماذا؟ لماذا يجبرهم الطاغية على فتح الباب في كل مرة؟ إنهم يملكون الحق كل الحق في الذود عن أنفسهم..

هكذا تنحج وهو يرمق رئيس المخفر بنظرات حازمة..

- "ماذا تريد هذه المرة يا فتى؟"

- "سيدي، لقد بدأت أقتنع بموقفك.."

- "حمداً لله!"

- "لكن.."

وتأمل الوجوه المتربصة به، وسمع رئيس المخفر يتساءل بنفاد صبر:

- لكن ماذا؟

- يحق هؤلاء الدفاع عن أنفسهم.. أقصد نحن! فنحن لسنا مجرد أضحيات وقرابين تُقدّم للمحرقة كلما أوقدت نارها..

- إلام ترمي؟

- ما دمت قد نصبت نفسك قاضياً وجلاداً في آن واحد، فاسمح

لي - على الأقل - أن أكون محامياً!

- ماذا قلت؟

بدا كأنه سيسخر منه بعبارات مهينة، إلا أنه صمت مُقلِّباً الموضوع

في ذهنه..

وفي النهاية، رسم بسمّة راضية على شفّيته قائلاً:

- لا بأس، هذا حقّكم، وإن كنتُ أرى أنك تضيع وقتك سُدى،
فالعدالة الإلهية ليست بحاجة إلى أعذار وتبريرات بشرية..
- سأتحمّلُ أنا المسؤولية..

- لا أدري كيف ستفعل، لكنها مُشكلتُك الآن..
- أشكرك..

نظر رئيس المخفر إلى الوجوه المُحملقة مُتسائلاً:

- أتقبلون به محامياً يذودُ عنكم؟
تبادلوا النظرات قبل هزّهم رؤوسهم علامة الإيجاب.. لا خيار
لديهم..

- "إذن، من الآن فصاعداً سيكون الأمر نظامياً كما لو كنا في
قاعة المحكمة، ولن نفتح الباب حتى ولو حطمتهُ الوحوش إلا عند
تأكّد إدانة المُتهم!"

بدا الحُلاصُ على الوجوه، وكأنما الظلمات قد انقشعت أخيراً،
فنظر رئيس المخفر إليهم وقد ارتسم تعبيرٌ صارمٌ على تجاعيده شِبهِ
الغائرة..

- "(سعد)!"

انتفض الفتى المشاكس حتى كاد يختلُ توازنه، في حين شحبَ وجه والده وهو يلتفت إلى رئيس المخفر صائحًا:

- ولماذا هو؟

- لأني أريد الانتهاء بسرعة..

- ماذا تقصد؟

- أقصد أن خطايا وَلَدِكَ بعدد شعر رأسه.. لا يمكن إحصاؤها أبدًا!

- حاكمي أنا ودَعْنِ..

- سيحين دورُكَ بعده.. والآن يا بني، ما قولك بالاعتراف وتوفير الوقت على الجميع؟ كن رجلًا وتقبلْ مصيرك ببسالة..
قال (شاهر) مُقاطعًا:

- بعد إذنك سيدي، أرى أن تترك لي مُهمّة استجواب (سعد)..

- لا بأس.. إذا ناديتَه بالمتهم!

- وهو كذلك.. أرجو من المتهم أن ينظر إليّ ويتناسى البقية..

للمرة الأولى يجد (سعد) نفسه ينظر إلى (شاهر) مُناشدًا ومتضرعًا، فلم يشمت الأخير أو يتشفّى، فقد كان صادقًا في عونه ومحاولة إنقاذه للكل..

قال له (شاهر) برفق:

- اسمعني.. لا بُدَّ أن خطاياك لا تعدو مُجرد السُّبَاب ومُضايقة
الفتية الأصغر سنًا والأضعف بنيةً، أليس كذلك؟

- بلى..

- مُتأكد؟

- نعم..

- لا بأس، اعترف إذن بخطئك، ويأذن الله لن تُعاقب على مثل
تلك الهفوات..

قال (سعد) دامع العينين:

- أعترفُ وأقرُّ بذنبي، لقد ضايقتُ كثيرين، وأنا آسف لذلك
حقًا..

- وأنا أصدِّقُك..

بدا الجميع مُرتاحًا لسماع ما يدور، وبالأخصَّ (مشهراوي) والد
(سعد) الذي كان مؤمنًا بنجاة ولده رغم أفاعيله الرُّعن، فهي مجرد
أفاعيل طيشٍ وقهْوٍ لا يمكن أن تؤذي أحدًا..

كان مُتشبِّهًا بذلك الأمل عندما اندلعت النيران..

نيران حقيقية لا مجازية! شعر الجميع بحرِّها وَلَفَحِها، فصرخوا بأن

واحد:

- "ماذا يحدثُ بحقِّ الله؟"

برقت عينا رئيس المخفر وهو يقول بظفر:

- آه! يبدو أن المتهم كان يكذب! ألدِّيك ما تُخفيه عنا يا فتى؟

بدا (سعد) مُمتقع الوجه، ثم بدا مَصْدُومًا مُرتعِبًا لَأَقْصَى درجات الرُّعْبِ لَمَّا أَبْصَرَ رجلًا مُسَنَّأً مُنْدَسًا فِي فِرَاشٍ، وَيَرْمُقُ الْفَتَى بَنظَرَاتِ الْإِتْهَامِ!

- "لكن لحظة، أليس هذا الحاج (سعفان) الذي قضى في الحريق قبل أعوام؟"

نظر الشيخ (جبران) إلى ملامح الرجل، حَدَّقَ فِي لِحْيَتِهِ الرَّمَادِيَّةِ وَنَظَارَتِهِ الضَّئِيلَةِ الَّتِي لَطَالَمَا اسْتخدمَهَا الْمَرْحُومُ فِي تَلَاوَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ، وَبِدَهْشَةٍ عَارِمَةٍ تَمْتَمُ:

- هو بعينه! الرجل الطيب كان مَشْلُوعًا، وَقَدْ قَلَّتْ فِي تَقْرِيرِكَ إِنْ الْحَرِيقُ نَتَجَ عَنْ إِهْمَالٍ مِنْهُ كَلَّفَهُ حَيَاتَهُ، إِلَّا إِذَا..

وصمت متسع العينين، ثُمَّ رَمَقَ الْفَتَى وَقَدْ فُغِرَ فَاؤُهُ، فَحَذَا الْجَمِيعَ حَذْوَهُ..

وهنا.. انهار الفتى جاثيًا على ركبتيه، وَقَدْ أَخَذَ يَنْتَحِبُ وَيَلْطُمُ كَالنِّسَاءِ صَارِخًا:

- كان حادثًا بالفعل، مجرد حادث!

أغمض (شاهر) عينيه مُتَأَلِّماً وقد أدرك الأمر كله، ثم تَتم مُحاولاً التماسُك:

- ماذا فعلتَ يا (سعد)؟

- أَلقيت بالسيجارة عبر نافذته بُغْيَةً إفزاعه قليلاً، فما إن شاهدتُ ألسنة اللهب المُندلعة حتى استبدَّ بي الرُعبُ.. قد كان حادثاً، لم أقصد إيذاء الرجل!

تألَّقت عينا رئيس المخفر ما إن تناهى إلى مسمعه صوت طرقات الموت على الباب، فهتَفَ كالمنتصر:

- لكن العدالة تُخالِفُك الرأي أيها الفتى، لقد ارتكبتَ جريمةَ مُروعةً، وأكادُ أَسْمَنُزُ كلما فكرتُ في كيفية تحمُّلك تأنيب الضمير كل تلك السنين، إن بداخلك بذرة مُجرمٍ مُحَنِّك!

والمصدوم، التفت (مشهراوي) إلى ولده قائلاً كالمُحطم:

- لا بُدَّ للحقيقة أن تتجلى يوماً مهما نحاولُ مُداراتها..

- أبتاه؟

- ألا لعنةُ الله عليك! ألا لعنةُ الله على الدنيا كلها!

ثم فاجأ الجميع باندفاعه صَوَّبَ البابَ، وبكل ما أوتيَ من عزمٍ فتَحاه..

غريب ألا يحاول الابن حماية أبيه، أو أن يصرخ به على الأقل بالآ
يرمي بنفسه في أحضان التهلكة من أجل ذنب اقترفه هو..

لكن (سعد) راقب هرولة والده ناحية الباب وبارقة أمل تشع من
عينيه المتسعيتين، وكأنه يتأمل طوق النجاة الذي ألقي إليه وسط
عاصفة هوجاء في عرض البحر الثائر..

انقبض قلبه عندما خرج والده إلى الظلمات، وظل ينصت لحفقاته
القوية التي بدت جَدَّ مسموعة لأذنيه، وبخاصة عَقْبَ تَوَقُّفِ الصرَّاح
والحريق والطِّرقات.. ووالده!

- "لقد جُنَّ الرجل!"

قالها رئيس المخفر في سُخْريةٍ مُندهشًا، لكنهم لم يبالوا بما قاله وهم
يحدقون بالباب غير مصدقين..

تھامسوا وكأنهم يخشون الهلاك تجرد النطق:

- هل مات؟

- لا أسمع صُراخه..

- ابتلعت الظلمات إذن، لن يعود..

- من يدري؟ لعله يرجع، لا أحسبه ممن اقترفوا خطيئةً كبرى..

دوت ضحكةٌ ساخرةٌ مُجلجلةٌ، فالتفتوا مندهشين واجمين صوب

رئيس المخفر..

- "ألم تفهموا بعد يا حمقى؟ الرجل علم بجريمة ولده وتستر عليها!
ما بالكم؟ ألا تنصتون؟ ألم تسمعوا ما قاله؟ أوليس هذا ما حدث يا
فتى؟"

ورمى (سعد) بنظرات قاسية وهو يقول بخشونة رافعاً سلاحه:

- أجب يا فتى..

طأطأ (سعد) برأسه مُجيباً بتخاذل:

- صحيح..

- أحسنت! والآن اخرج وابحث عن أبيك..

- لن أخرج..

- بل ستخرج رغم أنفك!

- قلتُ لن أخرج!

في تلك اللحظة، قُذِفَ بجسدٍ مُلَطَّخٍ بالدم عبر الباب، كأن
الظلمات نفسها لفظته..

كانت جثة (مشهراوي) وقد تشوهت تماماً بفعل مخالب حادة أو
شيء من ذاك القبيل، ولربما كان نَصْلٌ مُدِيَّةٌ لسفاح مريض، المهم أنهم
لم يتعرفوه إلا من ثيابه!

ومن جُعبته استخرج (سعد) مُطْوَاةً ماضية النصل انقض بما على
رئيس المخفر وهو يصرخ كالمسحور، فأنشده الرجل لحظة أطلق عقبها
مباشرة النار على صدر الفتى!

- "ماذا فعلت؟"

هكذا صرخ (شاهر)، فيما كان (سعد) يتهاوى مُعْتَصِراً صدره
المختضب بالدم، فأنخى مسار تصويب السلاح إليه هذه المرة، مع
صُراخ عصبي لا يمزح:

- اخرس! إنك حقاً تثير أعصابي أيها الغريب، أتودُّ اللِّحاقَ به؟
أقسم أن أنفذ رغبتك إن لم تصمتُ..

- تدعي العدالة وأنت مجرد طاغيةٍ يهتمُ لنفسه فحسب..

وعضُّ (شاهر) شفته السفلى قهراً حتى أدماها وهو يرمق جثة
(سعد) بضيق وتحسُّر، ثم همس معتصراً قبضته اليمنى:

- سيعاقبنا الله لأننا لم نحاول إنقاذه من هذا الجنون!

سمعه رئيس المخفر، فأمره بصرامةٍ عاتية أن يحمل الجثة ويلقيها
للظلمات.. رفض (شاهر) الانصياع بأدى الأمر، لكن طلقة بين قدميه
أجبرته على الإذعان مُمتعضاً..

- "من الآن فصاعداً لن يكون هنالك تردُّدٌ من أي نوع، من
يرفض الخضوع لمشينة الله سيموت من جراء رصاصة، أسمعتم؟"

وأشار بفوهة السلاح إلى الطبيب (سائد) بحدَّة، فتبدت رهبة على
وجه الأخير وهو يرفع كفّاً مُهدنةً مُغمغماً:

- لا داعي لتهديداتك الجوفاء، سأقرُّ وأعترفُ بكل شيء!

6

الكلُ أجمع أن على الفقى المثالي أن يكون خلوقاً مُطيعاً لوالديه،
ومتفوقاً في دراسته، إضافة إلى عوامل أخرى..

والدة (سائد) كانت مُقتنعةً أن ولدها كذلك وأكثر..

وحدثها منذ وفاة زوجها جعلتها تعتبرُ وحيدها رَجُلَ البيت، ولقد
عوّضها كثيراً عن الحبِّ البشري الذي افتقدته منذ زمن..

حين تستيقظ من النوم تجده قد حضرَ وجبة الفطور بنفسه، بيض
مقلي، دائماً البيض المقلي فهو لا يجيد تحضير أطباق أخرى.. يناولها
قدح القهوة قائلاً بابتسامة لطيفة شوّهتها السيجارة المتدلية من بين
شفتيه:

- صباح الخير أيتها الأميرة النائمة!

تبسم، وتركه يقبّل جبهتها وهي تردُّ:

- أميرة مرة واحدة؟
- علي الإسراع إلى الجامعة اليوم..
- هل ستذهبُ برفقة (مجد)؟
- إنه صديقي الوحيد..
- يجب أن تكونَ صداقاتٍ عديدة يا بني..
- كلما قلّ معارفي ازدادتُ حُرِيَّةً.. ثم إنك صديقتي!
- ونض بعد أن أطفأ سيجارته البغيضة مُقْتَرِبًا من والدته، فعانقَها بقوة وهي تغمغم له مُشْفِقةً:
- ما يهمُّني هو سعادتك فقط..
- صوت جرس الباب، فأسرع يقبل جبهتها مرة أخرى قائلاً بعجلة:
- وصل (مجد)..
- وفقك الله يا بني..
- أسرع يفتح الباب ليطلع وجه صديقه العابس على الدوام.. فقال له بعبوسٍ مُماثلٍ:
- تبدو بحالٍ مُزريَّة، هل كنتَ ساهراً؟
- حتى مطلع الفجر..

- على ماذا؟
- أفلام إباحية..
- هيناً لك!
- وتجاوزه مُندفعاً في طريقه، فلاحق به رفيقه قائلاً:
- لحظة واحدة..
- توقف، والنفت مواجهها (مجد) الذي توقف هو الآخر قبل أن يواجه (سائد) بنظرات مُعاتبَةٍ..
- "أنتَ تنهرُبُ مِنِّي حقاً؟"
- سكت (سائد) وهو يهزُّ كتفه، فسأله (مجد):
- ما الذي أصابك؟ من تراه وسوس لك ضدي؟
- لا أحد..
- لا أحد؟ لماذا تتجاهلني إذن؟ ماذا فعلتُ لك؟
- أنتَ لم تفعل شيئاً، لكنني أفضّل البقاء وحيداً هذه الأيام..
- وحدك مع رفاقك الجدد، أليس كذلك؟
- وما شألك أنتَ؟
- أنا صديقك، ومن مصلحتك الإصغاء إليّ..

- أنت لم تعد كذلك بعد اليوم، اتفقنا؟

وعجّل بالسير بعصيةٍ مُتجاهلاً نظرات (مجد) المُفعمة بالبلاهة..

(ساند) في المقهى مع رفيقه الجديد الذي يعلق حول عنقه قلادة فضيةً على صورة جمجمة..

قال الفتى وهو يسحب بِهمةٍ دخان "الترجيلة":

- فكر بعقلانية.. (مجد) المتطفل لا يريدك صديقاً بل أداة للتفكُّه،
قد يكون في كلامي إهانةٌ لك، لكن الإهانة الأكبر أن تستسلم للقليل
والقال الذي أتى عن طريقه!

- الحقير لا يريد تركي بسلام! لا يضيع فرصة شرح مشاكلي
وكشف أسراري لكل من هبَّ ودب..

- لعنة الله عليه!

ورمقَ الممر الفارغ من البشر..

- "لم أتوقع أن تزورني هنا!"

- "كنتُ ذاهباً للجامعة وبدلتُ رأيي.. ما الفائدة؟ فأنا راسِبٌ
بكل الأحوال.."

- "هل أطلبُ لك واحدة؟"

- "معني سجانري..."

ضحك الفتى وهو يعدل الطاقيّة فوق رأسه هامساً بتخاطب:

- أنت كائن نادر حقاً!

- ماذا تعني؟

- أعني أنك خلقت للحرية باكراً.. أنا أحسدك!

- على السجانر؟

- السجانر هي الحياة!

جلس (سائد) مع من يدعى (رزق) في مطعم لا يمتاز بالنظافة،
حيث حام الذباب في جوّه وعثت الجرذان من حولهما في قمامته..

جلسا يلتهمان شطائر الكبدّة بالشطّة، (رزق) كان يسند دراجته
البخارية العتيقة بالقرب منه قائلاً لسائد:

- لولا دراجتي الغالية ما أفدّتك بشيء.. ثم تأتي لتقول لي: ضَعها
في متحف؟

- أنا أقول هذا لمنجزاتها العظيمة!

ناوله (رزق) ورقيقةً ملوثةً بالزيت قائلاً بفم ممتلئ:

- هذه هي العناوين، لا تحد عنها وستال رزقا وافراً..

- لستُ مُبرمجًا كباقي الروبوتات البشرية على طاعة النظام! لا
بُدُّ من الرجل أحيانًا كي ننال مُبتغانا..

- يبدو لي أنك ستذهب إلى السجن هذه المرة..

- جميل أن يكون قلبك علي، لكن كفَّ عن نعيقك ولو قليلًا..

ثم قال وعيناه تشردان:

- أوضاع هذا العالم أوضاع! تعايش أوضاعا حتى تجنَّ أو تُصاب
بالاكتئاب، وأخرى تتمنى حدوثها لك حتى وإن كانت مؤذية..

- لم أفهم، إنك تفلسفُ الأمور..

لم يملك (سائد) تفسيرًا يمكن إفهامه لعقل كعقل رفيقه الأبله، كان
يتلو تلك العبارات على مسامع شبان في مثل حال (رزق) فينبهرون
به أحيانًا، تحصيلهم العلمي معدومٌ أو شبه معدوم، وقد كان هذا
يُناسبه، فكراهيته للمتحدثين المتعلمين تعليمًا مناسبًا جدًّا عظيمة، فهم
يجيدون استحضار أسماء ومصطلحات قد يجهلها..

أما أمثال (رزق) فيجاهرون بجهلهم من دون حرج، فهو من
البسطاء الذين لا يفهمون سوى حلول سبل العيش، وعقليتهم
محصورة في ادخار القروش وكسب النساء الممثلةات لأنهن أكثر شَبَقًا!
وملاء بطونهم بالطعام الرخيص وإن كان غير طيب المذاق..

و(سائد) يحب أجوبة (رزق) الخاوية، فهي بداية لمعارك كلامية من طرف واحد..

لكنه لا يملك الوقت الكافي للعراك الآن، عليه الاهتمام بعمله أولاً..

أشعل سيجارة مُتناولاً كيس النفاية الأسود بجانبه، وحيا (رزق) قبل انطلاقه بدراجته البخارية التي طلب استعارتها منه.. كان (رزق) قد وافق ما دام سينال "حلاوة" لقاء ذلك..

قادها (سائد) بحذر، فهو لم يكن بارعاً في قيادة الدراجات البخارية..

ظَلَّ يقودها حتى قَطَعَ مَسَافَةً إلى حيٍّ بعيد مُتعدد البنايات، ثم توقَّف متوارياً بما وراء أحدها، واستبدل ثيابه الجديدة بثياب من داخل الكيس، كانت بالية ممزقة..

صعد السلم حتى بلغ أول شقة، ودَقَّ جرسُ الباب مرات حتى فتحت له سيدة بدينة ينبعث منها رائحة سمن الطهو..

- "من أنت؟ وما الذي تريده؟"

- "حسنة لله.. حسنة لله.. أنا فقير ومسكين! أعرج بعد حادث كسر ركبتي!"

وقرن كلامه بكاءٍ مُصطنعٍ حراقٍ للقلوب، لكن المرأة لم تنخدع..

- "ما شاء الله! لم تعودوا تتسولون في الشوارع.. صرتم تصعدون إلى الشقق أيضًا!"

- "حسنة لله الله يخليك.."

صفقت الباب في وجهه قائلةً بلهجة شديدة:

- الله يعطيك!

بصق على الباب بصقةً هائلةً قائلاً بامتعاض:

- أخذك الله إلى سعيره يا بغيضة الراححة!

على كرسي غير مريح وضعوه في غرفة مليئة بشهادات التقدير لرجال الشرطة..

مع أن الحجرة تُشبه حُجرات التحقيق فإنه لم يشعر بوجوده داخل قسم من أقسام الشرطة، استعمل أسلوب النعامة التي تدفن رأسها في الحفرة.. كل هذا مجرد كابوس سقيم.. كل هذا يحدث لشخص آخر لا لي!

لم يشعر بالتوتر أو الخوف فتلك أمور تافهة في نظره.. الخواء.. هذا ما شعر به.. الخواء وتساؤلات عن كيفية انتهائه بتلك البساطة داخل حجرة تحقيقات في قسم الشرطة..

فُتِحَ البابُ ليدلف ضابط كهل يحمل كوبَ قهوة من البلاستيك،
رسم على ثغره بسمَةٌ واجمة مُداعِبًا فتحة أنفه بظفر خنصره الذي
يطيله كطرف المفك، وجلس مواجهًا إياه قائلاً بتؤدة:

- إخص.. شاب مثلك؟ يا للأسف!

ظل (سائد) صامتًا، فتنهد الضابط متناولًا من علبة سيجارة ثبتها
بين شفثيه، أشعلها وسحب نفسًا وهو يتابع بناظره الفتى، ولم يعرض
واحدة عليه لسوء الحظ.. عليه بالتماسك الآن وإلا أمار..

- "شاب سليم مثلك ويعمل بالشحاذة؟ ما الذي أصاب الدنيا؟"

- "أنا لم.."

- "ضبطناك مُتلبسًا وبالجُرم المشهود.. لا تضع وقتنا واعترف.."

عيناه لا تفارقان الفتى، تحاصرانه في كل زاوية.. في حين قال الفتى
بعد التردد الذي بان عليه:

- أعطني سيجارة وسأعترف!

- سيجارة؟ لا بأس..

وببساطة ناوله سيجارة بل أشعلها له، فدخن (سائد) بأنامل
مرتجفة والضابط يقول له ضاغظًا زرًا على سطح مكتبه:

- خذ راحتك..

دلف عريف أدى التحية، فقال له الضابط:

- أحضر قهوة للضيف..

- سادة أم سكر زيادة سيدي؟

نظر إلى (سائد) الذي أسرع يقول:

- سادة..

رَحَلَ العريفُ بعد أن أدى التحية مُجَدِّدًا، فتجاهَلَ الضابطُ وجود (سائد) مُنْشَغَلًا عنه بتقليب ملفٍّ كان بين يديه، وظلَّ صامِتًا حتى طَرَقَ البابُ ودخلَ العريفُ..

كان يحملُ حبلًا وخيزرانة مُريعة الشكل! فألقى (سائد) بالسيجارة بعيدًا وهو يشب كالجرادة صائحًا:

- ماذا ستفعلون بي؟

- ماذا؟ ألم تطلب قهوة سادة؟

ثم انقضا عليه.. مُكْبَلًا ساقيه بالحبال وقام العريف برفعهما، في حين انمال الضابط بالخيزرانة على قدميه الخافيتين صائحًا بغضب مُخيف:

- تشحذ يا نفاية؟ تشحذ يا حثالة؟

- خلاص! آخر مرة.. أقسم بالله العظيم!

- لا تُقسِمُ يا حثالة.. سأجعل منك عِبْرَةً!

- الرحمة!

ومن ثم انقلبت صيحات الاستعطاف إلى صراخ هستيري يشتعل غضباً:

- يا أوباش توقفوا! يا مجانين! يا ملاعين!

- نحن ملاعين يا نفاية؟

تحوّل الضرب إلى معركة، صار أقوى وأشرس، و صار التوقُّف أمنية خالصة من أعماق القلب..

ثم أتى الانهيار أخيراً، فالبكاء والنحيب، ورغم ذلك استمر الضابط، استمر حتى بان العرقُ في إبطيه، وتيقنَ من هزيمة الشاب هزيمةً مُجحفَةً..

جلس على طرف مكتبه لاهثاً مُتعرِّقاً قُبيلَ ابتسامته..

- "لقد أتعبتنا!"

بدا وكأن الطبيب قد فرغ من تسجيل اعترافاته شفهيّاً أمام البقية الباقية من الأحياء..

تمنّى رئيس المخفر في ملامحهِ قبيل تبسُّمه مندهشاً..

- "لظالما تسترت السواهي بالدواهي!"

بدا (سائد) خجلاً وهو يتمتم متحسّساً مؤخر عنقه:

- لكنني اجتهدت فيما بعد وأقلعت عن ارتياد المقاهي وتحصيل مصروف الجيب بالشحاذة، فدرست وملتُ بعثةٌ وعدتُ بشهادة طِبِّ!

- أهذه جُلُّ خطاياك؟

- ذات مرة قذفت حجراً على قط ضالٍّ فأصَبْتُهُ في رأسه.. ماذا تريد أكثر؟

- أنت.. ولكن لا بأس! هي جنازتك، ولن يسير فيها أحد سواك، فهلُمَّ اخرج!

راقبوه صامتين متوجسين، وقد توقع معظمهم انهياره في أية لحظة، لكنه خيَّب توقعاتهم لما فَتَحَ الباب وخرج بكل طُمأنينة وثِقَةٍ بالنفس! ظلّوا على صمتهم وقد أصاحوا السَّمْعَ جيداً، وفي هذه المرة توقعوا جميعهم سماع أصوات صراخ، أو رؤية جثة ممزقة لأشلاء تعود إليهم عبر الباب..

إلا أن انتظارهم طال وطال، وفي النهاية قال (شاهر) بمس خفيض:

- لقد نجا الرجل.. كان صادقاً في كل اعترافاته فَعَفَرَ الله له!

- "ربما!"

نظر (شاهر) إلى رئيس المخفر، فوجده عابس الوجه وكأنه متضايقٌ لنجاة الرجل، واسترسل مُحدثًا في قدميه الحافيتين إلا من جوربين أسودين:

- ربما كان موته هادئًا نظرًا لتفاهة خطاياہ! دَوْرُ مَنْ الآن؟

- أنت تتمنى هلاكنا جميعًا!

تبسّم الرجل بسمّةٍ عصبيةٍ دون أن يرد، فتوجّه (شاهر) بحديثه صوب الباب قائلاً بحزم:

- فليكن ما حدث عبْرَةً لنا، طريق النجاة بات واضحًا، من الآن فصاعدًا لا مزيد من الأسرار والحفايا.. لا مزيد من التستر على الفضائح والجرائم..

نظر رئيس المخفر بدوره إليهم:

- "حسن.. لم يتبق سوى ثلاثة، فما رأيك أيها الفيلسوف بالبدء؟"

قال (شاهر) وعيناه مغمضتان:

- حكايتي أنا؟ حكايتي طويلة.. طويلة للغاية..

- ونحن نملك كل الوقت الذي في العالم!

- وهو كذلك.. سأقصُّ عليكم كل شيء..

7

عندما أنهى (شاهر) حكايته، رفع وجهه متأملًا رئيس المخفر بالذات..

سال عَرَقُ الرجلِ غزيرًا، وبصوتٍ تحشرجَ بشدةٍ تساءل وقد بدا وجهه مُحْتَقِنًا:

- أيُّ حكايةٍ هذه يا فتى؟

- إنها.. حكايتي!

بدا مُخْتَلَفًا، كان أكثرَ ثقةً وتصميمًا، وعندما دنا شهر رئيس المخفر المسدس في وجهه، لكنه بدا غير مُبالٍ وهو يواصلُ الدنوَّ منه قائلاً بتهكُّمٍ:

- هلم اسألني عن التي رأيتها في الغرفة داخل المصححة!

- إليك عني!

- أيها التّعس.. ألم تفهم بعد؟ إنه الاعتراف! كان يجب عليكم الاعتراف للنّجاة من ظلمات العقاب المروّع!

اختنقت حروف كلمات الشيخ (جبران) عندما تساءل:

- من التي رأيته داخل الغرفة وجعلتك تولي الأدبار بملع؟

- رأيت..

عندئذ حصل الزلزال المريع، ومن حول رئيس المخفر تشققت الأرض بعنف!

صرخ رئيس المخفر كالمجنون:

- لا أستطيع التحرك! أوقف ذلك.. أوقفه!

وصوب السلاح مُطلقاً رصاصة طائشة، فلم يأبه (شاهر) لذلك قائلاً بوجوم:

- قد كابرْتَ وكابرْتَ ولم تعترف، نصَّبَ نفسك القاضي والجلاد وأنت نفسك من المذنبين.. والآن آن أوان العقاب!

- أنا لم أرتكب إثماً! سنين بعدد شعر الرأس كنت ولازلت شرطياً شريفاً ومُتفانياً في عملي..

- وما زلتَ تكابر؟

وهنا، انهارت الأرض أسفل الرجل، فسقط مُطلقاً أعنى صرخة
مُمكنة مُحاولاً التثبُّت بأيِّ شيءٍ..

إلا أن الظلمات كانت الأسرع، فابتلعتهُ بلا هوادة..

سَعَلَ وبشدةٍ، فأدرك بأنه ما زال على قيد الحياة..

ثمّة رضة مؤلمة كجمرة عالقة في ركبته، فتحسَّسها ضاغطا أسنانه
لكتم صيحة الألم المُمِض، وعقب اعتياد بصره العتمة تلفت من حوله
مرتعداً والعرق يطفو على جلده..

أبصر رأساً عملاقاً لحيوان رنة بالقرب من خزانة تخصُّ مصحة
مهجورة، إلا أنه كان مُحطماً بعنف، مثله مثل أركان المكان وأثاثه
المغطى بكتل الغبار السميكَة وشباك العناكب!

سمع صوت رنين أفرعه بشدة، فتلفت ليجد جرساً صَدْنَا على
طاولة الاستقبال، ضئيلاً كالناقوس، كان زره المعدني يُضغَط من تلقاء
نفسه!

صرخ:

- أنا لم أرتكب إثماً! لم أرتكب إثماً! لسنوات كنتُ شرطياً يُشهدُ
له الكل بالكفاءة!

- " أنا لم أرتكب إثماً! "

بلغ مسمعه ذلك الصدى الساهر المروع، فتلقت حوله كالمصدوم
باحثاً عن مصدره..

واذ بباب إحدى الغرف يتحطم بعنف، وشاهد ببصر مصعوق غير
مصدق ثعباناً أسود هائل، حجمه يفوق التصوّر، عيناه الضيّقتان
كدبوسين كانتا تلتصمان في الظلمات كأعين الهرة أو الضباع!
كان الثعبان يزحف بسرعة مذهلة وثائرة مُحطّماً كل ما يعترض
سبيله، وعَرَجَ الثَّعْسُ بخطوات مُتخبطة مُرتعبة وهو يصرخ كمن جُنَّ
أخيراً..

استشعر الصمت أخيراً، ولما التفت ساكنًا متعجباً فوجئ وبوغت
بأنياب خنجرية لا مثيل لحدّها تنهش معدته على نحو مُقَرَّزٍ، فجر الألم
الجنوني المسعور في أوصاله وبين ثنايا عقله!

- " الرحمة! "

أفاق ليجد نفسه على قيد الحياة، معدته سليمة لم يمسه أيُّ
سوء!

- " مجرد كابوس لعين! مجرد.. "

فوجئ بذات الرضة، وبوجوده في ذات البقعة المظلمة والمهجورة
من المصححة المهجورة المخيفة..

سمع بأذن غير مصدقة صدى رنين الجرس، وبرُعبٍ أشد ذات
صدى الصوت الساخر:

- " أنا لم أرتكب إثماً! "

وبرُعبٍ يفوق سابقيه انفجر باب الحجرة نفسها لينخرج ذات
الثعبان الرهيب الأسود الذي زحف بسرعة تفوق سابقتها، وقد كان
مُدركًا مكان ضحيته بذات الدقة..

وعندما أطبق بأنياه على معدة رئيس المخفر هذه المرة أيضًا، رفع
الأخير عقيرته بالصُراخ وقد أدرك أخيرًا العذاب الأبدي الذي حلَّ
به..

8

قال (شاهر) وسبأته مُصوبةٌ نحو الشيخ:

- ماذا عنك؟

- لا شأن لك بي!

- أتقصِدُ أنك ضامنٌ لجائتك أنت الآخر؟

- بالطبع!

- يا لها من ثقةٍ عجيبةٍ بالنفس!

- لماذا؟ ألا تمتلكها أنت الآخر بعد الصفقة المزعومة التي عقدتها؟

- لا يمتلكها سوى أحمق أو مغرور، نحن في موقفٍ هو الأصعب

على الإطلاق، وليس بإمكاننا الوثوق بشيء..

- بإمكانك التحدثُ عن نفسك، بإمكانكم التحدثُ عن أنفسكم، لكنني واثق بنجائي، فأنا عبدٌ من عبيد الله، وخادمٌ مُطيعٌ لبيته..

- أو أن هذا ما تظنه..

- أنا أعلم! بل مؤمن!

- تتحدثُ كمن شعر بمنجل الموت يتحسّس عنقه.. لماذا؟ ماذا فعلت من خطايا كي تتحدث بهذا الشكل؟

- خطاياي هي خطاياي، ولن أجاهرَ بالمعاصي أبداً..

- إذن، فثمةُ خطايا في حياتك المُفعمة بالتقوى.. يا لها من مفاجأة!

ظل الشيخ (جبران) صامتاً والضيقُ بادٍ على وجهه، فطفح وجهه (شاهر) ببشرٍ غريبٍ وهو يهتف مشيراً له بسبابته مجدداً:

- هلم، أتحننا بمصائبك، من الواضح أنك كارثة بقدمين يا شيخ!

- أنا لا أسمعُ لك!

- وأنا لا يهمني..

كان مضطرباً، فأوماً (شاهر) برأسه قبل أن يقول:

- لا بأس، فالمصائر باتت مُحددة..

وبدا وكأنه سيظل واقفاً حتى مماته، لكنه في النهاية خرج..

ومثلما حَدَّثَ مع الطبيب مرت دقائق عديدة دون أن يسمع
الشيخ صراخاً أو يرى جثة تعود مُمزقة مُشوّهة!

- "فليأخذني (عزرائيل)!"

تأمل الشيخ (جيران) الباب الذي خرج منه (شاهر) مُطوّلاً، شعر
بالارتياح أخيراً لخروج الفقى المُخيف، وأطل ببصره داخل الحفرة التي
ما زالت ظاهرة ذات قعرٍ مُظلم لا يمكن تبيّنه أبداً..

ثم رَمَقَ الصبي المزوي خوفاً بنظرات تفيض حُناً ولُطفًا، وقال
بدفء كأنما يُخاطبُه:

- "مات الشرير المُكابِر! مات المدعي الشيطاني مُحاولاً إقناعنا أنه
أفضل الجميع خُلُقًا، مات وبقيتُ أنا العبدُ الصالح!"

وحَدَّقَ بالسقف مُتتهداً براحه جَمَّةً، ثم عاود تأمّل الصبي
الصامت..

مرت دقيقة كاملة وهو يُطالِعُه، ولما انحلت عُقدة لِسانه سأل
الصبي:

- إذن.. هل تؤدُّ الاعتراف أنت الآخر؟ أم تؤدُّ سماع اعترافي أنا؟

ثم دنا منه ببطء، فزاد الصبي من التصاقه بالجدار..

- "لا تجزع هكذا مني يا بُني! أجل.. لكل منا خطاياها! ليست المشكلة في الاعتراف، بل في التوبة النصوح!

وأنا قررت.. قررت أن أتوب توبة نصوحًا.. من جديد!

كانت توبتي الأولى قائمة منذ سنوات عشر، صمدت وأبليت في الصومود.. والآن، حان الوقت لنيل مكافأة بسيطة على ذلك الصومود المضي.. وبعدها.."

كان قد بلغ الصبي، فركع ليداعب بأصابع مرتعدة شعره الناعم وبشوقٍ مهووس، هامسًا بجشع:

- توبة نصوحًا لا رجعة بها.. أنا أعدك! هذه المرة فقط!

رباه! كم أنت صبي جميل! ابن من أنت؟ لا تخف! أنا لن أؤذيك!
- "لا تلمسه!"

جمد الدَّم في عروق الشيخ، فنهض من ركوعه قبل التفاته البطيء للوراء..

عندها، وقع بصره على (شاهر) الذي وقف عند الباب والاحتقار يملأ ناظريه!

جحظت عينا الشيخ جحوظًا مبيّنًا، وقد تصلّب عيناه في محجريهما على ملامح وجه (شاهر) الذي قال مستبشعًا:

- اتركه حالاً!

- أنت! ولكن.. كيف؟

ألم ترحل؟ كيف ولماذا عدت؟ ألسنت في حلٍّ من انتقام الظلمات؟

- ربما، ولكن ماذا عنك أنت يا شيخ مسجداً المبجل؟ ماذا كنت تنوي أن تفعل مع هذا الصبي؟

كان الشيخ قريباً من سلاح رئيس المخفر الملقى بجوار الحفرة، أقرب من (شاهر) الذي حاول بسرعة ولم يفلح..

وفي الثانية التالية كان السلاح يوقد في قبضة الشيخ التي صوّبها اتجاه صدر الفتى..

ضحك الشيخ ضحكةً سالَ لُعا به لها، وبعقيرة غاضبة صرخ كمن فَقَدَ رُشدَه أخيراً:

- أنا الأجدرُ بينكم بالمغفرة!

ثم ألصقَ قُوّهة السلاح بصدغه وأطلقَ النَّارَ..

بدا المشهدُ كعرضٍ على شاشة التلفاز جُمَدَ بكبسة زر عن طريق جهازٍ للتحكم عن بُعد..

ثم وببطء السلحفاة، تصاعدت حول جثة الشيخ مادة لزجة بدت
كالقطران الأسود المغلي، فأحاطت بالجنة قبيل ابتلاعها، ومن ثم
تلاشى كل شيء كأن لم يكن!

حتى الحفرة ارتجت بشدة وبقوة مزلزلة أركان المسجد، وببطء
عادت للالتحام من جديد!

بقي (شاهر) واقفا مع الصبي، وعندما نظر للخارج عبر الباب
المفتوح على مصراعيه همس:

- الفجر ينبلج أخيراً..

نظر الصبي له.. أخيراً نطق.. فقال بنبرة بدت وكأنها آتية من قعر
بئرٍ سحيقة:

- أعتقد أنه يجب عليك الاعتراف أيضاً!

صمت (شاهر) كأن على رأسه الطير، لم يشعر بالخوف، كان
شعوره الطاعني والمشغل لكاهله هو الحزن العميق، فجلس القرفصاء
متمتماً بذلً وانكساراً:

- كيف أبداً إذن؟ أنا مجرد مُدمنٍ شقي لا يميزه شيء، ولم يعرف
أباً أو أمّاً في حياته..

أنا ابن حيٍّ فقير، صنعت من جسدي آلة عمل مجنونة كي أخرج
من الحضيض، عملتُ نادلاً في مطعم واحتملت إهانات الزبائن

وصاحب العمل، وحلمتُ بالمال الوفير والفتاة المثيرة كأني شابٌ حالم،
ثم توقفتُ عن الحلم مُتبيِّناً الفاجعة، لن تكون لي فتاة أبداً، ولن أمتلك
مالاً وفيراً مهما أحاول!

ثم تعرفتها.. كانت فتاتي، زوجتي الحبيبة.. أنستني كل ما فكرت
به سابقاً لدى زواجنا، الرحمة كانت موجودة لكنني تظاهرت
بالعكس..

كنتُ أعمل لتحصيل ثمن المُخدِّر المُطوَّر، تعاطيته مُتجاهلاً آلام
زوجتي، ثم حملت بطفلي الذي جاء للحياة مَظلوماً بسبب والد فاشل
لا همَّ له سوى التعاطي..

وابتسم منتحياً وأنامله تتلمَّس شفته السفلى المرتعشة:

- لم تعلم زوجتي شيئاً عن إدماني، كنتُ مُدمناً مُحنَّكاً يعرف
كيف يوارى آثار إدمانه جيداً، لكنني أخيراً دفعتُ الثمن وبأقصى
صورة ممكنة!

في ذلك اليوم طلبتُ مني زوجتي تحميم طفلنا، تركته لي لانشغالها
في المطبخ، اختارت أسوأ توقيت حيث كنتُ أهمُّ بحقنِ نفسي،
كانت..

كانت حادثة.. حادثةٌ لَعينة! ظلَّ الماء يتسرَّب والطفل في الحوض،
وكنتُ في غيبوبةٍ جميلةٍ بجانيه، أحلَّقُ مع طيور وهمية في سماءٍ مُلوَّنة!

وعندما أفقتُ وجدتهُ.. وجدت..

اختلطَ دمه بُمخاطه، صار جاثيًا على ركبتيه آملًا بحكم الموت..

- "وجدتُ ابني غارقًا! رأسه وأطرافه الصغيرة! كانت كلها غارقة في ماء داكنٍ مُخيفٍ.. وزوجتي..

زوجتي جُنَّت! لعنتني قبل موتهما في المستشفى! كانت الكوايس تُطارِدُنِي دائمًا بشأن طفلي الذي قتلته بحماقتي! ولم أتعظُ، بل واصلت إدماني اللعين هربًا من الدنيا وكوايسها المخيفة!"

صار الآن يلطمُ وجهه بضراوة، وقال ووجهه مدفون بالأرض:

- رأيْتُها.. (لؤلؤة)! زوجتي! كانت في المصحبة! ذات نظراتٍ مُعَاتِبَةٍ! لسانُ حائلها يقول لي: طِفْلُنَا يا (شاهر)! أَنْتَ قَتَلْتَ طِفْلُنَا!

أخيرًا، رَفَعَ وجهه الكالح الغارق بسوائل الضعف البشرية، فغمغم بهدوء:

- لا أعلم: أيعدُّ اليأس خطيئة؟ لكنني أدركُ تمامًا خطيئتي، وأعلم ماهيتها ومدى خطورتها.. لقد شككتُ برحمة خالقي، ولم أستعطفه في شيء قط، ولربما كان هذا السبب أكثر من كافٍ لنيل نصيب هائل من التعاسة، بقيتُ أشعر بما دائمًا وأبدًا كعذابٍ أبديٍّ..

ودمعت عيناه متأملًا الصبي الجميل، حَدَّقَ في عينيه الشفافتين مليًا وهو يتساءل بحسرة:

- هل سأحرر أخيراً من الكوابيس؟ هل تغفر لي الظلمات يا ترى؟

أشار الصبي للباب المفتوح بسبابته، كانت عيناه مُظلمتين الآن..
وبصوت بدا آتياً من قلب الظلام ذاته نطق:

- الله يغفر، والظلمات تُنفذ مَشِيئته!

هزّ (شاهر) رأسه موافقاً، ونمض ببطء وبصره مُعلق بالباب الذي
ولج عبّره نور الفجر الخارجيّ المُبهج..

هكذا، خرج وشعور الطمأنينة يسكن رُوحه أخيراً..

آخِرُ جُزْءٍ

حَلَقَ بَعْلُو مُنْخَفِضٍ فَوْقَ الْمَوْجِ الْأَزْرَقِ الْمُتَلَاطِمِ بِمُدْوَى نَسِيٍّ سِرْبٍ
مِنْ طَيُورِ النُّورِ الْبَيْضِ، مُلْتَقِطَةً رِزْقَهَا بَيْنَ الْفَيْنَةِ وَالْفَيْنَةِ بِمَنَاقِيرِ
مُنْقِضَةٍ نَادِرًا مَا تَخْطِي إِصَابَةَ الْمَدْفِ..

وَبَيْنَ الصَّخُورِ الْغَامِقَةِ ذَاتِ الْقَاعِ الطُّحْلِيِّ الْحَشِينِ، جَلَسَ عَدَدٌ
مِنَ الصَّيَادِينَ بِقَصَبَاتِ صَنَارَاتِهِمِ الطَّوِيلَةِ، يُجَرَّبُونَ حُظُوظَهُمْ مَعَ
الْبَحْرِ وَأَسْمَاكِهِ الْمَاكِرَةِ، عَلَيْهِمْ يَنَالُونَ شَيْئًا مِنْ حُظُوظِ طَيُورِ النُّورِ
الْبَارِعَةِ.. بَعْضُهُمْ أَتَى لِنَجْدِ التَّسْلِيَةِ وَقَضَاءِ الْوَقْتِ فِي رِحَابِ الْبَحْرِ
وَسَكِينَتِهِ الْمُطَهَّرَةِ لِنَفْسِيَةِ ابْنِ الْمَدِينَةِ الْمُلَوَّنَةِ، وَبَعْضُ الْآخَرِ قَدِمَ آمِلًا
بِرِزْقٍ شَحِيحٍ كَوْنَهُ لَا يَمْلِكُ مَرْكَبًا وَلَا عُدَّةَ صَيْدٍ مِنْ شِبَاكِ وَغَيْرِهَا..

وَعَلَى الشَّاطِئِ ذَهَبِي الرَّمَالِ حَيْثُ الْأَطْفَالُ يَمْرَحُونَ بِنَاءِ الْقِلَاعِ
الرَّمْلِيِّ الْمُهْدَدَةِ بِالْأَنْدَادِ لِقُرْبِهَا مِنَ الْمَدِّ، وَالشُّبَّانُ يُمَارِسُونَ رِيَاضَةَ كُرَةِ
الْيَدِ، وَالْكِبَارُ يَجَالِسُونَ بَعْضَهُمُ الْبَعْضَ عَلَى مَقَاعِدِ الشَّوْاطِئِ الْمُرِيحَةِ
ذَاتِ الْأَلْوَانِ الزَّاهِيَةِ.. تَمْشِي رِجْلٌ يُنَاهِزُ السِّتِينَ مِنْ عُمُرِهِ بِقَدَمَيْنِ

حافيتين فوق الرمل الدافئ، أشيبُ الفودين، ناصعُ البشرة، ذقنه
حليقٌ بعناية، وإن شابة جرحٌ قديمٌ لم ولن يندمل أصيب به في سنٍ
الكهولة..

تعلق بصره بالأشكال التي خطتها بقدميه فوق الرمل الناعم المريح،
كانت أشكالاً مبهمةً رَسَمَهَا بخطواته العشوائية المتعثرة، ثم توقّف وبدأ
يخطُّ أحرفاً أبجدية كما لو كان صبيّاً صغيراً، حتى كشفت بسمته
الواسعة عن أسنانٍ نَضِيدةٍ مرصوفةٍ بعناية، لطالما أثارت عجبَ
وغيره أقرانه من الزملاء والأصحاب، أولئك الذين تقاعدوا بأفواهٍ
خاليةٍ من الأسنان أو ببقايا أسنانٍ سود مُصْفَرّةٍ!

ألقي وراء ظهره بذلة أقدوانية كانت نظيفة ومكوية بعناية هذا
الصباح، وتابع مسيرته بغير هدًى مُستكشفاً ببصره الضعيف تفاصيل
الحياة باهتمامٍ غير مسبوق، لَبِثَ مُطَوِّلاً أمام الأمواج الهادئة، وتفكّر
في مرح الصغار وحيوية الشبان الفاتقة قبل مُعاودته التدوين على
الرمال البيضاء الناعمة..

توقّف بغتةً عما يصنعه وقد استرعى انتباهه شيء ما، كان مدفوناً
بين الرمال بعناية، كما لو أن أحداً تعمّد تركه هناك..

ولأن بصر المسنّ كان ضعيفاً، مال بجذعه مُتجاهلاً الألم الذي
سَرَى في ظهره كتيارٍ كهربائيٍّ، مائلاً باتجاه ذلك الشيء المدفون
والبراق بشدة تحت أشعة الشمس الذهبية..

عكف (شاهر) على انجيء للشاطي كلما أعلنت نشرة الأخبار أن
الموج سيكون في حالة مد، وذلك لأجل لوحة كان يرسمها بعناية
فانقة تتعلق برؤيته الخاصة للبحر..

في ذلك اليوم اختار بُقَعَتَه المعتادة شبه المنعزلة عن بقية الرواد
هاتكي جهال الشاطي ورويقه بلهوهم وسُخْفِهِم والنفايات التي
يُكْوِمُونَهَا هنا وهناك، وتنهَّد أول ما وصل عندما لاحظ نفايات باقية
منذ الأسبوع الفائت..

انشغل بخلط الألوان على القرص الخشبي ذي الفتحات التي
يمسكها بأصابعه، متأملاً ببصره شبه الناعس لوحته المثبتة على قائم
خشبي ثلاثي السيقان.. كان هذا عندما سَمِعَ صوتاً مُنبعثاً من وراء
القائم يقول بنبهة تحدٍ يسهل تبيُّنها:

- أنت ترسم البحر!

توقَّفَ عما يصنعه، ونظر وراء القائم ليطالعه رجلٌ مُسنٌّ حافي
القدمين، يحمل على كتفه بذلةً أقحوانية نصف مُبتلة وملطخة بذررات
الرمل، فتمتم مُصطنعاً ابتسامة:

- أستمحك عُذراً؟

نفخ المسنُّ بنفاد صبرٍ مُكرراً ما قاله، فتنهَّد (شاهر) شاعراً بحرقته
سوداء، انبعثت من ثنياه لاقترحام شخصٍ جذرانٍ حصنٍ عُزَلته الذي
ابتناه بُجْهَدٍ جهيدٍ..

- "لا بُدَّ أنك ترسم البحر، وماذا سيرسم واحد مثلك يقف قريباً منه غيره؟"

واحد مثله؟ بدت كإهانةٍ اضطر لابتلاعها.. لم يكن (شاهر) شبيهاً بالرسامين الذين يرسلون شعورهم وشواربهم طويلة بوهيمية كفرسان (ألكسندر دوماس)، في الواقع كان حليق الرأس تماماً وقد ارتدى ثياباً صيفية لا عيب فيها سوى ألوانها الباهتة من أثر الغسيل المتكرر..

أراد قولَ شيءٍ، دُعابةً بشأن "أمثاله"، لكن المُسنَّ سَبَقَهُ قائلاً بلهجةٍ ماكرةٍ:

- أراهنك على أنه البحر!

- تراهني؟

- أجل، فإن لم يكن أعطيتك ما وجدته!

هل قال ما وَجَدَهُ؟ ماذا سيعطيه إذن؟ صَدَفَةٌ أم سَمَكَةٌ نافقةٌ؟

واقترَبَ الرجلُ كأنما نالَ الموافقةَ على ذلك الرَّهَانِ، مُختلساً التَّنَظَرَ إلى اللُّوحةِ بوقاحةٍ كما اعتبرها (شاهر)، والمُضحكُ أن الرَّجُلَ بدا خائبَ الأملِ وهو يتأوَّه قائلاً:

- هذا ليس البحر!

نَظَرَ (شاهر) ليتأكَّد ما يرسمُه، لقد كان البحرُ فعلاً، لكنه رسمه على غير حاله، رَسَمَهُ على حقيقته، بعواصفه الهوجاءِ العاتيةِ وشراسيته التي أودت بملايين الأرواح عبر السنين..

ثم إنه قال باسمًا:

- البحر غدارًا!

لكن الرجل كرر بإصرارٍ مُخرجًا ما بحبيه يا حباط:

- هذا ليس البحر.. ليس البحر!

ومدَّ يده مُسقطًا شيئًا ما سارعَ (شاهر) بتلقُّفه قبل إيقاعه أرضًا..
كانت ساعة جيب فضيةً بلا سلسلة، شدَّةُ لَمَّا وَقَعَ بصره عليها
نقوشها البديعة والمُبهمَةُ، فُبهِتَ قائلاً:

- أنا لا أستطيعُ قبولَ هذه..

- أنت رُبِحتَ وأنا خَسرتُ.. هذا ليس البحر!

وفي تلك اللحظة، اقتربت شابةٌ جذابةٌ ترتدي ثيابًا صيفيةً خفيفةً،
فتشَبَّثَ بذراعِ المُسنِّ قائلةً بلهجةٍ لائمةٍ:

- أين ذهبَ يا جدي؟ هانتذا قد بَلَلتَ ثِيَابَكَ وَلَطَّخْتَهَا.. أين
حذاؤُك؟

وبلهجةٍ مُعتذرةٍ قالت مُتأملَةً (شاهر) بنظرةٍ سريعةٍ:

- لماذا ترعج هذا السيد؟ هَلُمَّ بنا..

ثم غمغمت بحرجٍ باسميةٍ:

- سامحنا، إن جدي مُزعجٌ بعض الشيء..

- لا عليك..

- آمل ألا يكون قد ضايقك..

- الواقع أنه شخص مُسل!

ضحكت لدعابته، وعاودت جذب الرجل المخوف قائلة بحزم أم تحاول تنشئة طفلها على الأخلاق القويمة:

- هلم بنا، كففاك عبثاً اليوم يا جدي.. عن إذك!

أوماً (شاهر) برأسه مُتأملًا بشفقة استسلام الرجل لها وهما يبتعدان، فما إن يقن رحيلهما بعيداً عنه حتى حوّل بصره إلى ما أخفاه بقبضته، وغنمه من ذلك العجوز المسكين!

في "الشاليه" الذي استأجره بعيداً عن صخب رُؤاد الشاطئ، جلس على طرف فراشه مُتأملًا الساعة الفضية العتيقة، تفحصها بأنامل خذرة، وقد شعر بغبطة تعتريه لحظه السعيد في تملك قطعة أثرية كالتى بين يديه..

وجدها معطوبة، فرقد على الفراش باسمًا بشيء من خيبة الأمل، وتمتم قائلاً وبصره لا يفارق عقارب الساعة الساكنة:

- لو أن (صغير) هنا لتمكّن من إصلاحها حتماً!

ألقاها إلى جواره، وسكن فترةً وكأنه استسلم للنوم، ثم ما لبث أن اعتدل واقفاً يتأمل اللوحات المرسومة التي احتلت أكثر بُقَع المكان.. لوحات استسخها من ذكريات عجيبة يُغلفها الجهول..

أكثر اللوحات لفتيان وفتيات، كل واحد منهم رُسم بوضعية تُناسب شخصيته.. فتاة بدنية ذات شفتين مُلطختين بالشوكولاتة، أخرى حافية القدمين رغم ثيابها الأرستقراطية.. فتى يحجب بصره يديه وقد حُمِلَتْ فيه مخلوقات عجيبة الشكل كأنها آتية من المريخ، وآخر جالس على مقعد مدولب وسط أكوام الكتب.. فتى يحمل دميةً تُماثلُه حجمًا وشكلًا.. فتى أشقر جميل على صهوة حصان بني، وآخر بثأليل قبيحة..

ثم لوحتان احتلتا الجزء الأكبر من الغرفة، الأولى تُمثل فتاة جميلة جالسة تبسم كالجيو كندا، وهي تضمُّ إلى صدرها برفقٍ وحنوً طفلًا رضيعًا..

لوحات متعددة، وذكريات تفوق الوصف لا يمكن حصرها في لوحات. وأسماء كثيرة مُبهمة ومضحكة تحمل شخوصها قصصًا تسترعي الانتباه والتعجب.. (أزوريت)، (ذهب)، (صغير)، (زغدة)، (حلزون) وغيرهم!

تنبه للوحة أخرى.. لها مكانة عميقة في نفسه لدرجة حجبتها بغطاء ستارة قديم، كأنما يُحافظ عليها من يدي مجهول آثم.. تملكه شجن

دفعهُ إلى إزالة الغطاء، فبدت فتاة عذبة ترفل في ثوب أبيض وأجنحة بيضاء ملائكية، فبدت كحور الجنة..

تلمسَ بخذر الوجه المرسوم في اللوحة، كان يذكر ملامحها جيداً..

جهزَ لنفسه قَدَحَ قهوة، وضعهُ على الطاولة حيث أوراق بحثه المتعلق بمادة (R.D.7)، التي تحولت الآن إلى مذكرات، صفحة بيضاء جديدة وقلم، لا وقت يُضيّعه، فهم آتون عما قريب!

استد خذهُ بيدٍ بينما يُدوّن بالأخرى حُرُوفَ كلماتٍ مهمة:

- "كانت الإفاقة من حالة الموت السريري كالخروج من قبو مظلم تحت الأرض، ولم أصدق حتى اليوم أن كل أولئك الذين قابلتهم شخصيات من نسج الخيال..

لكن المخدر المطور لم يكن مجرد هلوسات جنونية.. كان صديقي القديم (فيصل) الذي قابلته في الحي القدر وتجاهلته محباً للمطالعة، كنا نناديه بأرسطو الفصل من أيام الثانوية، لم يتوقف يوماً عن المطالعة، المخدر صنع له "سيناريو" بمنتهى الغرابة لما جعله مشلولاً يؤمن بحرفات الصّينين الشعبيّة، وهو دليل على أن (R.D.7) مخدرٌ غير عادي!

أما (داهوت) فقد كان مجرد نسخة أكثر وهناً من الفتي الذي
جاءته قبلًا، ذاك المدعو (حيدر)! (حيدر) لم يكن أشقر جميلًا،
و(داهوت) لم يكن مَفْتُولَ العضلات، ثمة حالة مَزْجٍ عجيبة حدثت،
فصنعتُ منهما شخصًا واحدًا في النهاية لا قُدرةَ له على مُواجهتي أو
أذيتي!

أتراها نَشَوَى المخدر؟ إذلال أعدائي وجعل الفتيات أسيرات
هوأي؟

حتى (هدهد) بدا قَرِيبَ الشَّبهِ من صاحب المطعم بالحي القَدْر!
أما (ناردين) فسبب تذكري لها طيلة الوقت هو (شهد)! تلك
الطالبة المقهورة من الحي القَدْر! الملامح واحدة وإن تبدت (ناردين)
أجمل وأرق! المخدر أثبت خطورةَ حقيقية، أثبت أنه يعرف كيفية
التسلُّل للدماغ والتأغيب به عن طريق هلاوس مُتَقَنَة!

أذكر حادثة وقعت عندما كنتُ طالبًا في الجامعة، فقريًا من
السكن قبضت الشرطة على شيخٍ مَسْجِدٍ يتحرَّشُ بالأطفال! رأيته
ورأيته الذي اقتاده، إنه رجلُ الأمن المتغطرس والمعتز بسلاحه الأسود
في جرابه!

أنتلك ترجمة المخدر لما وقع للرجلين في المسجد بتلك البلدة؟

وعندما مرضتُ زُرْتُ ذلك الطبيب الذي كان نسخةً طبق الأصل
من طبيب البلدة الذي نجا! كان رجلًا طيبًا سامحني بالأجرة وتمنى لي

حظًا طيبًا بالدراسة.. ألهذا كان الناجي الوحيد من مذبحة مسجد
البلدة المروعة؟!

أشهد بأن (R.D.7) نقلني إلى عوالم غير طبيعية، لولاه أيضًا لما
وجدتُ الخلاص الذي أنشدُه، فشكرًا لك أيها المُعلم على تلك
التجربة المُخيفة!
شكرًا لك!

لم يدر كم لبث على حاله تلك، عندما سَمِعَ طرقاتٍ على بابه..
جَفَلَ ناهضًا من مكانه، وعلَّتْ مسحةٌ تساؤلٍ وجهه مُتجهًا
صوب الباب، وعندما فتحه، تغيّرت تقاسيمُه لدهشةٍ عميقةٍ وقد
تبدّى عدم تصديقٍ في عينيه المتسعيتين..

وفي ذهنه، تبدى وميضٌ خاطفٌ للوحةٍ مرسومةٍ، ثمَّلَ ملاكًا
بجناحين بلون الشتاء الناصع!

- (ناردين)؟

كانت هي، الفتاة ذات الأجنحة في الصورة.. هي بذاتها! ذكريات
كثيرة! ذكريات ذات غموض متأرجح ما بين الوهم والحقيقة.. لا
تُمحى بسهولة!

خطت الفتاة ببطءٍ هامسةً بشفتين مُرتعشتين وقد دمعت عيناها:

- اشتقتُ إليك!

وأنت الحديث بأن ارتمت في أحضانه باكية، فشعرَ بالدموع تغمرُ
مقلتيه، وسعادة لا متناهية تملكه.. أنا لم أتمأثلُ للشفاء بعد، لكنني
مع ذلك سعيدٌ للغاية!

لم تبدل (ناردين) قط في نظره، لا تزال ذات المليحة صاحبة أرق
ملامح، لطالما ذكّرتَه بزواجه الراحلة، ذاكرته لا تخيب، يستطيعُ تذكُّرُ
شخص حكايته الغريبة واحدًا واحدًا وسط أفواج البشر، يستطيعُ
تمييزَ أصواتهم من بين آلاف الأصوات..
لقد عاش مع أوهامٍ ووقعَ في حُبِّ أوهامه..

طُرقاتٌ على بابهِ..

- جفَلَ ناهضًا من مكانه، وعلَّتْ مِسْحَةُ تساؤلٍ وجهه مُتجهًا
صوب الباب، وعندما فتحه:

- "السيد.. (كاسبار.. هاوزر)؟"

ابتسمَ وجفونه مُغمضة، وبهمسٍ وادعٍ أجاب:

- أجل!

فتحتهما، فأبصر عددًا من رجال الشرطة على رأسهم ضابط
تساءل بحيرةٍ مُطالعا ورُيقةً بين أصابعه:

- ها، أنت أجنبي يا سيدي؟

- لا..

- مسيحي؟

- لا..

- اعذرني على تطفلي لكن اسمك..

- لا عليك..

دس الضابط الوريقة داخل جيبه قائلاً بطريقة رجال الأمن المعتادة:

- أنت اتصلت بنا مُبلغًا عن جريمة وقعت، أليس كذلك؟

- بلى.. جريمة قتل!

- قتل؟ قتل؟ أين؟!

- لحظة واحدة.. تفضلوا بالدخول رجاء..

دخلوا ورائه وقد ساورهم شك عميق بشأنه.. اتجه (شاهر) للثلاجة الصغيرة متسائلًا:

- أتشربون شيئًا؟

- معذرة يا سيدي لكن وقتنا من ذهب..

- إذن لن أضيع مزيدًا منه..

وعندما فتح باب الشلاجة، انقلبت الوجوه دُعرًا صريرًا، وفي الثانية التالية وجد (شاهر) فُوهاتٍ مُعتمةٍ لأسلحةٍ مُصوَّبةٍ في وجهه..

- "إياك أن تتحرك!"

فرفع كلتا يديه عاليًا وابتسامة تضيء ملامح وجهه..

- "أهذا الذي بداخل ثلاجتك رأس؟ انطق!"

- "أجل!"

- "رباه!"

دنا عددٌ منهم والرُعبُ على وجوههم يفوقُ التصوُّر.. كان الرأس لرجُلٍ مُمتليٍّ، لحيته كثرة ذات لون رمادي تخللته بعض حُمرة الحناء، شبه أصلع، وقد استعان بتطويل ما تبقى له من شعر حتى بلغ كتفيه!

أشار (شاهر) بإهمام يده اليمنى المرفوعة لأعلى كمن يؤكد جودة سلعة ما، ويمرح قال:

- حَفِظْتُهُ لَكُمْ كي لا يتحلَّل.. أوليس جميلًا؟

مؤلفات أخرى للكاتب

- رواية "سأعطيك الحلوى شرط أن تموت": شركة المطبوعات للنشر والتوزيع - لبنان

- رواية "موت سريري": دار اكتب- مصر ط1

منشورات ضفاف- لبنان ط2

- رواية "مذكرات الجرذان الغريبة": ممدوح عدوان - سوريا

- رواية "سيمفونية وادي الظلال": سندباد للإعلام والنشر - مصر ط1

مداد للنشر - الإمارات ط2

- رواية "جنازة الملائكة": دار رواية - السعودية ط1

دار سما - الكويت ط2

- رواية "الملجأ": الرواق - مصر

- رواية "أمير وألف عدو": دار اليمام - الكويت

- "سيناريو الظلام: أمير الكوابيس"

- "سيناريو الظلام 2 المحقق السري"

ترجمات:

- "القصص المنسية"

- "سجين الجحيم" - كلايف باركر .. دار سما - الكويت

- "كريمي باستاز أساطير الانترنت المربعة": دار اليمام - الكويت

روايات:

"المصدر رقم 7" ج 1

"التابع الحارس" ج 2

"الهائمون" ج 3

"مندوب الشيطان"

"ملاك جهنمي"

"الزيبق"

صدرت عن بلاتينيوم بوك الكويت

للتواصل مع الكاتب :

E Mail: waelnovel@gmail.com

موت سريري

بعد تجربة مخدر (R.D.7) الجديد، سقط (شاهر) في فخ الموت السريري داخل مستشفى حكومي رخيص غير آبه بموته أو حياته..

الحالة استوجبت إطفاء الأجهزة، و(شاهر) رسمياً ميت بقرار طبي بالإجماع..

ثم استيقظ المدمن الهالك، وأقسم عقب التجربة المروعة أن يتوقف عن إدمانه للمخدر الرهيب، وتم نقله إلى مصح منعزل لمواصلة علاجه..

لكن عقله احتفظ برؤى عجيبة، فقد منحه السم المطور مقدرة رؤية ما لا تتمكن العين المجردة من رؤيته..

لقد رأى (شاهر) العالم على حقيقته، رأى دماره الذي بات وشيكاً..

صدر للكاتب

- رواية: "سأعطيك الحلوى شرط أن تموت".
رواية: "مذكرات الجرذان الغريقة".
رواية: "سيمفونية وادي الضلال".
رواية: "جنازة الملائكة".
رواية: "الملجأ".
رواية: "أمير وألف عدو".
"سيناريو الظلام ١: أمير الكوابيس".
"سيناريو الظلام ٢: المحقق السري".
رواية: "المصعد رقم ٧" ج١.
رواية: "التابع الحارس" ج٢.
رواية: "الهائمون" ج٣.
رواية: "مندوب الشيطان".
رواية: "ملك جهنمي".
رواية: "الزبيق".
ترجمات:
"القصص المنسية".
"سجين الجحيم".



دار الكتب للنشر والتوزيع
DAR AL-KUTUB PUBLISHING HOUSE

غلاف
Cover by Shahz-art